كريستينا هلميتش

ترجمة : د. فاطمة نصر

بعد مقتل بن لادن وعشر سنوات من الحرب على الإرهاب

القاعدة

نهاية تنظيم أم إنطلاق تنظيمات؟





القاعدة

نهاية تنظيم، أم انطلاق تنظيمات؟



تصوير
أحمد ياسين

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د.فاطمة نصر

المستشار الفنى: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

بعد مقتل بن لادن وعشر سنوات من الحرب على الإرهاب

القاعدة

نهاية تنظيم، أم انطلاق تنظيمات؟

كريستينا هلميتش

ترجمة: د. فاطمة نصر

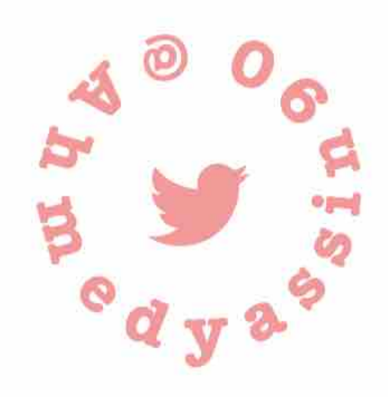
هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

al Qaeda: From Global Network to Local Franchise

تأليف: **Christina Helmich**

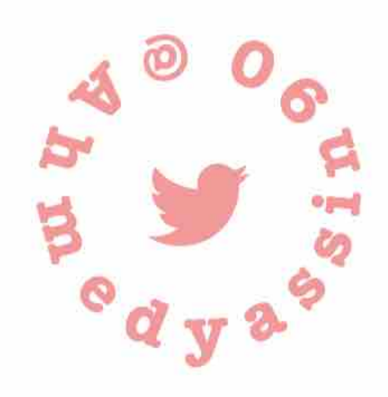
دار النشر: **Zed Books 2011**

طبعة سطور الأولى ٢٠١١


@Ahmedyassin90

ـ بعد مقتل بن لادن وعشر سنوات من الحرب على الإرهاب؟
– تأليف: كريستينا هلميتش.
ـ غلاف:حسين جبيل gopy_art@yahoo.com
ـ المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yahoo.com
ـ إخراج فنى: جابر محمد عبداللطيف jaberlatef@yahoo.com
الطبعة العربية الأولى ٢٠١١
رقم الإيداع: ٢٠١١/١٠٩٩٤
الترقيم الدولى: 977-5868-89-0

٨ و٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى
كورنيش المعادى ت: ٢٥٢٤٠٠٢٠/٢٥٢٦٣٥٩٩
e.mail address: sutour@link.net
الموقع الإلكترونى
http://sutour-aljadida.blogspot.com
www.sutouralgadida.info


@Ahmedyassin90



الفصل الأول

١١ سبتمبر والبحث التواق عن إجابات

فى ٢٣ فبراير ١٩٩٨، أصدر أسامة بن لادن ورفاقه فتوى دعت المسلمين إلى قتل الأمريكيين، مدنيين كانوا أم عسكريين، فى كل بلد يستطيعون فيه ذلك، من أجل تحرير المسجد الأقصى وغيره من المقدسات وطرد جيوش الولايات المتحدة من جميع أراضى المسلمين، إلى أن تُلحق بهم الهزيمة ولا يعود باستطاعتهم تهديد أى مسلم. وبعد ذلك بثلاثة أعوام ونصف العام، وفى صباح ١١ سبتمبر ٢٠٠١، برهنت القاعدة على مدى هول تهديدها، وتقدُّم أساليبها بأن دبرت أعظم هجوم إرهابى فى العالم ونفذته. لأول مرة فى التاريخ، تقوم مجموعات يجمع بينها الاعتقاد بأنهم يدافعون عن الإسلام، باختطاف أربع طائرات لاستخدامها قنابل انتحارية طائرة. تم توجيه اثنتين منها للاصطدام ببرجى مركز التجارة العالمى التوءم الأيقونى بنيويورك، والثالثة بالپنتاجون، وتحطمت الرابعة خارج پيتسبرج بعد أن حاول ركابها استعادة السيطرة عليها. ما حدث بعد ذلك هو، وكما يقال، تاريخ.

تُجسد القاعدة، أول مجموعة إرهابية متعددة الجنسية فى القرن الحادى والعشرين، الوجه الجديد المُحيّر للإرهاب الكوكبى. منذ تنفيذها فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ العملية الإرهابية الأكثر تدميرا، هيمنت القاعدة على نقاشات الأمن القومى والدولى فى الإعلام، وأيضا فى الدوائر الأكاديمية ومراكز صناعة القرار. من له أن يقوم بمثل هذا العمل، ولماذا؟ يتوقع المرء، بعد مرور عشر سنوات منذ بدء الحرب الكوكبية على الإرهاب، أن يجد إجابات واضحة عن هذين السؤالين الأساسيين وبالغى الأهمية فى آن. لكن، وعلى الرغم من أن القليل من القضايا هى التى ولَّدت قدرا من الجدل أكبر من مُهمة تفسير الأساس المنطقى للقتل الجماعى المذهل باسم الإسلام والقبول به، فمازالت التكهنات حول مدى

التنظيم وقوته مستعرة. مازالت الأوصاف المذهلة – التى تتلقفها بلهفة وسائط الإعلام الجماهيرى وتبثها – للشبكة المبهمة والخلايا الإرهابية السرية، والتقارير المتلفزة عن توقيفات جديدة لإرهابيين مشكوك فيهم، والتحذيرات الطارئة المُلحّة عن أخطار وشيكة، مازالت تثير الذعر ولا تعمل على توضيح الأمور. فى تلك الأثناء، غدت مستويات التهديدات الأمنية المشددة، والقيود التى لم يُسمع عنها من قبل التى على جمهور المسافرين تحملها، أحد أوجه الحياة المتقبلة فى عالم ما بعد ٩/١١.

من الجلى أن تهديد ما يُسمى الإرهاب «الإسلامى» أصبح يسيطر على الوعى الجماعى للعالم الغربى: يولِّد بحث سريع عن مصطلح «القاعدة» من خلال جووجل ما يربو على ١٢ مليون رابطة لمقالات،

حوارات، كتب وتعليقات بتنويعة عريضة من اللغات. بيد أن النظرة الثاقبة على الأدبيات الموجودة عن الموضوع تولِّد مزيدا من الأسئلة بأكثر مما تُوفّر من إجابات. هل القاعدة تنظيم ذو بنية جامدة، أم شبكة كوكبية من خلايا شبه مستقلة، توكيلات مرخصة، أم مجرد فكرة حان وقتها؟

أكان أسامة بن لادن مهندسا، أم خريجا فى كلية الأعمال، پلاى بوى منغمسا فى الملذات، أم أنه ترك دراسته الجامعية قبل أن يكملها؟ ما يعنيه الحديث عن «جهاد سلفى كوكبى» فى مواجهة الغرب؟ سرعان ما يؤدى البحث المتفحص عن طبيعة التنظيم الإرهابى الذى دَمَغَ اسمه على سماء مانهاتن إلى البدء فى الغرق فى بحر أسطورى من التوكيدات وفى مزاعم عن الحقيقة لا أساس لها.

لِمَ هذا الوضع؟ كيف لموضوع على هذا القدر من الأهمية أن يغرق فى هذا القدر المهول من الروايات غير اليقينية؟ تبدأ، بالضرورة، المحاولة الأولى لتفسير الغموض الذى يحيط بأكثر تنظيم إرهابى ذيوعا وسوء سمعة إلى يومنا هذا بتفحص لحالة المعلومات التى كانت متاحة قبل ١١ سبتمبر والتنامى السريع للأدبيات بعده مباشرة. فى التسعينيات، كان عدد قليل فقط هم من يقومون بإجراء الأبحاث على واحدة من قضايا الأمن التى كان لها أن تصبح الموضوع الأكثر مناقشة. وبقدر ما قد يبدو هذا مستغربا، فإن تدمير البرجين التوءم الصادم فى ذاك الصباح السبتمبرى قد فاجأ العالم الغربى. فشل خبراء الإرهاب، والمتخصصون فى الشئون الأمنية والأكاديميون جميعهم فى التنبؤ بهجوم بهذا الحجم. وكما بين ماجنوس رانستورب، فى مقاله الموسّع الذى يعرض فيه أدبيات

دراسات الإرهاب «كان ثمة قدر جد محدود من الموضوعات المتعلقة بالقاعدة قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١».

من ثم كان من الطبيعى أن تُطلق أحداث ١١ سبتمبر، التى كانت أيضا بمثابة عملية دعائية مذهلة هى الأولى من نوعها، تطلق على الفور موجات ضخمة من عدم اليقين والخوف والتكهنات، فيما ظل السؤال الأكثر وضوحا وإلحاحا يتلمس الإجابة: من له أن يفعل مثل هذا الشىء ولماذا؟ بيد أنه لم تتوفر أية إجابات ذات معنى. وحقا، فإن أحد الملامح اللافتة للأيام المبكرة التى أعقبت الهجمات هى تداول صور الدمار المشهدية المذهلة، وإعادة تداولها، مما عمل على حفر واقع ما حدث فى وعى كل هؤلاء الذين لم يستطيعوا الهرب من قبضة الإعلام.

وفى نفس الوقت، لم تُخصَّص سوى مساحة صغيرة، لو أنها خصصت، للنصوص وتحليل ما حدث وتفسيراته. لم تكن غلبة الإثارة على التحليل من عمل الدعاية الإعلامية أو حتى، وكما زعمت بعض الأصوات، من إنجازات مؤامرة حكومية. الأحرى، أن الحضور الذى لم يكن ثمة مفر منه، لتلك الصور المروعة بصحفنا وعلى شاشات تليفزيوناتنا كان مجرد قرينة بصرية على مواجهة متصاعدة للعالم الغربى المذهول المرتبك مع أسئلة لم يكن ثمة إجابات عنها وقتئذ. بالإمكان القول، وعلى الرغم مما فى هذا من مخاطرة بإضافة مزيد من الإثارة إلى القضية، إن ١١ سبتمبر كانت بمثابة فتح صفحة بيضاء لكتابة تاريخ تنظيم القاعدة عليها.

تفسر حقيقة أن الملابسات فى أعقاب ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانت على

هذه الدرجة من الإرباك والإلحاح سبب الاندفاع الذى تلاها من أجل ملء الفراغ الذى تركته المنطقة الصفرية هذه بالإجابات. ما أعقب ذلك كان تعليقاً شائعاً للمَلَكات النقدية فيما اندفع المعلقون بتهور لتوليد التفسيرات: كانت النتيجة المنطقية لهذا هو أن الأعلى صوتا الذين بدوا وأنهم يقدمون الإجابات الأكثر إرضاء، وإن لم تكن الأكثر حنكة وصقلا، هم من حازوا على معظم الاهتمام. وبين عشية وضحاها أصبح الصحفيون هم المعلقين الأكثر تأثيرا فى هذا المجال، ليس بسبب نوعية ما لديهم من معرفة، بل لأن كلماتهم وتحليلاتهم للوضع وصلت لمعظم الجمهور أولا. وبدورهم، عمد بعض المحللين - بخاصة هؤلاء الذين سرعان ما نودى بهم خبراء - إلى الاستشهاد بـ «حقائق» عن القاعدة، والطبيعة الحقة للإسلام، ومعنى الجهاد بالاستناد إلى ما وصل إلى آذانهم من السى إن إن، وفوكس نيوز، وما قرأوه فى النيويورك تايمز. بدأوا فى الحديث عن رؤية فنتازية للعالم تتبناها القاعدة، رؤية من أفكار رجال دين متعصبين، ومنافقين ومجانين. ذهب البعض إلى أنه ليس ثمة أية أيديولوجيا للقاعدة، فيما حاول آخرون تقصى أصول أفكار أسامة بن لادن إلى عدد من علماء المسلمين من أمثال تقى الدين أحمد بن تيمية (توفى ١٣٢٨)، ومحمد بن عبدالوهاب (توفى عام ١٧٩٢) وجمال الدين الأفغانى (توفى ١٨٩٧) بدون أن يبدأوا أولا بالعمل على تحليل ذى معنى لرسائل بن لادن أو كتابات هؤلاء الذين افترضوا أنهم أثروا فيه. لم تكن حقيقة أن كثيرا من القصص ذات الشعبية عن «الجهاد الكوكبى» رواها أشخاص ليس لديهم خبرة فى مجال الدراسة هذا، أشخاص استندوا

إلى مصادر مشكوك فيها ولم يتبعوا خطوات التحليل الأكاديمى المعمول بها، أو التفكير النقدى، لم تكن تلك الحقيقة ذات أهمية كبيرة. وحقا، فإنه مع شن الحرب الكوكبية ضد الإرهاب التى فيها واجهت «الحرية» و«الديمقراطية» أسوأ أعدائها - والتى تطلبت التحالف الذى لا يتزعزع «معنا» أو «معهم» - تم التغاضى عن الاهتمام بالصرامة الأكاديمية والمنهج البحثى، ونبذ التعبيرات التى ترجح الاحتمالات مثل «لكن إذا- ..» و«ليس تحديدا - ..» والملاحظات من أمثال «ينبغى علينا وضع الأمور فى منظور أوسع» وترحيلها إلى الهوامش. يذهب مارك سدچمان إلى أن المحاولات المبكرة لتفسير القاعدة لا ترقى سوى إلى مصاف «آراء طُرحت لكسب نقاط سياسية وليس لها أى مكان فى الدراسات العلمية». تاريخياً، لم يكن الخوف وردود الأفعال المبالغ فيها أفضل الأسس للدراسة العقلانية، والتمعن والجدل وكانت هجمات ١١ سبتمبر وما تبعها من نهج «اقتل -و- اعتقل» دونما تمييز، ذلك النهج الذى كان الأساس التحتى للحرب على الإرهاب، تتسق جميعها مع خط طويل من السوابق التاريخية المثيلة. وبهذا المعنى، فإن طبيعة رد فعل الغرب العنيفة والمناخ الرجعى الذى مازال سائدا ظواهر لا تثير الدهشة فى مواجهة ما نُظر إليه بصفته نوعا جديدا من «الإرهاب» غير المسبوق من حيث مدى العنف والتدمير الذى يسعى إلى إحداثه ومن حيث متناوله الكوكبى أيضا.

من المفيد، ومن أجل تفسير كامل للنقاشات الخلافية التى أحاطت بالقاعدة، النظر أبعد من الملابسات المباشرة لهجمات ٩/١١ وتفحص

حال دراسات الإرهاب والقضية التى تحاول تلك الدراسات تقصيها أى: الإرهاب ذاته. أثناء السنوات الثلاثين السابقة على ٩/١١، احتل مجال دراسات الإرهاب موقعا على قدر من الهامشية وسط العلوم الاجتماعية، ولم يكن هنا سوى عدد محدود من الباحثين يسهمون فى تقييم بعض الأحداث الإرهابية التى كانت تقع فى أوقات مختلفة وفى سياقات جغرافية واجتماعية/ ثقافية متباينة، وفى الواقع، فإن غالبية أدبيات الإرهاب التى كانت موجودة تتمحور حول أحداث إرهابية بعينها، كتب نسبة كبيرة منها أفراد ليس لديهم خلفيات أو خبرة تؤهلهم للكتابة فى الموضوع وربما لا يثير هذا الدهشة فى ضوء تجربة ما بعد٩/١١. من حيث العدد، فإن من بين المقالات الأربعمائة وتسعين التى نشرت فى الدوريتين المتخصصتين فى الإرهاب، أى «دراسات فى الصراع والإرهاب» و«الإرهاب والعنف السياسى» بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩٩، فقد كتب ما مجموعه ٤٠٩ مقال منها (٨٣٪) كتّاب لم يتناولوا الموضوع سوى مرة واحدة. وفى مجموعها، تعانى تلك الأدبيات من عدد كبير من أوجه القصور: تفتقد محاولات الكتاب التحليلية الدقة الأكاديمية، ولا تحوى أية نظرية، كما أن بياناتها غير دقيقة وقاصرة من حيث إخضاعها لمناهج البحث الملائمة. حاولت كثير من المقالات تحديد أسباب الإرهاب وتقصى مراحل تطور ودنياميات مختلف المجموعات الإرهابية، بيد أن شاغل كتّابها الأساسى، وبأسلوب نمطى مبالغ فيه، كان هو الأحداث التى وقعت مؤخرا بدرجة لم يستطيعوا معها تكريس قدر كافٍ من التحليل للصورة الأكبر. غاب عن تقييمهم للمخاطر الأمنية المستقبلية فهم

حقيقى لمنطق الإرهابيين. فيما نزعت استراتيجيات مكافحة الإرهاب إلى تبنى نهج مرتجل لا تخطيط طويل المدى. كان نتيجة ذلك هو ما وصفته مارثا كرنشو بأنه «تكوين مصنفات عامة للناشطين الإرهابيين، جُمِعت دونما تمييز بين دوافع، وتنظيمات، وموارد وسياقات غير متماثلة [لا يربطها شىء مشترك]». يعتبر الربط القائم سيئ السمعة بين القاعدة – وفقا لمزاعم حكومة الولايات المتحدة – وبين حماس، والمدارس الشيعية بمدينة قم، ومدارس ديوباندى الإسلامية التقليدية المتشددة بشمال باكستان، وأنظمة حزب البعث القومية العلمانية، يعتبر مجرد نموذج معاصرا من مشكلة ظلت قائمة منذ زمن طويل فى مجال البحث هذا. وكما كتب تد جور متأسياً عام ١٩٨٨ «تتكون معظم أدبيات الإرهاب من وصف، وتعليقات نظرية، وصفات للتعاطى مع الإرهاب تتميز جميعها بالسذاجة، ولا تفى بالحد الأدنى من المعايير البحثية فى الأفرع الأكثر رسوخا لمجالات الصراع وتحليل السياسات».

استمرت الأدبيات التى نُشِرت بعد ٩/١١ تعكس نفس أوجه القصور المنهجية. وعلى الرغم من الرقم القياسى للكتب المتعلقة بالإرهاب والتى نُشِرت فى غضون عام من الحدث، فليس ثمة سبب للاعتقاد أن النموذج العام قد شهد تغيرا ملموسا. ومرة أخرى، يبين تحليل ماجنوس رانستورب للحالة التى عليها دراسات الإرهاب بعد ٩/١١، تطور نزعة مُقلقة تعمل على مزيد من تقويض المكانة التى يحتلها هذا المبحث، بل أيضا وهذا هو الأهم فى ضوء الموضوع الذى يبحثه هذا الكتاب – فقد أدت إلى زيادة غموض ما نعلمه عن القاعدة، بل إنها ابتدعته حرفياً

أحيانا. وفى غياب التحكم فى الجودة الذى عادة ما تخضع له الأدبيات الأكاديمية، فإن السعى إلى معرفة الإجابات وفّر أرضية لاستيلاد أشباه أكاديميين، بل ودجالين أحيانا يزعمون أنهم خبراء. يزعم الكثيرون امتلاكهم معلومات حصرية، غالبا من مصادر تُقدَّم فى البداية على أنها «سرية»، يكشف التقصى أنها لا يمكن التحقق منها، وغير موثوقة، بل ولا وجود لها. أحد أكثر الأمثلة الفاضحة على هذا هو ألكسيس دِبات، الصحفى السابق الذى تمكن من الترقى إلى مواقع متميزة حيث عمل مديرا لبرنامج الإرهاب والأمن القومى بمركز نيكسون بواشنطون دى سى، ورئيس تحرير دورية ذاناشونال إنترست على أساس شهادة دكتوراه مزورة زعم أنه حصل عليها من السوربون، ومزاعم زائفة حول خلفية المهنية وتجاربه وخبرته. وللأسف، فإن حالته ليست استثناء. ففى واقع الأمر، فإن كثيرا من «الخبراء» المزعومين، والذين لا يكادون يملكون أية معرفة عميقة عن القاعدة، يتصادف وأنهم هم نفس الأشخاص الذين يُستند إلى آرائهم عن التنظيم ويستشهد بها على نطاق واسع فى النقاشات العامة، والذين تشكل إسهاماتهم فى هذا المجال جزءا مهما من «استخباراتنا» عن التنظيم. ويعتبر كتاب إيفان كوهلمان «جهاد القاعدة فى أوربا: الشبكة الأفغانية - البوسنية» مثالا على هذا. حيث ترقّى كاتبه، الذى لا يملك أية خبرة سوى بكالوريوس فى القانون وفترة تدريب فى أحد مكاتب المحاماة، ليحتل مكانة الخبير المتميز فى «الإرهاب الإسلامى» فى الدوائر الإعلامية والحكومية. وبعد أن تفاخر بامتلاكه «معلومات واقعية» يبدو أنه تسقطها من مصادر لا تتجاوز الإنترنت،

أصبح مستشارا لوزارة الدفاع، ووزارة العدل والإف بى آى بالولايات المتحدة، وهيئة ادعاء التاج البريطانى، وقيادة مكافحة الإرهاب باسكوتلانديارد. فُضِح أمر مدى «خبرته» أثناء نظر قضية: «الولايات المتحدة ضد حارف وحسين» حيث كان قد مثل أمام المحكمة بصفته شاهدا خبيرا فى حزب الجماعة الإسلامية البنجلاديشى، وهو أقدم حزب دينى فى باكستان. جاء تقرير المحكمة كالتالى:

«تبين، لدى استجوابه أن [كوهلمان] لم يسبق له وأن كتب أية أوراق بحثية عن الحزب، أو أنه قد أجرى أى حوار مع هذه المجموعة. لم يذهب أبدا إلى بنجلاديش، ولم يستطع أن يذكر اسم رئيس وزرائه، أو اسم زعيم الجماعة الإسلامية».

فى عام ٢٠٠٨، قدم كوهلمان شهادته أمام أول لجنة عسكرية لجوانتنامو فى قضية سائق بن لادن وكان مكتب اللجنة العسكرية قد طلب منه عمل ڤيديو من ٩٠ دقيقة عن تطور القاعدة. وبعد أن تلقى كوهلمان ٤٥٠٠٠ دولار نظير الفيلم والشهادة، اعترف كوهلمان أمام اللجنة بأنه قد «قام بتغيير الاسم المقترح للفيلم من «صعود القاعدة» إلى «خطة القاعدة» من أجل مضاهاته عن كثب بفيلم «خطة النازى» وهو وثائقى شهير أُنتج أثناء محاكمات نيورمبرج».

يقوض الاعتماد على مثل تلك الخبرة المشبوهة مصداقية الإجراءات لكن، وعلى الرغم من سجله هذا، تستمر توكيدات كوهلمان فى تأثيرها فى الجدل حول القاعدة فى دوائر دراسات الإرهاب والدوائر الأمنية معا: كان لأحد إسهاماته الحديثة جدا عن «فصيل القاعدة اليمنى فى باكستان» والذى يبدو وأنه مؤسس على معلومات مستمدة من مصادر إنترنت

مشبوهة، حضور طاغ فى عدد يناير ٢٠١١ من دورية CTC. Sentilnel. التى يصدرها «مركز مكافحة الإرهاب»، بأكاديمية الولايات المتحدة العسكرية فى وست پونيت.

بالتفحص الأعمق فى المجال الأكاديمى، نجد أن أحد أوائل خبراء القاعدة وأكثرهم شهرة هو روهان جوناراتنا مؤلف كتاب «داخل القاعدة» أحد أوائل الكتب وأكثرها ذيوعا واستشهادا به، والمكرس لكشف أصول القاعدة وطبيعتها وسير العمل الداخلى بها. من سوء الحظ أن كثيرا من الوقائع الواردة فى الكتاب تستند إلى مصادر سرية لا يمكن التحقق منها أو إقامة الدليل عليها، ومعها حوارات مع إرهابيين يزعم المؤلف أنه أجراها فى اليمن ولبنان ومصر والسعودية – وهذه أماكن اعترف فيما بعد أنه لم يزرها أبدا، وأنه لا يتحدث لغتها. حينما ضغط عليه محامو الدفاع أثناء نظر قضيته «الولايات المتحدة ضد حسون فيوس وجوزيه پاديلد» عام ٢٠٠٧، حوْل طبيعة المصادر التى استخدمها فى كتابه، بصفته شاهد الادعاء الرئيسى، ضغطوا عليه قائلين إن «عددا هائلا من المصادر فى كتابك لا يمكن للسلطات تفحصها إلا من خلال حصولها على معلومات داخلية منك»، وافق جوناراتنا على هذا. من المجدى وضع شهادة جوناراتنا فى المحاكمات ذات الصلة بالقاعدة نصب أعيننا، حتى فى وقتنا هذا. من المثير للدهشة أنه تم الاستناد إلى المعلومات التى أتى بها إلى هذا الحد، وبخاصة أن خبرته ومنذ وقت مبكر، أى فى عام ٢٠٠٣، كانت موضع تساؤل حيث وصفت صحيفة الأوبزرڤر البريطانية جوناراتنا بأنه «قد يكون أقل الخبراء موثوقية فى شئون القاعدة».

فى الصورة الكبرى، فهؤلاء الأفراد لا يتعدون كونهم أمثلة قليلة من بين كثير من المعلقين الذين غدت خبرتهم فى هذا الموضوع محل تساؤلات الآن، والذين أيضا، وبالرغم من ذلك، ظلت معلوماتهم وتعليقاتهم موضع قبول وشكلت فهمنا - أو عدم فهمنا - للقاعدة. هؤلاء يشكلون، فى الصورة الكبرى، جزءا ضئيلا من التوكيدات ومزاعم الحقيقة سيئة السمعة التى لا أساس لها. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلّ يُستشهد بالمعلومات التى أوردوها، بل، وفى واقع الأمر، فكثيرا ما يستند إليها، كمصدر مفتاح للقرائن والأدلة، فى كثير من الإصدارات عن القاعدة، مثل تقرير لجنة ٩/١١، والتقرير النهائى للجنة القومية عن الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، وكتاب مارك سدجمان «فهم الشبكات الإرهابية». واستنادا إلى التكرار، رسّخت كثير من تلك المزاعم التى كانت موضع تساؤلات وشبهات منذ البداية نفسها بصفتها حقائق واقعة. والآن توجد مشكلة منهجية كبرى فى أدبيات دراسات الإرهاب، كانت إدنا ريد قد وصفتها عام ١٩٩٧ على أنها «أنظمة الأبحاث الدائرية». نشأت تلك الأنظمة على شكل «عقدة تزويد ارتجاعى Fecd-back»، تدعم نفسها باستمرار فيما يستند المؤلفون إلى بعضهم بأسلوب غير ناقد ويستشهدون بأعمال بعضهم، ومن الواضح أن هذا النموذج قد استمر فى فترة ما بعد ٩/١١. وبدوره، يلقى هذا الضوء على المشكلة الرئيسية فى أى نقاش حول القاعدة: كيف لنا أن نميز الحقائق من الخيال. وهل تصبح مقولةٌ ما حقيقة لأننا قد سمعناها مرات عديدة؟

وعلى الرغم من أنه من الواضح أن دراسة الإرهاب بعامة، والأدبيات

الموجودة عن القاعدة بخاصة، تعانى من عدد من المشاكل تتعلق بتوليد المعلومات الموثوقة، فإن المسألة تكتسب مزيدا من التعقيدات بسبب الصعوبات التى تنشأ من محاولة صياغة مفهوم واضح عن الموضوع نفسه الذى يتم تفحصه: الإرهاب ذاته. يَفترض فى أدبيات دراسات الإرهاب السائدة أن الإرهاب ظاهرة خارجة عن المعايير ومن المحتم هزيمته فى نهاية المطاف، وهذا افتراض تم طمسه من خلال تركيز تلك الأدبيات على قضايا تبدو أكثر إلحاحا، مثل الحاجة إلى تفسير أحداث عنف بعينها، وأسبابها، والاستراتيجيات الواجب اتباعها للتنبؤ بالتهديدات المستقبلية ورد الفعل عليها. وفى الواقع، فإن السؤال حول كيفية القضاء على الإرهاب، ظل سؤالا مفتاحا مازال يولد قدرا كبيرا من النقاش، مع ما تنفقه الدولة من أموال باهظة على الأبحاث الخاصة به، هنا، قد يثار الاعتراض بأن جهودا كبيرة، وإن كانت لم تنجح، قد بُذلت للتوصل إلى تعريف مقبول للإرهاب، وأنه فى مواجهة الخلافات المستمرة حول التعريف فعلينا القبول بتعريف يحيطه مستوى معين من الغموض. يذهب الرأى الذى يلقى قبولا واسعا بالرغم من المشاكل الكامنة فيه، إلى أننا، فى نهاية المطاف، سنعرف الإرهاب حينما نراه: إنه الاستخدام العمدى للعنف ضد المدنيين، أو التهديد به، فى مسعى لتحقيق أهداف سياسية، بواسطة فاعلين لا ينتمون إلى أية دولة، ذلك الاستخدام الذى كثيرا ما يشمل فى عالمنا المعاصر، استخدام القنابل أو أسلحة أخرى لاستهداف أماكن عامة أو طائرات أو وسائل نقل أخرى. يوضح هذا التعريف غير الشامل، والمفتوح على التوسع، المدى الذى يشكل به الرأى

الشائع عن الإرهاب من خلال أحدث التجارب وآخر ما وقع من أحداث ويوضح خارج نطاق المتتاليات التاريخية. إنه تعريف عمل، معيب، وليس مقبولا على نطاق شمولى، لكنه بالرغم من ذلك تعريف يذهب إلى حد ما باتجاه توفير إطار يمكن مناقشة الظاهرة من خلاله.

ومن ناحية تنظيرية أكثر، فإن ذات الانشغال بالتوصل إلى تعريف، حتى ولو مجرد تعريف عمل، هو نفسه، فى المقام الأول، تعبير عن نظرة ليبرالية متأصلة إلى النظام السياسى وسيادة الدولة، وبخاصة النظرة إلى الدولة بصفتها الحكم الفيصل المشروع الذى يتوسط بين المصالح المتنافسة لسكانها من الأفراد وداخل هذا النظام، الذى تخضع فيه موازين القوة واستخدام العنف لأحكام محددة، فمن غير المقبول أن يقوم شخص لا ينتمى للدولة بارتكاب عمل عنف لا تقره الدولة من أجل تحدى شرعية النظام القائم. لا يمكن مساءلة مشروعية الدولة الليبرالية. لأنها تقوم على أساس عقد اجتماعى إجماعى. وبصفتهم هذه، فإن الإرهابيين والإرهاب يعملون من خارج نطاق أحكام الاشتباك الراسخة القائمة، ومن ثم يصبحون فى وضع يستلزم هزيمتهم بأية تكلفة. وقد أوضحت الحرب الكوكبية على الإرهاب المدى الكامل لعدم قبول الدولة الليبرالية للإرهاب. وبتعبير مختلف، فإن معظم العمل فى الدراسات السائدة للإرهاب ملتزم أيديولوجياً، ويقوم عمليا بدعم سلطة الدولة الغربية. وكما أوضح ميلر وميلز بحنكة فإن «للأفكار المهيمنة فى دراسات الإرهاب الأرثوذكسية [السائدة]، بل وحتى للمنظرين أنفسهم، جذروا قوية فى مبدأ مكافحة التمرد وممارساته». والنتيجة هى، وفقاً لدِر دريان فإنه من

أجل «الحصول على مدخل رسمى فى الجدل حول الإرهاب، فإن على الفرد أن يتخلص من أسلحته النقدية لدى الباب، وينضمّ إلى كورس الإدانة». بيد أن الإدراك السائد عن الإرهاب بصفته ظاهرة خارجة عن المعايير متأصلة فى وجهة نظر الدولة الليبرالية، كما أنها تمنع الإدانة التلقائية للإرهاب التى تنجم بالضرورة عن هذا الإدراك، ملاحظة قد تكون أكثر بساطة ومنطقية، أى أن الإرهاب- ومكافحة الإرهاب المتعلقة به، حيث يكون الإرهابى هو المقاتل غير الشرعى ومن يقاتله هو المحارب الشرعى - هو فى جوهره صراع عنيف للشرعية السياسية وعلى الشرعية السياسية. بتعبير آخر، فإن لب الموضوع هو: من له الحق فى استخدام العنف فى النظام الدولى؟

بالانتقال إلى حالة القاعدة، فإن الإدانة المباشرة للإرهابيين وأفعالهم - رغم الفهم الكامل لرد الفعل هذا فى ظل مأساة مذبحة البرجين التوءم - كانت تعنى غياب أى اشتباك ذى معنى مع النطاق الأوسع لرسالة «أسامة بن لادن. «فحتى نشر خطبه الرئيسية، وخطاباته، والحوارات، التى أجريت معه فى عام ٢٠٠٥، فلم يكن ثمة ما هو متاح باللغة الإنجليزية من بياناته سوى أجزاء مشظاة. ومثل الأسلوب الذى حفزت به لورا بوش، السيدة الأولى السابقة، الآباء والأمهات، على حماية أطفالهم بحجب صور ٩/١١ المروعة عنهم، فقد تمت حماية الجماهير الغربية الناضجة بحجب صوت بن لادن عنهم، وكأنما الاستماع إلى خطاباته دونما إخضاعها للمراجعة والرقابة كان يمثل تهديدا للسلامة القومية. كانت الأجزاء المختارة من بياناته وخطبه التى أوردها الإعلام الغربى

تنزع إلى تسليط الضوء على مقولاته الخلافية التى تدعو إلى استخدام العنف ضد الأهداف الغربية. لم تمد الجمهور سوى بلمحة جزئية عن أجندته بدلا من تقديمها كاملة بأسلوب دقيق. من ثم، كان من السهل الحكم على بن لادن بسرعة مفرطة بأنه مجنون شرير يطلق أفكارا متطرفة بدرجة عدم أخذها على محمل الجد. بيد أنه، وبغض النظر عن المحتوى والسياق، عمل ما كان يبث من بيانات بن لادن العامة على إطلاق الخوف والتوتر على الفور. وفى خطوطها العريضة، تم تقديم رؤية بن لادن على أنها تنتمى إلى تنظيم إسلامى قتالى يسعى للقضاء على التأثيرات الغربية والنفوذ الغربى واستعادة مجد الأمة من خلال إعادة إقامة الخلافة فى أنحاء العالم الإسلامى، حتى تصل فى النهاية إلى جميع أنحاء أوربا والعالم الغربى بكامله، بما فى ذلك الولايات المتحدة. أصبحت هذه الأجندة مرتبطة عن كثب بالرفض الكامل للقيم الغربية وأسلوب الحياة الغربى، وبالإجبار على التحول إلى الإسلام، والأسلمة العنيفة، والدعوة إلى إنهاء الحرية والديمقراطية. وكما توضح أودرى كرونين مؤلفة «كيف ينتهى الإرهاب» بجلاء شديد «ليس بإمكانك التفاوض مع مجموعة إرهابية إن كان أقل ما تسعى إليه هو التدمير التام لكل ما هو نحن». نقاشها مقنع، حيث تذهب إلى أن كان القاعدة ليست هى جيش التحرير الأيرلندى كما أن أسامة بن لادن ليس چرى أدامز، وأن الأمر يتطلب حتى من أكثر الدبلوماسيين مثالية أن يوسع نطاق خياله إلى أقصى حد كى يتصور التفاوض على ما يماثل عن بعد اتفاق يوم الجمعة الحزينة [السابقة على عيد الفصح] الذى عقد بين

بريطانيا وجيش التحرير الأيرلندى، التفاوض عليه فى تورا بورا أو جبال باكستان. لكن هذا مجرد جزء واحد من القصة.

من النقاط البسيطة التى يتم تجاهلها بسهولة هو أن طموح إقامة الأمة الإسلامية التى يدعو إليها بن لادن لا تُطرح أبدا بأشكال محددة - أى كيف تقام الأمة أو من سيحكمها - ومن ثم تظل ثابتة فى نطاق المتخيل المثالى ولا يتم تقديمها فى شكل خطة أو أجندة محددة بعناية. علاوة على ذلك، فإن الطموحات إلى الأمة الإسلامية بأشكال مختلفة، وردود الفعل الغربية المبالغ فيها ليست جديدة أو مقصورة على ظهور القاعدة. وعلى الرغم من ذلك، فلم تُبذل حتى الآن، سوى القليل من الجهود، من أجل وضع غايات بن لادن ومثله فى السياق الأوسع لتاريخ الأمة الإسلامية من أجل اكتساب منظور يحمل ظلالا من المعانى والفروق عن القضايا الموجودة على المحك. بدلا من ذلك، يتم توجيه كثير من الجهد فى دراسات الإرهاب لاستقصاء أصول القاعدة وتتبعها إلى مجموعة من المفكرين الإسلاميين المتشددين الذين ينتمون إلى حقب تاريخية بعيدة. وعلى الرغم من أن بإمكان المرء إثارة التساؤلات حول القيمة التحليلية لتقصى جذور أيديولوجية ظاهرة جد حديثه فى أغوار القرن الثالث عشر، أو الثامن عشر، أو التاسع عشر، وناهيك عن افتقاد مثل تلك الممارسة للمتطلبات الأساسية للبحث التاريخى السليم، فقد عمل تشكيل مفهوم «الجهاد السلفى» أو «السلفيين الجهاديين» بصفتهم مصنفات متمايزة يُعرّف من خلالها بن لادن وأتباعه على مجرد ملء فجوة فى خطاب دراسات الإرهاب. بيد أنه، وعلى الرغم من مواءمة

إيجاد صفة للعدو وتعريف له، فإن استخدام وصف «سلفى» ذو نفع فقط بقدر ما هو مريح لعمل الباحثين وتسهيله إياه. غير أن ما يعنيه أن يكون الشخص «جهاديا سلفيا» أى «عضوا فى القاعدة أو تابعا لها» يظل فى نهاية المطاف فى عين الرائى ولا يوفر ملامح موثوقة لتعريف الإرهابيين المحتملين ورصد تحركاتهم.

أيضا، فإن من بين تبعات تقصى أفعال بن لادن وأفكاره إلى غُلاة قدامى فقهاء المسلمين وإلى الظلاميين السابقين أنه حال دون معالجة ذات معنى لسبب تماهى عامة المسلمين مع رسائله. لم يعد من الممكن فى سياق المناخ السياسى الذى يتطلب ولاء واضحا - «إما أنك معنا، أو أنك مع الإرهابيين» - فصل الأفعال عن الأفكار. وعلى الرغم من وجود توافق شائع مشترك بين فقهاء المسلمين وعلمائهم بأن الشريعة الإسلامية تُنكِر، مثلا، التفجيرات الانتحارية، والقتل العشوائى للأطفال والنساء وتكفير المسلمين، وأنه كانت لتلك الممارسات مغبات مدمرة على المجموعات التى زاولتها فى الماضى، فإن المنطق الذى يحفز تلك الأفعال يلقى قبولا واسعا. يبين بن لادن، فى دفاعه عن العنف الذى يرتكب باسم الجهاد الكوكبى، أن معاناة المسلمين بدءا من العراق وفلسطين وإلى كشمير والبوسنة هى نتيجة مباشرة لسياسات الولايات المتحدة والغرب. وعلى حين أنه يبالغ فى أعداد الضحايا وأن هؤلاء الضحايا ليسوا بدرجة التمايز والوضوح الذى يدعيها، فإن روايته لا تخلو من الصدقية. أحد الأمثلة اللافتة الموثقة جيدا والتى يتكرر ذكرها هو وفاة ٥٠٠٠٠٠ طفل نتيجة العقوبات الاقتصادية التى فرضت على العراق فى أعقاب حرب

الخليج الثانية. ليست الصحافة العربية وحدها هى التى تذكر تكرارا تأكيد وزيرة خارجية الولايات المتحدة السابقة، مادلين أولبرايت، بأن الأهداف السياسية تبرر التضحية بنصف مليون طفل عراقى وتجيزها، بل إن بن لادن كثيرا ما يذكره فى بياناته، فيما تعرض ڤيديوهات متطوعى القاعدة صور المواليد العراقيين وهم يموتون من سوء التغذية وعدم وجود الأدوية.

بالطبع، فإن أحد الاعتراضات الواضحة الفورية على عرْض بن لادن لتلك الأحداث لابد وأن يؤكد على الفرق بين الدمار غير المقصود الذى ينجم عن عملية «قانونية» مشروعة مثل الحرب أو العقوبات الاقتصادية، وبين استهداف المدنيين المتعمد، حيث ينظر إلى النوع الأول على أنه أمر «يؤسف له» فيما ينظر للنوع الآخر باعتباره «بشاعة» غير مقبولة فى العالم المتحضر. يجب أن نبين هنا أن المقصود ليس هو ممالقة «الإرهاب» أو تبرير استخدام العنف لتسوية ما يُعتبر مظالم مشروعة، الأحرى هو توضيح صورة مختلفة تظهر إلى حيز الوجود حينما ينظر المرء بما يتجاوز الإدانة التلقائية للعمليات الإرهابية، إدانة ناجمة عن الافتراض أن العنف الذى تصادق عليه الدولة مشروع فيما أن ذلك يتحدى بنية الدولة القائمة أو يعمل بأسلوب مستقل يفتقد المشروعية. الاستنتاج الذى يمكن استخلاصه هنا هو أن الدولة والإرهابيين يتقاسمون منطقاً مشتركاً: الاعتقاد بأن موت آلاف الأبرياء هو ثمن يستحق دفعه من أجل إنجاز الغايات السياسية. يتطلب التعاطى ذو المعنى مع أفكار بن لادن التى تشكل الأساس التحتى للجهاد الكوكبى –

التحليل النقدى للأسباب والنتائج - يتطلب تعليقاً، مؤقتا على الأقل، لإصدار حكم حول مشروعية أحد أنواع العنف وعدم مشروعية الآخر. بتعبير آخر، ينبغى أن يكون تحليل منطق الإرهابيين متجردا وموضوعيا كى يكون مؤثرا: يتطلب من المرء أن يضع جانبا مشاعر العنف والغضب على ما حدث فى ٩/١١ والبشاعات الأخرى، والتمعن فى وجهة نظر الطرف الآخر. حينئذ فقط يصبح من الممكن تقييم دور الحس التاريخى بمعاناة الأمة وما أُنزِل بها من مآسى الذى يرتكز عليه منطق الجهاد الكوكبى، ثم نمضى، من نقطة البداية هذه، فى تفحص تبريرات القاعدة. حينذاك، ومن منطلقات عملية يشعر المرء بحرية تمعن، دونما خوف من عدم الكياسة السياسية، حقيقة أن موت ٥٠٠٠٠ طفل عربى قد برر لأحد الأطراف على الأقل، قتل ٣٠٠٠ أمريكى، وليس سؤال ما إن كان هذا العمل مبررا بالمطلق.

يتفحص هذا الكتاب طبيعة تنظيم القاعدة وجاذبيته فى ضوء تلك الملاحظات المنهجية والمفاهيمية. بيد أنه، وبدلا من مجرد تقديم رأى آخر من زاوية مختلفة، فإننا نولى عناية خاصة للتناقضات بين أكثر التفسيرات شيوعا، وأيضا، لحدود ما بالاستطاعة معرفته واقعيا. يشمل هذا، بالإضافة إلى نقد المصادر الذى ذكرناه سابقا، تفحصا ناقدا للمواد التى تنشرها القاعدة أو تلك التى تنشر باسمها. وكمجموعة تضطلع بمواجهة لا متسقة مع الولايات المتحدة والغرب، فإن قوة القاعدة لا تقوم على القدرة الجسدية أو الفيزيقية بالمعنى التقليدى، قدرة يمكن قياسها، أو تحديد كميتها أومجابهتها، الأحرى أنها تكمن فى قدرتها

على التلاعب بالجماهير ومنابلتهم وزرع الخوف وحفز ردود الأفعال. يعنى هذا أنه لا يمكن الاكتفاء بفهم المعنى الظاهرى للبيانات العلنية التى تدعو إلى الجهاد الكوكبى، سواء على شكل ڤيديوهات أو كتابات أون لاين، بل ينبغى النظر إليها، أولا وقبل كل شىء، بصفتها محاولات لترسيخ نوع من الأمر الواقع بين الجماهير العريضة. ما يمكن قوله بكل ثقة هو أن الجهاديين سيحاولون الظهور مُوحّدين، أكْفاء، أقوياء بقدر المستطاع. أما القول بأن هذا هو مجرد تفكير رغبوى أو محض تظاهر، فهذا سؤال آخر.

من الواضح أن تلك الديناميات تثير مشكلة خاصة لمهمة تحديد من هم القاعدة، وما القاعدة فى واقع الأمر. هل هى تنظيم، أم شبكة كوكبية، أم عدو منتشر متفرق غير محدد الملامح، أم مجموعة عشوائية من الرجال؟ هل تتكون من خلايا وعملاء وأعضاء وقيادة؟ هل هى أكثر من مجرد تنظيم (أو كما يقول البعض أقل من هذا) – أيديولوجيا ومسيرة لا تتوقف؟ يبدأ الفصل الثانى بنظرة شاملة على الخطابات المتعلقة بأصول القاعدة وتجلياتها، ويتقصى تطور ما زُعم وأنه قد بدأ كنضال إقليمى ضد السوڤييت فى أفغانستان ليصبح إعلانا للجهاد الكوكبى وهجمات ١١ سبتمبر.

تنتقل الفصول التالية من الأسئلة عن «من؟» و«ماذا؟» إلى تفحص تفصيلى لـ «لماذا؟». ما منطق الجهاد الكوكبى؟ كيف يمكننا أن نفسر الهجمات العنيفة العشوائية ضد أهداف مدنية باسم الإسلام؟ يعرض الفصل الثالث تقييما ناقدا للمحاولات المختلفة لتفسير سبب وجود

القاعدة. وفيما حاول المعلقون تصوير اتباع القاعدة بصفتهم مجانين، متعصبين متدينين منافقين، وهابيى القرن الحادى والعشرين، أو جهاديين سلفيين، فإن ما يجمع بين هذه المقاربات هو ما يمكن وصفه بأنه منظور «من الخارج إلى الداخل» يفترض مفهوما لمنطق القاعدة التحتى دون إحالات كافية لمصادر القرائن الأولية، مع استبعاد المقاربات البديلة التى قد تقدم واقعا مختلفا. يذهب هذا الفصل إلى أن تلك التفسيرات بخاصة والتى يبدو وأنها قد أصبحت تشكل الحكمة الرسمية حول المنطق الأساسى للقاعدة، وخطاب الوهابية والجهاديين السلفيين هى مدارس فكرية مميزة فقط داخل نطاق دراسات الإرهاب، وأنها فى واقع الأمر تخضع لمناقشات خلافية كثيرة فى مجالات دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية الأكثر شمولا. وفى سعيها الدوب لتفسير القاعدة، انحرفت جماعة دراسات الإرهاب عن الخطوط الإرشادية للسلوك الأكاديمى، واقتنعت، بدلا من ذلك، بإعادة تدوير التبسيطات القديمة المفرطة لتعقيدات الفكر الإسلامى واقتراح أخرى جديدة، ومنحت بهذا تلك التبسيطات المفرطة فرصة جديدة للحياة لا تستحقها. لكن، وفيما يستمر نعت «الجهاديين السلفيين» ملتصقا بالقاعدة، فإنه لا يقدم تفسيرا لبقاء جاذبية رسائل بن لادن وتقبلها فى أوساط قطاع عريض من المسلمين المؤمنين، أو لحقيقة أن كثيرا من عامة المسلمين فى أرجاء العالم أعلنوه بطلا مسلما.

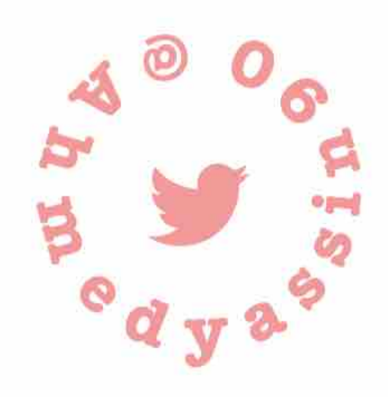
هدف الفصل الرابع هو تفسير جاذبية الأفكار الأكثر شمولا المرتبطة بالقاعدة ومعها الجهاد الكوكبى. ومن خلال الإحالة إلى المصادر الأولية

المتعلقة بالأيديولوجيا التى تمثل جوهر الجهاد الكوكبى الذى تتبناه القاعدة، يتفحص هذا الفصل بعمق كتابات بن لادن وبياناته العلنية التى صدرت بين عامى ١٩٩٤ و٢٠٠٩، ويضعها فى علاقتها مع تطور الفكر الإسلامى والحقائق الاجتماعية السياسية المتغيرة فى نهاية القرن التاسع عشر، والقرن العشرين. وبالتقابل مع الأفكار الراهنة عن الجهاد السلفى، يكشف هذا الفصل فى جوهر رسائله عن مشاعر مثالية متعلقة بالأمة الإسلامية الموحدة، مشاعر غير مؤسسة على المدارس الفقهية الإسلامية الرئيسية، بل الأحرى أنها ناجمة عن المأزق الفكرى للإسلام الحديث. يوضح المنظور التاريخى أن من المحتمل أن يكون الفهم الأفضل لمنطق بن لادن هو النظر إليه بصفته تعبيرا معاصرا عن الرغبة فى وحدة الأمة الإسلامية، وهى أيديولوجيا ظهرت لأول مرة فى السنوات المتأخرة للقرن التاسع كما ظلت ردود الأفعال الغربية المبالغ فيها لتهديدها المتخيل متواجدة منذ آنذاك.

يتفحص الفصل الخامس الذى يتناول السؤال الملموس المتعلق بطبيعة تهديد القاعدة، حالة التنظيم فى عالم ما بعد ٩/١١، ويناقش تفجرات الأحداث الإرهابية التى وقعت منذ سبتمبر ٢٠٠١، متفحصا النقاشات المؤيدة للأفكار القائلة بأن القاعدة توجد كتنظيم ذى بنية قائمة وأنها تهديد لا يستهان به على الأمن الكوكبى، والنقاشات المعارضة لها. هل تقلصت القاعدة، كما يزعم بعض المعلقين، لتصبح «جهادا دونما قائد» يُنفّذ على أساس عشوائى مرتجل بواسطة أفراد متطرفين، أم أن القاعدة تواصل مسيرتها، وتعيد قياداتها التجمع فى مناطق قصية من باكستان

وأفغانستان، وتعود إلى المشهد الدولى من خلال توكيلات محلية مرخّصة فى المغرب والعراق، وأخيرا، ومنذ وقت قريب جدا، فى جمهورية اليمن؟ سيتم فحص حالة اليمن بتفاصيل أكثر، مع تقديم آراء نافذة قيّمة عن الحالة الراهنة للحركة الجهادية بمنطقة تمضى سريعا لتصبح بؤرة الاهتمام الدولى بسبب عدم الاستقرار السياسى المتصاعد الذى أصبح جليا وقت ذهاب هذا الكتاب إلى المطبعة.

ينظر الفصل السادس فى أمر مستقبل الجهاد الكوكبى - الذى يتميز بشن هجمات فردانية تلهمها الأيديولوجيا الجهادية، والتى، وعلى الرغم من ذلك، غير ذات صلة بتنظيم أكبر، يحاول الفصل أيضا القيام بتقييم ناقد للأسلوب الذى تُكوِّن به المفاهيم عن القاعدة وأساليب ردود أفعال المجتمع الدولى عليها. هل تم ترجيح الإجراءات السلمية - أو على الأقل الأكثر ديمقراطية - فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط على دعوة القاعدة للدفاع القائم على العنف عن أمة المؤمنين؟ ينظر البعض إلى موت بن لادن على أنه نهاية عهد. هل سرعان ما ستجد القاعدة نفسها فى وضع أكثر تهميشا وعزلة عن التيار الإسلامى السائد بأكثر من أى وقت مضى؟


@Ahmedyassin90

الفصل الثانى

ما القاعدة؟

من أفغانستان إلى ٩/١١

تشكلت القاعدة عام ١٩٨٨ بواسطة قدامى المحاربين فى الحرب الأفغانية السوفييتية، بهدف تصدير النصر الذى كسبه الإسلام على الشيوعيين إلى مسارح أخرى للصراع فى أنحاء العالم. كان يترأس الحركة الجديدة عبدالله عزام ونائبه أسامة بن لادن، واللذان من المحتمل لهما أن يكونا قد اختلفا حول أساليب إنجاز أهدافهما. بعد مقتل عزام فى عام ١٩٨٩، تولى بن دلان التحكم الكامل فى التنظيم. بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٦، اتخذت القاعدة مقرا لها فى السودان حيث كانت تتمتع بعلاقات ودية مع الجبهة القومية الإسلامية الحاكمة. أجبر الضغط الدولى بن لادن على إعادة التموقع بأفغانستان فى عام ١٩٩٦، حيث تحالفت القاعدة مع حركة طالبان الوليدة. فى نهاية عام ٢٠٠١، تم تدمير معظم معسكرات تدريب القاعدة، وغدت الجماعة على قدر من التشرذم، حيث أعادت قياداتها تموقعها فى إيران أو فى المنطقة الجبلية على الحدود الأفغانية الباكستانية، أو بالمدن الباكستانية. تم إلقاء القبض على غالبية الموجودين بالمدن الباكستانية. يظل وضع القيادات التى ذهبت إلى إيران غير واضح. هدف القاعدة هو نشر الجهاد فى جميع أنحاء العالم من خلال عدد من الوسائل من بينها تمويل حركات حرب عصابات إثنية وتدريبها، وإصدار مواد دعائية تهدف إلى إلهام الجهاديين المستقلين لارتكاب أعمال إرهابية، وتنظيم هجمات معقدة ضد بلدان ترى أنها تعارضها وتنفيذها.

هكذا تذهب الرواية عن أصول القاعدة وطبيعتها. أو بمزيد من التحديد، هكذا تذهب واحدة من الروايات. نجم عن الأسئلة المحيطة بأصول القاعدة وتطورها، ومعها الاهتمام المتزايد بأنه ينبغى التعرف على هويتها الحقيقية بوضوح، نجم عن ذلك صياغة عدد من النظريات المختلفة. وحقا، فإن تنويعة الأوصاف والتفسيرات المختلفة التى طفت منذ وقت مبكر، أى فى عام ٢٠٠٣، أدت بإكزاڤير رافر أن يُعلق مستغربا بالقول «تطفو القاعدة بين أوصاف متناقضة، وتشبيهات ومجازات متباينة». وكأبعد ما تكون عن الحسم، فقد تعاظمت تلك النقاشات الخلافية بمرور السنين، وأدت إلى قيام مدارس فكرية مختلفة حول بنية القاعدة، وكتبعة لذلك، حول طبيعة التهديد الذى تمثله. يكشف التحليل

الثاقب للخطابات الأساسية عددا من التناقضات، والتوكيدات غير المدعومة بالقرائن، ومزاعم الحقيقة التى تبدو منطقية لدى النظرة الأولى، لكن إخضاعها للتحليل يثبت أنها متنافرة أو أنها تفتقد أسسا قوية من الوقائع. وهكذا، فإن قصة أحد أهم تحديات الأمن الدولى فى القرن الحادى والعشرين، هى أيضا إحدى أكثر القصص تشوهاً وغموضاً.

١٩٨٦ - ١٩٩١: «مولد» القاعدة:

تبدأ معظم الروايات عن أصول القاعدة بإرث الغزو السوفييتى لأفغانستان فى أواخر عام ١٩٧٩ دعما للحكومة الأفغانية الشيوعية. أدت معارضة الشيوعيين، إلى قيام حركة مقاومة أفغانية وطنية تم توثيقها

جيدا، وأدت فى النهاية إلى هزيمة القوات السوفييتية. لكن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها فقط أهالى أفغانستان. سرعان ما اجتذب الصراع الشباب المسلمين من كل البقاع، وبخاصة من الشرق الأوسط، الذين تطوعوا للانضمام إلى ما رأوه أنه جهاد دفاعى ضد الغزاة الملحدين. كان بين هؤلاء المتطوعين، الذين يسمون أيضا بالمجاهدين، أو الأفغان العرب، كان بينهم أسامة بن لادن ابن أحد أثرياء رجال الأعمال السعوديين، والذى أصبح أميرا لتنظيم القاعدة، فيما بعد. كان بينهم أيضا أيمن الظواهرى الطبيب المصرى زعيم تنظيم الجهاد المصرى، والرجل الثانى فى تنظيم القاعدة، والذى يعتبره البعض القائد الحقيقى للتنظيم وعقله المدبر؛ والدكتور عبدالله عزام الفلسطينى/ الأردنى، وهو تلميذ سيد قطب الكاتب الإسلامى، وقائد الإسلاميين بين أبناء جيله والذى قام بصياغة الكثير عن مبدأ الجهاد. عمل عزام مرشدا لبن لادن. أتى كل من هؤلاء الرجال الثلاثة، الذين كان لهم أن يوحدوا القتال ضد السوفييت، إلى المهمة بدوافع مختلفة وأهداف طويلة الأمد، وأسهم كل منهم بمهاراته المتمايزة.

كان عبدالله عزام، الذى ميز نفسه فى وقت مبكر من المعركة بحثه قادة المقاومة الأفغانية ومجموعات المعارضة على التوحد ضد عدوهم المشترك، كان أحد أوائل العرب الذين انضموا إلى الجهاد. بيد أن إسهام عزام الرئيسى فى نجاح القتال كان هو دعوته للجهاد فى جميع أنحاء العالم، من خلال اتصالاته الأيديولوجية أولا، ثم بعد ذلك، وبالاشتراك مع بن لادن، من خلال إقامة بنية تحتية لتجنيد المتطوعين.

كانت رسالة عزام التى أوصلها لعامة المسلمين بسيطة: إن التطوع للدفاع عن بلد مسلم ضد غزو قوات غير مسلمة بمثابة فريضة: أى أن من واجب كل مسلم قادر الانضمام. وفى الواقع، فقد ذهب البعض إلى أنه رأى أفغانستان الخطوة الأولى إلى جهاد عالمى لاستعادة أراضى المسلمين التى استولى عليها الكفار، وبخاصة بلده الأصلى فلسطين. يورد چيلز كپل فى كتابه «الجهاد: زحف الإسلام السياسى» (دار نشر هارڤارد عام ٢٠٠٢، ص ١٤٧) ما قاله عزام بأن ذلك الواجب المقدس لن ينتهى بالانتصار فى أفغانستان، بل سيظل الجهاد فريضة على كل شخص حتى تُسترد جميع الأراضى التى كانت فى أيدى المسلمين ويحكمها الإسلام مرة أخرى. أضاف عزام، أنه مازال أمام المسلمين فلسطين، وبخارة، ولبنان، وتشاد، وإريتريا، والصومال، والفلبين، وبورما وجنوب اليمن، وطقشند والأندلس، وأن وجودهم فى أفغانستان الذى هو تأدية لفريضة الجهاد، وتكريسهم للنضال، لا يعنى أنهم قد نسوا فلسطين إذ إن فلسطين هى قلب المسلمين النابض.

وعلى الرغم من عدوانية دعوة عزام إلى الجهاد ومطالبته بعودة جميع أراضى المسلمين السابقة، فمن المهم أن نوضح أنه امتنع عن المطالبة بالإطاحة بالحكومات العلمانية المسلمة على أساس الردة وكان يرفض، بقوة الصراع بين المسلمين. بيد أنه، فقد كان لآراء عزام هذه أن تصطدم فيما بعد بطموحات أيمن الظواهرى وغيره من أعضاء جماعة الجهاد الإسلامى المصرية والذين كانوا يهدفون إلى الإطاحة بالحكومة المصرية حيث رأوا أن إدانة الدول العلمانية المسلمة المرتدة واجب تحتمه

العقيدة الإسلامية الحقة. وفى واقع الأمر، فقد تكون آراء عزام المعتدلة نسبيا هى التى أدت إلى مصرعه فى ثانى هجوم بالقنابل تم تنفيذه ضده فى عام ١٩٨٩ . بيد أنه فى البداية، فقد كان عزام هو من مارس تأثيرا أيديولوجيا قويا على أسامة بن لادن الذى كان يصغره بأعوام كثيرة، والذى تعاون معه، فيما بعد فى تنسيق مهمة تجنيد المتطوعيين ومثَّل إضافة لافتة إلى هذا المجهود: كان إسهام بن لادن المتفرد فى الأيام المبكرة للجهاد، وعلى الرغم مما رُوى فيما بعد من قصص مجَّدته وأكسبته وافر الاحترام، كان هو التزامه بعملية تجنيد المتطوعين على نطاق دولى. ثمة توافق على أنه كان فى خلال تلك المرحلة أن بدأت فكرة القاعدة تتشكل على الرغم من أن الآراء تختلف حول كيفية إنشاء القاعدة فى البداية، ومن أنشأها. بيد أنه، ومنذ البداية، كان أسامة بن لادن وعبدالله عزام، قد اضطلعا بمهمة تجنيد متطوعين للصراع الذى كان قائما فى أفغانستان. ومعا، قاما بإنشاء مكتب الخدمات الذى كان يقوم بتوجيه مسار المتطوعين والأموال. يورد جوناراتنا تفاصيل محددة عن دور مكتب الخدمات ومداه:

كتنظيم، كان العاملون به والقائمون على إدارته، هم المجاهدين. وقد لعب دورا حاسما فى المقاومة ضد السوفييت. فعلاوة على تجنيد عشرات آلاف الشباب المسلمين من بلدان مختلفة، بدءا من الولايات المتحدة وحتى الفلبين، وتدريبهم وتلقينهم مبادئ الجهاد، كان المكتب يقوم بتوزيع ٢٠٠ مليون دولار من المساعدات شرق الأوسطية والغربية، أمريكية وبريطانية بشكل أساسى، مخصصة للجهاد الأفغانى. قام أسامة أيضا بالإسهام بمبالغ كبيرة من أمواله الخاصة خدمة للقضية، وكان لهذا أصداء عميقة فى نفوس المقاتلين، وعمل على زيادة مصداقيته، وأتاح له جمع المزيد من الأموال وتجنيد المزيد من المتطوعين.

بيد أن جوناراتنا لا يذكر المراجع التى تدعم مزاعمه. وبالتقابل، يقدم الصحفى لورانس رايت، استنادا إلى عدد كبير من الحوارات التى أجراها شخصيا، وصفا أكثر شمولا، على الرغم من أنه هو الآخر لا يذكر تفاصيل مصادره:

أقاما ما أسمياه مكتب الخدمات فى بيت كان بن لادن قد استأجره فى حى الجامعة فى بيشاور. كان بن لادن يدفع خمسة وعشرين ألف دولار شهريا نفقات للمكتب. كان المكتب أيضا يُستخدم لاستقبال المجاهدين وإقامتهم لدى وصولهم، ومقرا لصحيفة عزام ودارا للنشر. كما كان، بشكل جوهرى، مستودعا للأموال الضخمة التى كان الرجلان يجمعانها.

وبالتقابل، نجد تقرير لجنة ٩/١١ على قدر من الغموض فى تقييمه لمدى أنشطة مكتب الخدمات، حيث يذكر بأسلوب على قدر من العمومية أن «المساجد والمدارس والأقسام الداخلية بالجامعات كانت تستخدم محطات للتجنيد فى أجزاء كثيرة من العالم من بينها الولايات المتحدة»، وهذا يترك انطباعا بعمليات نطاقها واسع وإن كانت غير رسمية، مثلما يترك الانطباع أيضا برابطة غير محكمة فيما يخص عملية التمويل، ويورد إشارات إلى شبكات دعم مالى تتكون من ممولين بالسعودية والخليج، ويذكر أموالا كانت تتدفق من خلال الجمعيات الخيرية والتنظيمات غير الحكومية. بيد أن التقرير يفند تحديدا المزاعم الشائعة بأن الولايات المتحدة كانت هى من رعت القاعدة، ويذكر أنه، وعلى الرغم من مليارات الدولارات التى كانت الولايات المتحدة تمد بها مجموعات المتمردين الذين كانوا يقاتلون الاحتلال السوفييتى، فقد كان «لبن لادن ورفاقه مصادر دعمهم الخاصة ولم يتلقوا سوى القليل من المساعدات من الولايات المتحدة»!

وأيا كان مدى أنشطة مكتب الخدمات وتأثيره، فإنه يعتبر، على نطاق واسع، أصل القاعدة. وفقا لما يذكره مايكل إس. سوتنام، ويوناه ألكسندر فى كتابهما «قاعدة أسامة بن لادن» فقد «انبثقت القاعدة عن مكتب خدمات المجاهدين فى حوالى عام ١٩٨٩ . وفى الواقع، فبمجرد أن حقق المجاهدون النصر وبدأت القوات السوڤييتية فى الانسحاب كان قادة المجاهدين قد بدأوا يتمعنون فيما عليهم فعله بعد ذلك. وكما يقال، فقد اتفق بن لادن وعزام على أن التنظيم الذى أقيم بنجاح من أجل أفغانستان لا يجوز السماح بحله. من ثم، أقاما القاعدة كمقر عام محتمل للجهاد المستقبلى». وعلى الرغم من أن سدچمان يطرح نفس التفسير، إلا أن رأيه عن كيفية إنشاء القاعدة يختلف جوهريا حيث يذهب إلى أن «الإجماع الذى توافق عليه قادة المجاهدين المتشددين كان هو إنشاء قاعدة أو حركة اجتماعية – لا مقراً رئيسياً للتنظيم – تنطلق منها عمليات جهادية فى جميع أنحاء العالم».

وعلى الرغم من ظهور عدد من التفسيرات المختلفة حول تفاصيل تلك المجموعة، إلا أنه ثمة وثائق حكومية وقانونية تحدد عام ١٩٨٩ تاريخيا لمولد القاعدة. وعلى الرغم من وضوح تاريخ إنشاء القاعدة إلا أنه يصعب العثور على تفاصيل تاريخ تشكيلها. مثلا، تذكر لائحة اتهام بن لادن ومجموعة من رفاقه مثل أيمن الظواهرى التى أصدرتها محكمة نيويورك الجزئية أنه «منذ عام ١٩٨٩ أو حوالى ذلك، وحتى الآن، أسمت المجموعة نفسها القاعدة. منذ عام ١٩٨٩ وحتى ١٩٩١ أو حوالى ذلك، اتخذت المجموعة مقرا لها فى أفغانستان، وفى بيشاور بباكستان». وبالمثل، يزعم

تقرير من الكونجرس صدر عام ٢٠٠٥ أن «بن لادن أنشأ القاعدة فى أفغانستان عام ١٩٨٨». وفى ضوء مثل تلك التأكيدات يستخلص راوفر استنتاجا مهما مفاده أنه:

من المستغرب أنه، وعلى الرغم من أن القاعدة تمثل التهديد الأخطر الوشيك لأمن الولايات المتحدة، وأنها قامت بارتكاب أسوأ هجوم إرهابى فى تاريخ الولايات المتحدة، فلا يبدو وأن أحدا فى الولايات المتحدة متأكد ما القاعدة؛ والأسوأ هو أن هذا السؤال يبدو بدون جدوى وبدون معنى لإدارة أمريكية مقتنعة أنها تعرف أن القاعدة، فى واقع الأمر، هى: كيان شهير، واضح المعالم، لا يشوبه الغموض.

بتعبير آخر، فإن التعريف الذى تعمل وفقه الولايات المتحدة كان – ومازال – هو أن القاعدة تنظيم إرهابى أنشأه أسامة بن لادن، ويديره.

يناقض هذا الرأى الشائع الرسمى القائل بأن أسامة بن لادن هو منشئ القاعدة، الاتفاق العام من الأدبيات الموجودة بأن القاعدة كانت من بنات أفكار عزام. فكما يذكر جوناراتنا فى كتابه «داخل القاعدة» فقد كان «عزام، لا أسامة، هو من أتى بفكرة القاعدة، ومن ثم، نجد أن بصمته جزء ثابت متأصل فى عقول قياداتها». يتوسع فليب ميچوكس فى مقاله بكتاب «تاريخ الإرهاب: من العصور القديمة وحتى القاعدة» على هذه الفكرة ويضيف قائلاً إن «عزام هو من أسمى التنظيم.. حيث قرر عدم تسريح جيش المتطوعين العرب الذى كان قد أنشأه منذ سنوات، بل الإبقاء عليه كى يضطلع بمهمة أكبر وأوسع بكثير.. إعادة غزو العالم الإسلامى.. وقد نحت تعبير القاعدة الصلبة اسما لهذا التنظيم الجديد». تكاد كل تلك المزاعم جميعها تحيل إلى مقال كتبه عزام بصحيفة تستهدف القراء من المجاهدين اسمها «الجهاد» وذكر فيه أن «القاعدة

الصلبة هى التى تشكل طليعة ذلك المجتمع المأمول». علاوة على ذلك، تذكر التقارير أن بن لادن نفسه قال إن «اسم القاعدة» كان قد ترسخ منذ زمن طويل بمحض الصدفة. كان الراحل أبوعبيدة البشيرى قد أنشأ معسكرات لتدريب مجاهدينا ضد الإرهاب الروسى. اعتدنا أن نسمى معسكر التدريب «القاعدة» وظل الاسم قائما. وعلى الرغم من النقاشات الخلافية حول تكوين القاعدة، فإن الصورة التى تظهر فى هذه المرحلة هى أن التنظيم، وبدلا من أنه تم إنشاؤه والتخطيط له بهدف إنشاء كيان هدفه محاربة الولايات المتحدة والغرب، فقد تطور تنظيم القاعدة من هياكل وتكوينات أقيمت لتجنيد المتطوعين للقتال فى أفغانستان. ومازال كثير من الجدل يحيط بتفاصيل الهيكل الأصلى للتنظيم والكيان الذى أصبحه فيما بعد. فإن ثمة نظريتين تقول إحداهما بأن القاعدة، ومنذ البدء، خُطط لها لتكون تنظيما شديد الإحكام، بأقسام متمايزة للعمل تضطلع بها الأفرع المختلفة، ومراسيم معترف بها للانضمام إليها، من بينها قَسَم البيعة، سيئ السمعة، بالولاء لبن لادن، والذى مازال وجوده محل خلاف. أما النظرية النقيضة فتذهب إلى أن جوهر القاعدة كان أكثر إبهاما بكثير: شبكة من الأفراد مرتبطة بجماعات إسلامية مختلفة، والتى من المحتمل لها أن تكون قد طمحت لأن تصبح شديدة التنظيم لها سلسلة قيادة قوية، لكنها تكونت فى الواقع من مجموعات أقل إحكاما بكثير. وعلى هذا، فعلى الرغم من أنها تفتقد بنية محكمة متماسكة، فإن الجماعة تفيد من التظاهر بأنها أكثر تنظيما وإحكاما مما هى عليه فى واقع الأمر، ومن ثم، تخلق صورة دعائية تثير الخوف فى أوساط الحكومات والجماهير، خوفاً لا يتناسب مع حجم الجماعة الواقعى

وفاعليتها.

يقــدم تقــرير لجنة ٩/١١، والذى يعكس منظور الولايات المتــحــدة الرسمى، وإن كان لا يمثله، الصورة الأوضح لبنية القاعدة:

يضم هيكل القاعدة، كأذرع لعملياتها، مكونا استخباراتيا، ولجنة عسكرية، ولجنة مالية، ولجنة سياسية، ولجنة تضطلع بشئون الإعلام والدعاية. أيضا لديها مجلس شورى يتكون من أفراد دائرة بن لادن الداخلية.

بيد أن ثمة معلقين آخرين يصورون القاعدة على أنها أقل تنظيما وإحكاما.

يقول جوناراتنا:

نشأت القاعدة، كما نعرفها اليوم، كشبكة كوكبية، حينما اتخذت الخرطوم مقرا لها بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٦ . طورت القاعدة من أجل تنسيق عملياتها العلنية والسرية فيما تزايدت طموحاتها ومواردها، طورت بنية إقليمية لا مركزية. وعلى الرغم من أن أسلوب عملياتها خلوى، إلا أن العلاقات الأسرية تلعب دورا مفتاحا.

وكما ذكرنا من قبل، فإن سدچمان يرى أن القاعدة ومنذ البداية، جرى تخيلها كمقر، أو حركة اجتماعية لدعم الجهاد الكوكبى، هذا على الرغم من أنها قد نأت بنفسها منذ آنذاك، عن هذا الوضع الأصلى، وأعلنت عن وجود التنظيم المركزى للقاعدة الذى تمضى أهميته فى التزايد.

أما راوفر، ومعه عدد من المحللين، فيذهبون إلى أن بنية القاعدة غير محددة المعالم:

منذ البداية لم تخرج القاعدة عن كونها شكلا هلاميا لا قوام له لا يعمل وفق نظام واحد، بل الأحرى تخلق كل مجموعة (المصريون، أو الباكستانيون) خلاياها داخل هذا الكيان الهلامى، من ثقافتها الجهادية الخاصة، وأعرافها المحلية.

أو وفقا للمتخصص فى علم الجريمة آر. تى نايلور:

فى واقع الأمر، تبدو القاعدة مجموعة غير محكمة من الخلايا المستقلة، أكثر من كونها تنظيما، كيانات شبيهة بالخلايا يتغير شكلها والعاملون بها بأسلوب مرتجل كاستجابة للتهديدات أو الفرص. تبدو القاعدة حالة عقلية مشتركة أكثر منها كيانا، تقوم على عبادة الشخص وتقديسه أكثر من كونها تنظيما سياسيا.

لكن ما المنطق وراء تلك المدركات المتعارضة؟ وهل باستطاعتنا تحديد السيناريو الصحيح من بينها؟ تتيح لنا النظرة الثاقبة إلى مصادر تلك التأكيدات المختلفة التوصل إلى ما هو شائق وغير مُرضٍ فى آن. من الممكن القول إن جايسون بيرك يطرح فى كتابه «القاعدة: القصة الحقيقية للإسلام المتطرف» الرؤية الأكثر إقناعا حيث يقول إن «النظر إلى القاعدة بصفتها تنظيما متماسكا شديد الإحكام له مجساته فى كل مكان وأيديولوجيته الواضحة، وهيئة العاملين به، تنظيما ظهر منذ نهاية الثمانينيات، هو سوء فهم ليس فقط لطبيعة القاعدة الحقة، بل أيضا لطبيعة التطرف الإسلامى آنذاك والآن». يقدم حجة قوية لهذا التقييم يؤسسها على نظرة ناقدة لمصادر القرائن والبراهين واستخداماتها الانتقائية بواسطة الإف بى آى من منطلق حرصه المفرط على تقديم صورة واضحة للقاعدة كتنظيم ذى بنية محكمة. أيضا، يستند بيرك فى أطروحته إلى حقيقة أن تعبير «القاعدة» لم يستخدمه بن لادن أو رفاقه، وقتئذ، للإشارة إلى تنظيم. وفى واقع الأمر، فإنه حتى عام ١٩٨٨، فى أعقاب القصف المزدوج لسفارتى الولايات المتحدة بدار السلام بتنزانيا، ونيروبى بكينيا، فلم يتحدث كلينتون، رئيس الولايات المتحدة آنذاك، عن تنظيم «القاعدة» بل عن «شبكة بن لادن» ولم يتم استخدام المصطلح

لوصف منظمة إرهابية تقليدية سوى أثناء التحقيق الذى أجراه الإف بى آى فى التفجيرات. يرى بيرك أن الأسباب وراء هذا التطور واضحة:

تركز ثقافة الإف بى آى على التوصل إلى قناعات، كما أنه كان على الفرق التى تعمل على الادعاء ضد المسئولين عن تلك التفجيرات، فى أغسطس ١٩٩٨، أن تعمل فى إطار القوانين الموجودة بالفعل، وبخاصة القوانين التى تتعاطى مع المؤامرات. وكانت مثل تلك القوانين قد وضعت للتعاطى مع كيانات إجرامية ذات بنية متماسكة، لا مع حركات دينية/ سياسية متفرقة فى الأنحاء وهلامية القوام حيث يصعب إثبات المسئولية عن عملية محددة، على شخص وأشخاص بعينهم.. ومن سوء الحظ، ففى حالة «القاعدة»، فإن هذا يسىء تمثيل طبيعة الكيان موضع التحقيق بشكل كلى.

علاوة على ذلك، فإن معظم الروايات التى تصور القاعدة بصفتها كيانا ذا بنية محكمة تشكل فى عام ١٩٨٩، تستند إلى الشهادة التى أدلى بها شخص واحد، أى الدكتور جمال الفضل، وهو مقاتل سودانى زعم أنه تم تجنيده فى صفوف المجاهدين الأفغان من خلال مسجد الفاروق فى بروكلين، نيويورك، فى أوائل الثمانينيات، والذى أصبح، فيما بعد، عضوا كبيرا فى القاعدة. هرب الفضل من الدائرة الداخلية لبن لادن بعد أن ضُبِط يسرب مبالغ كبيرة من أموال القاعدة لاستخدامه الشخصى، مما جعله يغير ولاءه ويصبح المخبر الرئيسى للاستخبارات الأمريكية وكما يوضح بيرك:

فقد عرض خدماته على عدد من الهيئات الأمنية شرق الأوسطية قبل أن يتلقفه الأمريكيون عام ١٩٩٦. وبصفته هذه، فإنه ليس مصدراً موثوقاً بخاصة، ومن الواضح أنه كشاهد ادعاء فى قضية «الولايات المتحدة ضد أسامة بن لادن، فقد كانت له مصلحة قوية فى المبالغة فى الدور الذى لعبه المتهم الأساسى.

وسواء كان موثوقا أم لا، فقد استُخدم الفضل شاهد ادعاء رئيسيا فى القضية المشار إليها فى جلسة يناير ٢٠٠١، والتى أدت إلى إدانة أربعة أشخاص تورطوا فى تفجيرات سفارتى الولايات المتحدة عام ١٩٩٨. أتت تلك الهجمات، التى كانت قد نسبت إلى أعضاء جماعة الجهاد الإسلامى المصرية بأسامة بن لادن وأيمن الظواهرى إلى بؤرة اهتمام حكومة الولايات المتحدة لأول مرة وأدت بالإف بى آى إلى أن يضع أسامة بن لادن على قائمة «أكثر عشرة مطلوبين». فى وقت المحاكمة، اقتضت نية الادعاء على بن لادن غيابيا بمقتضى قانون RICO [أى الاستيلاء على الأموال عن طريق العنف والتنظيمات الفاسدة] اقتضت أن يقدم المُدَّعون برهاناً على وجود تنظيم «إجرامى»، يتيح الادعاء على زعيمه حتى لو لم يثبت ارتباطه / ارتباطها مباشرة بالجريمة.

وفى الواقع، فقد كان من المناسب أن قام الفضل بتقديم البرهان المطلوب حينما قال فى شهادته إن أسامة بن لادن كان زعيم تنظيم دولى إرهابى كبير يعرف بـ «القاعدة». لم يكن ثمة أهمية أنه تم الطعن فى مزاعمه فى مرحلة أخرى من المحاكمة من خلال الشهادة التى أدلى بها خلفان خميس محمد، أحد المفجرين. تذكر التقارير أن محمداً ذكر أنه لم ينطق بأى قسم كى ينضم إلى تنظيم يسمى القاعدة، بل إنه زعم أنه لم يسمع بمثل هذا التنظيم واكتفى بالتعليق أن «القاعدة هى صياغة استخدموها كى ينفذوا التفجير». وفى ضوء تلك التقارير المتناقضة ينتهى بيرك إلى أن الرواية الخاصة بوجود تشكيل ذى بنية محكمة هو

أقرب إلى التفكير الرغبوى منه إلى الواقع، وأن أفضل أسلوب للنظر إلى القاعدة وقتئذ هو أنها كانت تكتيكا، وأن عزام رآه كأسلوب لممارسة الأنشطة لا كتنظيم.

طرح آدم كيرتس نقدا مماثلا لفكرة أن القاعدة تنظيم محكم البنية فى برنامجه الوثائقى بالبى بى سى بعنوان «قوة الكوابيس» والذى استغرق أربع ساعات. زعم كيرتس أن أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى كانا «على هوامش الحركة الإسلامية» وأنه قد تم تضخيم دورهما بما يناسب أهداف الإف بى آى الذين كانوا يتطلعون إلى إدانة بن لادن غيابيا. هنا أيضا، يرى كيرتس أن شهادة الفضل كانت مركزية ومناسبة لهذا الهدف حيث رسم صورة لبنية إرهابية مخيفة على رأسها بن لادن. أورد كيرتس ما قاله سام شميدت، محامى الدفاع عن أحد المتهمين فى تلك القضية «إن ثمة أجزاء منتقاة من شهادة الفضل زائفة.. جعلت بالإمكان تعريف القاعدة بصفتها مجموعة، ومن ثم يصبح من السهل إدانة أى شخص مرتبط بالقاعدة على أية أفعال يقوم بها بن لادن، أو بيانات يدلى بها، وكان يتكلم كثيرا».

وسواء كانت تقييمات بيرك وكيرتس صائبة، فإنهما قد قاما بعمل مفيد بتركيزهما على أن البراهين التى تصف القاعدة على أنها تنظيم تستند إلى عدد محدود من المصادر المشبوهة. بالإضافة إلى شهادة الفضل ومحمد، فقد تم الاستماع أيضا إلى الدليل من الحسين خرشتو الذى اعترف بأنه مذنب بالتآمر على القتل فى تفجيرات السفارتين، لكنه منح حصانة ضد الادعاء عليه وأدخل فى برنامج حماية الشهود نظير

شهادته ضد زملائه السابقين. وبهذا، أصبح لديه، مثل الفضل، حافز قوى ليشهد بما يرضى الادعاء. ومعا، تشكل شهادة هؤلاء الجزء الأكبر من المعلومات المعروفة عن أيام القاعدة المبكرة. وعلى الرغم من أن شهادة كل منهم على حدة أتت بصور متناقضة عن تشكيل القاعدة الهيكلى، فقد تم قبول وصفها على أنها تنظم إرهابى محكم البنية على أنه وصف دقيق. بيد أنه لم يكن ثمة أدلة ثابتة تبرر هذا القبول؛ فقد تم قبول مقولات الفضل وخرشتو بقيمتها الشكلية كما نصا عليها واعتبرت حقيقة منذ آنذاك فصاعدا. من ثم، يبدو من المنطقى الانتهاء إلى أنه بحلول عام ٢٠٠١، كانت حقيقة طبيعة القاعدة قد أصبحت رهينة لدى إصرار الولايات المتحدة على تجميع قضية ادعاء ضد بن لادن بأى ثمن، وإلى أن القاعدة أصبحت تعرف بصفتها تنظيماً إرهابياً معقداً لأن هذه الصورة كانت تتماشى مع أهداف الولايات المتحدة وشخوص أعضائها الرئيسيين. أثناء إجراءات المحكمة، كان ذلك الملف يشار إليه تحديدا بصفته دليلا على أن القاعدة تنظيم. بيد أنه من المهم أن نلاحظ أنه على الرغم من الإصرار على وجود هيكل تنظيمى، فإن الدليل نفسه يشير إلى أن الكيان ليس بنية محكمة:

وكما تبرهن المواد اللافتة التى قامت FBI بأرشفتها، فقد شكل بن لادن القاعدة عام ١٩٨٨ مع آخرين. من بينهم سليم (أبوهاجر) وبايزيد (أبو رضا). احتفظت القاعدة بملفات للعاملين بها. ويقوم الأعضاء بحلف قسم الولاء أو البيعة ويوقعون عقودا.. لم يتبين أن المتهم أرنؤوط نفسه قد حلف قسم الولاء، على الرغم من أن الأدلة توضح أنه كان عضوا شديد الأهمية فى شبكة القاعدة. ومن المحتمل أن كثيرا من أعضاء شبكة القاعدة الرئيسيين، بمن فيهم أبوهاجر، لم يصبحوا أعضاء رسميين.

وفى هامش لإجراءات المحاكمة يُذكر أن:

الأعضاء لم يكونوا دائما يعرفون أسماء الآخرين الذين وقعوا عقدا أو أقسموا على البيعة. علاوة على ذلك، فإن كثيرا من أعضاء القاعدة الرئيسيين قد لا يكونون قد أصبحوا أعضاء رسميين من خلال حلفهم قسم البيعة هذا على الرغم من اضطلاعهم بأدوار رئيسية فى عمل القاعدة.

فى الواقع، فإن التحليل المتحفص للأدلة المقدمة فى قضية أرنؤوط يبين وكما يوضح المجتزأ أدناه، أنها أبعد ما تكون عن الوضوح، وسيئة العرض أحيانا، ومن المتعذر قراءتها.

كما أن البيانات التى وُجدت فى ملف «تاريخ أسامة»، تبدو وأنها تعكس محاولة قائمة لإنشاء تنظيم بأكثر ما تصور تنظيما جيد البنية موجودا بالفعل:

علاوة على مناقشة جمع التمويلات، تحوى القائمة مداخل عديدة تطالب بإنشاء مجلس قيادة وتحديد أفضل الأماكن للعمل. وبالفعل تطالب بوجود: إعلان مطبوع يبين التالى:

أ- اتفاق الشرق والغرب على منع إقامة أمة إسلامية.

ب - الحل الوحيد هو الاستمرار فى الجهاد المسلح.

جـ - الاهتمام بالتدريب واغتنام الفرص.

د - دعم المجاهدين المؤمنين و.. [غير مقروء].

هـ - تحديد المواقع التى نريد تواجد الإخوة بها.

يوقع على هذا الإعلان يونس خالص من جماعة أنصار الجهاد.

هامش ٣٣: حث الإخوة على الصبر والتقوى والطاعة والزهد والتعفف (أبوهاجر). يظهر حزب نهاية القائمة المدخل التالى: العمل على إبقاء الروح الجهادية حية بين المسلمين بعامة والعرب بخاصة من خلال فتح قواعد لجهادهم مع الإبقاء على خطوط للتواصل معهم. يرجح السودان.

وعلى الرغم من صعوبة الحكم على محتويات ملف «تاريخ أسامة» على أساس الترجمات والملخصات التى قدمت فى القضية، فإن هذا المجتزأ الذى أوردناه لا يتسق تماما مع فكرة القاعدة كتنظيم. علاوة على ذلك، فليس من الواضح بإطلاقه أن هؤلاء المعلقين الذين أشاروا إلى الملف، بصفته دليلا قد اطلعوا بالفعل على البيانات الأصلية أم أنهم توصلوا إلى استنتاجاتهم على أساس ما يُزعم أن الملف يحويه. على سبيل المثال، يستند تقرير لجنة ٩/١١ إلى حد كبير على محتويات ملف «تاريخ أسامة» فى وصفه للقاعدة على أنها تنظيم متماسك، وبذلك، يتعاطى عملياً مع إجراءات المحاكمة بصفتها مصدرا موثوقا. وكى يدعم هذه المزاعم، يذكر التقرير فى «هوامش الفصول» ما يلى:

تم الحصول على ثروة من المعلومات عن تطور القاعدة وتاريخها من المواد التى ضبطت مؤخرا، بما فى هذا ملفات «تاريخ أسامة» و«تاريخ المساعدات» للحصول على الأوصاف، وعلى مجتزآت كبيرة من تلك الملفات انظر.. «الولايات المتحدة ضد أرنؤوط.

يرفض داعم صريح آخر لفكرة «القاعدة، التنظيم» وهو الصحفى پيتر برجن، أطروحات بيرك وكيرتس بصفتها «هراء». يرى أن ثمة أدلة قاطعة لدعم التأكيدات بأن القاعدة أنشئت فى نهاية الثمانينيات، ويستشهد بملف «تاريخ أسامة» كدليل يدعم به مزاعمه. يزعم برجن، الذى لا يشير بإطلاقه إلى ما إن كان قد رأى الملف الأصلى أم لا، أنه:

كان لدى FBI فى مكتبها بسراييڤو ملف كومبيوتر بعنوان «تاريخ أسامة» يحوى الملف صورا لوثائق تؤرخ لأنشطة أسامة فى أفغانستان التى أدت إلى تكوين القاعدة، بل أيضا يحوى تقارير لاحقة عن التهديد الذى يمثله بن لادن للولايات المتحدة.

يضيف برجن أيضا أن «بعض الخطابات تحمل توقيع بن لادن في نسخها الأصلية» على حين أن القضية تشير إلى أن الخطابات. المنسوبة إلى بن لادن كتبها شخص آخر باسم مستعار.

وهكذا، يشعر المراقب المتيقظ بالحيرة إزاء الجدل الرسمي حول الهوية الحقيقية للقاعدة والذى يستمر في الدوران في دوائر. في النهاية، يظل ثمة تفسيران لطبيعة القاعدة في نهاية عام ١٩٨٩. أينبغي النظر إليها بصفتها تنظيما إرهابياً مكتملا له خلايا في جميع أنحاء العالم، أم أنها كانت كيانا على قدر من الهلامية اكتسب شيئا من التماسك في الأعوام التي سبقت ٩/١١؟ وإلى حد كبير، تظل الحقيقة مشوشة من خلال التفسيرات المتعارضة والتلفيقات التي نمت في غياب أدلة موثوقة كافية.

وسواء كانت نهاية الحرب السوفييتية الأفغانية قد شهدت قيام القاعدة كتنظيم أم لا، فمن المؤكد أنها شهدت الانقسام الأيديولوجي المتنامي بين بن لادن، ومرشده عبدالله عزام وكان هذا بسبب التأثير المتزايد للمصريين، وبخاصة أيمن الظواهري، الذي طرح أفكارا وأجندات جديدة للجهاد. يتوسع جوناراتنا في هذه النقطة حيث يذكر:

على الرغم من توافق بن لادن وعزام على القضايا الرئيسية لدعم المسلمين المضطهدين.. فقد اختلفا حول الأساليب. وصل التوتر بين الاثنين إلى ذروته حول اقتراح لمقاتلي مكتب الخدمات المصريين لتدريب المجاهدين على الأساليب الإرهابية. كان المصريون حريصين على إنشاء قوة تنفذ حملة في بلدهم.. أما عزام الذي كان قد عاش بمصر، فكان يعلم عدم جدوى إطلاق حملة إرهابية هناك ومخاطرها وحدودها، من ثم أصدر فتوى تقول إن استخدام أموال الجهاد للتدريب على تكتيكات إرهابية يعد انتهاكا للشريعة.

فى الواقع، كان عزام يرفض بإطلاقه أية خطوة تنشر الفتنة بين المسلمين. وفقا لبرجن، أراد القتاليون المصريون «استخدام العنف للإطاحة بالحكومات التى رأوها أنها مرتدة فى أنحاء العالم الإسلامى، وكان هذا مفهوماً للجهاد رفضه عزام وكثيرون من أتباعه لأنهم لم يريدوا أن يشاركوا فى صراعات ضد المسلمين». يوافق رايت على هذا الرأى، ويؤكد بأسلوب غير ملتبس أن «عزام عارض بضراوة أى حرب يشنها مسلمون ضد غيرهم من المسلمين. يزعم عبدالله أنس أن الظواهرى كان حريصا على تجنيد بن لادن، بسبب الأموال التى بحوزته، وكان أنس هو أحد قادة المجاهدين وموضع ثقة عزام. من ثم، يتهم أنس الظواهرى، بأنه قام بحملة لتشويه سمعة عزام لإزاحته عن موقعه وتقويض نفوذه. تم اغتيال عزام فى نوفمبر ١٩٨٩، ولم يتم التعرف على قاتليه أبدا. يزعم جوناراتنا أن بن لادن كان متورطا فى المؤامرة ضد عزام: «كان المصريون قد كسبوا أسامة إلى جانبهم قبل اغتيال عزام واشترطوا عليه دعم النقلة الاستراتيجية باتجاه الإرهاب، وهى نقلة صادق عليها من كل قلبه». لكن ثمة آخرين لم يوافقوا على هذا الرأى بمن فيهم عبدالبارى عطوان، الذى، وفيما يعترف بالشقاق الذى حدث بين الاثنين، إلا أنه يستبعد فكرة ضلوع بن لادن فى مقتل عزام. وكما هو الحال فى معظم تاريخ القاعدة فإن النقاش الخلافى حول الملابسات المحيطة بمقتل عزام يظل غير محسوم.

وبموت عزام وانتهاء الحرب، يقال إن أسامة بن لادن عاد إلى السعودية ومعه حس بالبطولة. يقول رايت «عاد المثالى الشاب إلى المملكة

بحس أن له رسالة مقدسة.. كان قد رحل معاونا لمحارب مسلم أيقوني، ثم عاد وهو زعيم للعرب الأفغان بدون منازع. ومع مكانته الجديدة، غدت أهداف بن لادن أكثر طموحاً». ولتوضيح هذه النقطة، يتهم رايت بن لادن بتمويل حرب عصابات فى اليمن التى كانت قد توحدت لتوها، بدعوى تخليص الجزيرة العربية من «العناصر الأجنبية»، كما أنه أصبح أعلى صوتا حول أمريكا ودورها المفسد فى العالم الإسلامى. يؤكد عطوان أن بن لادن وُضِع تحت الإقامة الجبرية بعد أن تصاعد القلق من أنشطته حيث يذهب عطوان إلى أن الحكومة السعودية، حتى فى تلك المرحلة المبكرة، قد ساورتها مخاوف أمنية إزاءه حيث كانت خطبه العامة الصريحة تسجل على أشرطة وتوزع على نطاق واسع، وكان فيها يحذر الشعب السعودى من التهديد الذى يمثله النظام البعثى العراقى حيث اعتقد أنه كان يخطط لغزو كل منطقة الخليج.

يدعم جايلز كيل هذه الفكرة حينما يقول إن المخاوف كانت تساور بن لادن من التهديد البعثى بدرجة أنه عرض على الملك فهد استخدام قواته من المجاهدين [للدفاع عن السعودية بعد اجتياح صدام للكويت]. وفى الواقع فإن هذا الاجتياح عام ١٩٩٠ يمثل نقطة تحول بالنسبة لبن لادن والقاعدة. أولا، تأكدت صحة مخاوف بن لادن من أهداف صدام حسين التوسعية بحيث يبدو من المفارقات الساخرة أن تزعم الولايات المتحدة بعد ٩/١١ بوجود تعاون بين بن لادن وصدام. بيد أن الأهم بكثير كان هو رفض السعودية استقدام قوات بن لادن من المجاهدين لحماية المملكة ضد ميول صدام التوسعية وتفضيل المساعدة العسكرية الأمريكية مما

أدى إلى شقاق لا رجعة عنه بين بن لادن والمملكة. يذكر عطوان أن بن لادن أخبره أن قرار الحكومة السعودية دعوة القوات الأمريكية للدفاع وتحرير الكويت كانت أكبر صدمة تلقاها فى حياته، حيث إنه كاد ألا يصدق أن بإمكان آل سعود الترحيب بنشر قوات كافرة على أراضى شبه الجزيرة وبالقرب من الأماكن المقدسة، لأول مرة منذ ظهور الإسلام.

فى الواقع، فقد بدت تلك الواقعة وأنها قد أسست لبداية علاقة عدائية وتصادمية بين بن لادن والسعودية، وبداية لفصل جديد فى تاريخ القاعدة المتنازع حوله

١٩٩٢ - ١٩٩٦: القاعدة فى السودان وأفغانستان:

فى أعقاب حرب الخليج، شد أسامة بن لادن الرحال إلى السودان بعد توقف وجيز فى أفغانستان. يبدو ثمة إجماع فى الأدبيات حول القاعدة يؤكد أن بن لادن والظواهرى كانا قد دُعيا إلى السودان بناء على طلب حسن الترابى، الإسلامى السودانى والعضو البارز فى جبهة الإنقاذ الوطنى التى كان البشير يترأسها. كان النظام الإسلامى قد استولى على السلطة فى انقلاب عسكرى عام ١٩٨٩، وكان الترابى شخصا واسع النفوذ، هذا على الرغم من اعتقاله، لاحقا، عدة مرات بتهمة التآمر على نظام البشير. يستشهد برجن بما قاله جمال إسماعيل من مجلة الجهاد: «وجهت الحكومة السودانية الدعوة إلى بن لادن. فتحوا الحدود أمام العرب والمسلمين لزيارة السودان والاستثمار به.. ولعب الترابى دورا بالغ الأهمية فى إقناع عمر البشير لاستقدام بن لادن -». من الواضح أنهم كانوا قد أملوا أن يأتى بن لادن معه بأمواله الطائلة

ليستثمرها فى السودان الذى كان يعانى الفقر. وفى الواقع، فإن بيرك يذكر أن «معظم وقت بن لادن فى السودان بدا وأنه كان مكرسا لإقامة إمبراطورية أعمال ممتدة وأقل من ناجحة وإدارتها».

وإذا نحينا الإجماع المبدئى جانبا، فقد أثارت تلك الفترة كثيرا من التكهنات حول كم الأموال التى كان يحوزها بن لادن، ومقدار المبالغ التى استثمرها فى السودان، وما إن كانت مشاريعه مربحة أو مجرد تبديد للأموال. تختلف الآراء إلى حد كبير حول مجموع رأس المال الذى كان بن لادن يحوزه. يزعم جوناراتنا، استنادا منه إلى مصادر استخباراتية لا يسميها، أن ميراث بن لادن كان يتراوح بين ٢٥ مليون دولار و٣٠ مليون دولار فقط. وفى الطرف الآخر من الطيف يذهب عبدالبارى عطوان إلى أن بن لادن أنفق ٣٠٠ مليون دولار من أمواله الخاصة بالسودان، خصص ٢٠٠ مليون منها لمشاريع إعمارية ضخمة مثل مطار بورسودان وطريق «التحدى» السريع بين بورسودان والخرطوم والذى يبلغ طوله ٤٠٠ كم. يتخذ رايت موقفا أكثر حذرا حيث يقول «يتم تداول مزاعم مبالغ فيها عن ثروة بن لادن؟ حيث يقول الناس إنه كان يستثمر ٣٥٠ مليون دولار أو ما يتجاوز ذلك، فى البلد، الأمر الذى كان لابد وأن يكون إنقاذا للسودان». وهكذا نرى أن ثمة قدرا كبيرا من التشوش حول كمية الأموال التى استثمرها بن لادن بالفعل، هذا على الرغم من التوافق على أنه استثمر أموالا طائلة بالسودان فى تلك الفترة. يصفه جوناراتنا بأنه كان متدبرا على حين يرسم بيرك ورايت صورة أقل إطراء له، بل إن رايت يذهب إلى حد القول إن بن لادن كان «مفلسا» بسبب سوء إدارته

المزمن لأعماله بالسودان وقطْع أسرته بالسعودية للأموال التى كانت ترسلها إليه، ويستشهد على ذلك بالحسين خرشتو الذى ورد ذكره من قبل، والذى قال إنه كان يحتاج لبعض المال لدفعه نظير عملية قيصرية لزوجته لكنه أُبلغ أنه لم يكن ثمة أموال. يضيف أن تصرفات الفضل الذى قام باستلاب أموال من عمليات القاعدة كان دافعها عدم المساواة بين ما يتلقاه أعضاء القاعدة المصريون من رواتب وما يتلقاه نظراؤهم السودانيون.

لم تقتصر استثمارات بن لادن على البنية الأساسية فى السودان، بل إنه كان، فى تلك الأثناء يساعد فى تمويل مجموعة أوسع من المقاتلين الإسلاميين. يصفه ريتشارد كلارك، مؤلف كتاب «ضد جميع الأعداء» بأنه «رجل بر الإرهاب» ويزعم بيرك أن القاعدة كانت تدار «كمشروع مؤسسة رأسمالية»، تدفع رواتب الإرهابيين المحتملين الذين يتبنون نفس القضايا الأيديولوجية. يرسم جوناراتنا صورة لتنظيم دائم النمو تزداد قوته باطراد، ويزعم أنه كان لدى القاعدة ما بين ١٠٠٠ و١٥٠٠ مقاتل تدربوا من خلال بنية أساسية متسعة فى باكستان وأفغانستان ثم ذهبوا للقتال فى أماكن مثل البوسنة. يعلق ريتشارد كلارك أيضا بشىء من التحفظ على ظهور المقاتلين الذين تدربوا فى القاعدة «لم نكن نعرف أنهم ينتمون للقاعدة، لكننا كنا نعلم أنهم إرهابيون دوليون». يضيف جوناراتنا أن مقاتلى القاعدة كانوا قد تدربوا على صنع المتفجرات فى مزرعة تمتلكها القاعدة بالسودان وأن الحكومة السودانية منحتهم أرضا لإقامة معسكرات تدريب، ويخلص إلى القول بأن القاعدة بدأت من السودان،

تنشر شبكتها فى أنحاء العالم، وطورت شبكة اتصالات غير مسبوقة تربط بين مكاتبها الإقليمية فى لندن، نيويورك، تركيا، ومراكز أخرى». أما رايت، فيختلف تقييمه لأنشطة تلك الفترة اختلافا جذريا: «لم تحقق القاعدة أى شىء، ولم يكن لها أية قيادة أو أى توجه واضح».

تشكل تلك الروايات المتعارضة عن أصول القاعدة وتطورها خلفية فهم العالم الغربى لتطورها الأيديولوجى وتطورها فى العمليات الإرهابية. فمن ناحية، يزعم تقرير لجنة ٩/١١ أنه بحلول عام ١٩٩٢ كانت مهمة القاعدة قد أصبحت كوكبية ويشير إلى الفتوى التى أصدرتها قيادة القاعدة تدعو فيها إلى الجهاد ضد استعمار القوات الغربية للأراضى الإسلامية بالتقابل، يزعم سدچمان أن استراتيجية القاعدة فى تلك الفترة كانت هى استهداف «العدو القريب» الأنظمة العلمانية العربية والأهداف الغربية فى البلدان الإسلامية، ومن ثم، يمكن النظر إلى الفتوى المشار إليها فى سياق الجهاد الدفاعى. يضيف سدچمان أيضا أن «المناوشات ضد الولايات المتحدة كانت مازالت وجها ثانويا للجهاد أثناء المنفى السودانى». بيد أن تقرير لجنة ٩/١١ يصر على التهديد المتنامى للقاعدة وقتئذ ويزعم أن بن لادن كان، فى تلك الأثناء، مشغولا برأس الأفعى – الولايات المتحدة– وأن الدليل على ذلك هو تلك الفتوى وما تلاها من عمليات إرهابية. وفى واقع الأمر، فقد كانت إحدى أولى الأحداث الإرهابية التى نُسبت إلى القاعدة هى تفجير فندق فى مدينة عدن عام ١٩٩٢. كان اندلاع كارثة إنسانية فى الصومال قد أدى بالأمريكيين إلى نشر قوة مهمات إنسانية صغيرة المدى.

(بدأت عملية: استعادة الأمل، فى ديسمبر ١٩٩٢) لتسهيل تسليم المعونات. فهم بن لادن تلك العملية على أنها إشارة إلى نية الولايات المتحدة للانتقال إلى داخل المنطقة، مع توسيع عملياتها واحتمال استهداف السودان. استهدف تفجير الفندق الجنود الأمريكيين وهم فى طريقهم إلى الصومال، لكنهم لم يكونوا موجودين هناك حيث كانوا قد غادروا قبل يومين من التفجير، جاء فى تقرير لجنة ٩/١١ أن «التقارير ذكرت أن الفاعلين ينتمون إلى مجموعة باليمن الجنوبية يترأسها أحد أعضاء مجلس الشورى التابع لجيش بن لادن الإسلامى، وأن بعضا من أعضاء المجموعة تلقوا تدريبهم بمعسكر فى السودان تديره القاعدة».

يزعم عطوان أيضا أن بن لادن أخبره أن بعض الأفغان العرب اشتركوا فى الكمين الذى نُصب للقوات الأمريكية بمقديشيو عام ١٩٩٣، وأنه شعر بالإحباط لأن الأمريكيين انسحبوا بعد عملية «سقوط الصقر الأسود». أما بيرك، فيناقض هذا الرأى بصفته غير حقيقى بإطلاقه ويضيف أن «الصحفيين الذين كانوا يعملون بالصومال وقتئذ لم يجدوا قرائن أو أدلة على تورط القاعدة فى الحادث».

بالإمكان القول إن أهم الأحداث المتعلقة بالقاعدة فى تلك الفترة كانت تفجير مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣ الذى نفذه رمزى يوسف، على الرغم من الخلاف القائم فى الأدبيات ذات العلاقة حول مدى إسهام القاعدة فى الحادث. ينص تقرير لجنة ٩/١١ على أنه وعلى الرغم من وجود روابط بين بن لادن ويوسف، والمدعو «الشيخ الأعمى» (عمر عبدالرحمن، زعيم الجماعة الإسلامية المصرية والذى أدين بتهمة

التحريض على تفجير مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣)، فإن «تورط القاعدة غامض فى أفضل الأحوال». وعلى الرغم من أن رايت لا يربط بين بن لادن وتلك التفجيرات مباشرة إلا أنه يقول إن يوسف كان قد تلقى تدريبه فى معسكرات القاعدة. أما جوناراتنا، فيوضح بما لا يدع مجالا للشك تورط بن لادن.

على الرغم من أن الولايات المتحدة لم تدرك وقتئذ أن رمزى أحمد يوسف، الذى تعلم ببريطانيا، كان يُموّل من خلال أسامة، إلا أنهم كانوا يعلمون التهديد الذى يمثله المجاهدون المتموقعون فى باكستان وأفغانستان. وبما أن أسامة أخفى علاقته بمعظم العمليات ربما فى هذا تفجير عام ١٩٩٣، غفلت السى آى إيه عن طبيعة تنظيمه متعدد الجنسية.

لكن برجن يعارض هذه المزاعم بقوة. وعلى الرغم من قناعته فى البداية أنه كان ثمة يد أعظم خلف تلك الهجمات، إلا أنه يستبعد بإطلاقه فكرة تورط بن لادن فى تفجيرات ١٩٩٣ ويؤكد أنه لا علاقة له بها.

كانت تفجيرات أبراج الخبر بالسعودية عام ١٩٩٦ محل إجماع بأنها من تدبير القاعدة وتنفيذها. بيد أنه، قبل تنفيذ تلك الهجمة، كان بن لادن يواجه ضغوطا جديدة من مضيفيه السودانيين لمغادرة البلد. فى عام ١٩٩٥، أدت محاولة اغتيال حسنى مبارك بإثيوبيا إلى الضغط مجددا على السودانيين لطرد بن لادن. كانت ثمة شكوك فى أن مقاتلى حركة الجهاد الإسلامية المتموقعين بالسودان هم المسئولون عن تلك المحاولة الفاشلة. أيضا، بدا أن ثمة توترات مستمرة بين بن لادن والسلطات السعودية الذين أرسلوا مبعوثين إلى السودان يناشدونه العودة إلى وطنه. لكن، لم تتوج أى من تلك المحاولات بالنجاح، وفى عام ١٩٩٤،

أسقطت السلطات السعودية الجنسية عنه وأنكرته عائلته علنا. يورد برجن تعليقات للأمير تركى الفيصل، رئيس الاستخبارات السعودية:

رصدنا تحركات بن لان وهو يقوم بتجنيد أشخاص من مختلف أنحاء العالم الإسلامى.. كان هذا نشاطا غير مقبول. من ثم صدرت التعليمات، وأبلغنا السلطات السودانية التى أكدت لنا أنها لن تسمح لأسامة بالإضرار بالمصالح السعودية.

وهكذا، يبدو أن الضغوط التى مورست على السودانيين أجبرتهم على إقناع بن لادن بمغادرة البلد.

فى عام ١٩٩٦، رحل أسامة بن لادن عن السودان وعاد إلى أفغانستان. وفى تلك الأثناء، كانت طالبان بقيادة الملا عمر، تسيطر على أجزاء كبيرة من البلد. يوضح ميجاوكس ، كيف استغل بن لادن الوضع ونقاط ضعف طالبان لإقامة علاقة تكافلية بين الحركتين:

تدريجيا، تم نسج شبكة رهيفة من التحالفات التى تقوم على أسس من المراكز الشرفية، والروابط الزوجية، والوظائف الإدارية، والدعم المالى، والتورط فى تجارة المخدرات، نسجها بين حركة طالبان والقاعدة. كان بن لادن عضوا فى مجلس حكماء طالبان، ومُنح الملا عمر منصبا شرفيا فى مجلس شورى القاعدة.

يدعم برجن هذا الرأى باستشهاده بتعليقات وحيد مُجده الذى كان قد عمل بمكتب الخدمات تحت رئاسة عبدالله عزام:

كان أسامة وأتباعه بالطبع يدركون جيدا كيف يؤثرون على طالبان استنادا إلى خبرتهم السابقة مع قادة المجاهدين.. برهن دعم طالبان ماليا فى حربها ضد معارضيها، وبخاصة شراء قيادات تلك المعارضة، على أنه استراتيجية فاعلة. وهكذا رسخ أسامة وضعه ولم يعد مجرد ضيف، بل أصبح له وضع مرموق بين طالبان.

وفى هذا الصدد، يورد جوناراتنا مزيدا من التفاصيل..

سرعان ما قوّى أسامة روابطه مع قيادات طالبان واكتسب نفوذا فى أوساطهم

من خلال تمويل التنظيم ومساعدته ماديا. بعد فترة، شكلت القاعدة وحدة لحرب العصابات بهدف مساعدة طالبان فى قتالها ضد التحالف الشمالى. تم دمج وحدة القاعدة والتى كانت تعرف بالكتيبة ٠٥٥ والمؤلفة من عدد من العرب الأفغان يتراوح بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ مقاتل، دمجها فى قوات طالبان المقاتلة.. رد التنظيم مجاملة أسامة ومساعديه بأن منح القاعدة ملاذا آمنا وأمدها بالأسلحة باستخدام خطوط الطيران الأفغانية لنقل الأعضاء والمتطوعين والإمدادات من الخارج. وبهذا، فقد كانت العلاقات متبادلة.

بيد أنه من الصعب على المرء أن يفهم كيف تمكن بن لادن من أن يصبح شخصية مؤثرة على مدى متسع فى أفغانستان من خلال ثروته، إذا كان ما زعمه بيرك ورايت عن إفلاسه بعد فترة إقامته فى السودان صحيحا. وفى الواقع، نجد أن بيرك يرسم صورة مختلفة تماما للوضع فى أفغانستان حيث يؤكد أنه كان ثمة تنويعة من الجماعات الإسلامية تتخذ البلد قاعدة لها، ونتيجة لذلك كان هناك بالفعل عدد كبير من معسكرات التدريب، وبتحديد أكثر يقول بيرك:

وصل بن لادن عائدا إلى أفغانستان وهو يملك أيديولوجيا بدون أن يكون لديه وسيلة لتفعيلها.. لكن على الرغم من أن بن لادن كان يفتقد القوة البشرية والأمن، فقد كان ثمة، عدد من المجموعات فى أفغانستان لا تفتقدها.

١٩٩٦ - ٢٠٠١: اكتساب القوة

على الرغم من الجدل حول تماسك القاعدة الداخلى ومدى تورطها، المشكوك فى صحته، فى الأعمال الإرهابية التى نسبت إليها، فإن الاعتقاد السائد هو أن «التنظيم» كان قد اكتسب القوة أثناء السنوات الخمس السابقة على ٩/١١، حتى أن بيرك نفسه يوافق على أن أقرب شىء للقاعدة الذى يتسق مع التحليل الشائع لها، ظهر إلى حيز الوجود

فى الفترة ما بين ١٩٩٦ و٢٠٠١. وعلى الرغم من ذلك، فمازال من غير الواضح الدرجة التى ماثلت بها تنظيماً شديد الإحكام. لكن الواضح هو أن الفترة السابقة على ٩/١١ شهدت مستوى متزايدا من «بروباجندا القاعدة»: حوارات مع صحفيين فى الغرب، فتاوى، خطابات مفتوحة وبيانات عامة تُبث على الجزيرة والتى من خلالها كان بن لادن يحاول ترسيخ صورة عامة له وللقاعدة. تصور رواية بيتر برجن عن لقائه الأول مع «ممول التطرف الإسلامى» رجلا عرف كيف يستخدم الإعلام لصالحه ويترك انطباعا لا يمحى.

التقيت أسامة بن لادن عام ١٩٩٧. آنذاك، كان ينظر إليه على أنه فقط ممول التطرف الإسلامى.. دائما ما اعتقدت أن أول هجوم على مركز التجارة العالمى فى عام ١٩٩٣ قد يكون وراءه تنظيم أكبر، يقوده، ربما، شخص مثل بن لادن. لكن ثبت أن هذا التخمين خاطئ. لم يكن لبن لادن أية علاقة بالهجوم، لكن ذلك المنفى السعودى كان يتزعم تنظيما إرهابيا كوكبيا، كما تسنى لنا أن نكتشف حينما التقيناه فى أفغانستان.

.. وصل بن لادن من المجهول.. لم يكن الإرهابى الذى ينفث نارا، بل سلك مسلك رجل الدين.. لم يكن بن لادن مستعدا لإجابة أسئلة عن عائلته، أمواله، أو تاريخه الشخصى؛ كان يريد فقط ذيوع رسالته السياسية.

وفى ضوء الاهتمام المحدود نسبيا الذى تلقاه تقرير السى إن إن وقتئذ، فلم يحقق «ذيوع رسالته السياسية» سوى نجاح جزئيا. لم يكن بن لادن قد وصل إلى مكانه الشخصى الشهير سيئ السمعة، وكان من المفارقات المؤسفة أن رسالته لم تصل إلى جمهور عريض سوى من خلال الأعمال الإرهابية. كانت محاولته الثانية لترسيخ حضوره الإعلامى هو حوار التسعين دقيقة الذى بثته الجزيرة فى ديسمبر ١٩٩٨ فى أعقاب

تفجيرات سفارتى الولايات المتحدة بشرق إفريقيا، والذى كان أكثر نجاحا فى تحقيق هدفه. ومن منظور تحليلى، فإنه، وعلى حين أن سؤال ما إن كان بن لادن آنذاك كان حقا زعيم تنظيم إرهابى مازال تحيطه الشكوك، فمن الجلى أن تلك هى الصورة التى أراد أن يوصلها للصحفيين وللجماهير العريضة.

كانت المرحلة السابقة على ٩/١١ مهمة أيضا لأنها شهدت نقلة القاعدة الأيديولوجية من بؤرة إقليمية باتجاه بُعدٍ كوكبى. بيد أن تلك الفترة لافتة بخاصة بسبب توسيع القاعدة لأهدافها المشروعة. فى أغسطس ١٩٩٦. أصدر بن لادن فتوى بعنوان «إعلان الجهاد ضد الأمريكيين الذين يحتلون أرض الحرمين» والتى شرّعت الحرب الدفاعية (الجهاد) ضد الحكومة الأمريكية وضد جيش الولايات المتحدة بخاصة بسبب تواجدهم المستمر فى السعودية أو «احتلالهم» لها. عبر بن لادن عن هذا بجلاء فى الحوار الذى أجرته معه السى إن إن والذى ذكرناه سابقا حيث قال ما مفاده:

لقد ركزنا فى إعلاننا على الهجوم على جنود الولايات المتحدة بالسعودية.. وعلى الرغم من أن المدنيين الأمريكيين غير مستهدفين فى خطتنا، فعليهم أن يرحلوا. لا نستطيع ضمان سلامتهم.

وسّعت الفتوى أيضا إطار من يخاطبهم بن لادن حيث وجهها إلى المسلمين فى جميع أنحاء العالم بدلا من قصرها على الموجودين فى شبه الجزيرة العربية، واستدعت فيها معاناتهم على أيدى الأمريكيين بدءا من البلقان وحتى جنوب شرق آسيا. لدى هذا المنعطف، واصل بن لادن تركيزه على السعودية حيث وصف احتلال الأمريكيين لها بأنه أكبر كارثة

حلّت بالمسلمين منذ وفاة الرسول. رأى أن الوضع فى المملكة كان سيئا بدرجة أنها أصبحت تماثل بركانا ضخما على وشك أن ينفجر ويدمر الكفر والفساد. ومن أجل توضيح المقاومة المتصاعدة أشار تحديدا إلى التفجيرين اللذين وقعا بالسعودية فى عامى ١٩٩٥ و١٩٩٦. كان الأول سيارة مفخخة انفجرت بالرياض وقتلت خمسة أمريكيين، أما الثانى فكان تفجيراً فى مجمع أبراج الخبر لإسكان الأمريكيين حيث انفجر ١٥٠٠ كيلو جرام من الديناميت ونتج عنه مقتل ١٩ جنديا وإصابة حوالى ٥٠٠ شخص من عدة جنسيات. يصف بن لادن، فى تلك الفتوى، هذين التفجيرين بأنهما «إشارات تحذيرية» كان إضماره أن القاعدة مسئولة عن التفجيرين عملا دعائيا بارعا، وفى الواقع فإن محاولات القاعدة تصوير نفسها على أنها تنظيم فى سبيله للصعود قد أفاد من أن تلك الهجمات كانت كثيرا ما تنسب للقاعدة. مثلا، يفسر عطوان بيان بن لادن على أنه اعتراف ويقول إن بن لادن أكد بذلك على أن القاعدة كانت وراء تفجير القاعدة الأمريكية بأبراج الخبر عام ١٩٩٦. لكن بعد خمسة أعوام من الهجوم، ثم إلقاء القبض على خلية إرهابية سعودية واتهمت بالتفجيرات. وبأسلوب مماثل، أنكر بن لادن، فيما بعد، مسئوليته المباشرة عن هجمات الرياض التى عزاها إلى دوره كمحفز على الجهاد. وسواء كانت القاعدة مسئولة مباشرة أم لا، فقد كانت فكرة القاعدة كتنظيم خطير تقوى وتتدعم. وفى الواقع، فمازالت قدرة القاعدة على أن تزعم مسئوليتها عن العمليات الإرهابية، أو على أن تبدو وأنها المذنب الحقيقى، أسلوبا فاعلا بالنسبة للتنظيم يعلن به عن نفسه بين داعميه،

وأمام العالم أجمع.

وفقا لجميع التقارير، فقد شهد عام ١٩٩٨ تقدما على قدر كبير من الأهمية لمحاولات القاعدة لترسيخ نفسها كلاعب كوكبى. فى ٢٣ فبراير أعلنت الجبهة الإسلامية العالمية التى كانت قد تشكلت حديثا، «الجهاد ضد اليهود والصليبيين» ذلك الإعلان الذى اكتسب ذيوعا وأصبح يشار إليه بصفته «فتوى عام ١٩٩٨». وبالتقابل مع الفتاوى السابقة، حملت تلك الفتوى، بالإضافة إلى توقيع بن لادن، توقيعات: أيمن الظواهرى، قائد جماعة الجهاد الإسلامى المصرية، وأبو ياسر رفاعى أحمد طه، ممثلا عن الجماعة الإسلامية المصرية، ومير حمزة، الأمين العام لجمعية علماء باكستان (وهى حزب سياسى، يشكل جزءا من مجلس الأمل الإسلامى المتحد الذى فاز بالانتخابات التشريعية فى ٢٠ أكتوبر ٢٠٠٢)، وفلزور رحمن زعيم حركة الجهاد ببنجلاديش. ووفقا لعدد من المصادر، فإن الدعوة إلى الجهاد ضد اليهود والصليبيين كانت نتيجة إدماج قاعدة بن لادن مع جماعة الجهاد الإسلامى لأيمن الظواهرى. يعلن ريتشارد كلارك، الذى كان وقتئذ مستشار بيل كلينتون لشئون مكافحة الإرهاب:

فيما بزغ عام ١٩٩٨، تنامت قوة القاعدة بفضل اندماجها مع جماعة الجهاد الإسلامى المصرية.. فى فبراير ١٩٩٨، كانت جماعة الجهاد والقاعدة بين عدة جماعات أخرى هى التى أصدرت إعلانا للحرب ضد مصر، والولايات المتحدة وحكومات أخرى.

يذهب كلارك إلى أن هذا كان نتيجة للإجراءات والهجمات الصارمة على جماعة الجهاد المصرية والجهاديين المرتبطين بها بعد البشاعات، التى ارتكبوها والتى كان من بينها تفجيرات الأقصر عام ١٩٩٧ والتى

كانت لها مغبات ساحقة على السياحة بمصر. وعلى الرغم من أن الكثيرين ينسبون تدبير تلك الهجمات إلى الظواهرى إلا أن برجن يرى أن إدماج الجماعتين شهد امتداد تأثير بن لادن إلى زميله المصرى. وفى الواقع، فقد كان على الظواهرى التغلب على مقاومة داخلية من أعضاء جماعته للانضمام إلى القاعدة.

كثيرا ما ينظر إلى الظواهرى على أنه عقل القاعدة المدبر الحقيقى، الذى أمد بن لادن بالحجج السياسية/ الفقهية التى تشكل الأسس التحتية لهجمات التنظيم. وعلى الرغم من أن ثمة شيئا من الحقيقة فى هذا، فقد كان بن لادن هو من ركز اهتمام الظواهرى بعيدا عن «عدوه المصرى» القريب، وحوله إلى الهجوم على «العدو البعيد»، أى الولايات المتحدة.

يدعم رايت هذا الرأى، ويزعم أن بن لادن رأى أنه يجب أن يتوقف القتال بين مختلف الفصائل المصرية ومعه عملياتها غير المجدية. يقول أحد مساعدى الظواهرى «لقد سمعت بنفسى بن لادن يقول إن هدفنا الرئيسى يقتصر الآن على دولة واحدة، الولايات المتحدة، ويقتضى شن حرب عصابات على مصالح الولايات المتحدة، ليس فقط فى العالم العربى، بل فى جميع أنحاء العالم». لكن عطوان يناقض خط التفكير هذا ويؤكد أن الظواهرى هو من كان خلف استهداف الأمريكيين. كما يذكر أنه قال «فليصبح الأمريكيون وكلاءكم الإعلاميين؛ فإن لديهم أكبر آلة علاقات عامة فى العالم». بل إن عطوان يذهب إلى حد القول بأن بن لادن كان يعارض الاستهداف العشوائى للمصالح اليهودية والأمريكية، واقتضى الأمر العمل على إقناعه بالفكرة.

وعلى الرغم من اختلاف الآراء هذا حول الديناميات الداخلية، فإنه ثمة توافق عام على تغير التوجهات لدى القاعدة بعد اندماجها مع تنظيم الجهاد. كانت فتوى عام ١٩٩٦ معنية بشكل أساسي بالاحتلال غير المشروع للسعودية الذي كان يمثله التواجد غير القانوني للقوات الأمريكية وتدهور معايير الأحوال الاجتماعية/ السياسية داخل المملكة.

بيد أن فتوى ١٩٩٨ تتخطى ذلك لتركز على خطايا الولايات المتحدة، وتُدين سياساتها بالشرق الأوسط بصفتها أعمال حرب ضد الله ورسوله وأمة المسلمين. تؤكد تلك الفتوى بخاصة على توافق علماء المسلمين طوال التاريخ على أن الجهاد يصبح واجب كل مؤمن حينما يهاجم الأعداء بلدا مسلما، وتركز على العراق بصفتها كانت هدفا أساسيا لعدوان الأعداء. كما أنها تحذر بشكل محدد من إصرار الولايات المتحدة على تدمير العراق وإضعافه حيث جاء بتلك الفتوى ما معناه أنه:

منذ سبع سنوات ظلت الولايات المتحدة تحتل أكثر أجزاء أراضي المسلمين قدسية، وحولت قواعدها هناك إلى رأس حربة تقاتل بها الشعوب المسلمة المجاورة. ليس ثمة برهان أكثر وضوحا من عدوان أمريكا المفرط على شعب العراق.. فعلى الرغم من عدد وفيات العراقيين المروع – أكثر من مليون – فلم ترضهم فترة العقوبات الطويلة.. ليس ثمة برهان أفضل من هذا على عزمهم على تدمير العراق، وتدمير كل دول المنطقة وتحويلها إلى كيانات ورقية صغيرة يضمن ضعفها وشرذمتها بقاء إسرائيل.

إن كل تلك الجرائم والخطايا التى يرتكبها الأمريكيون إعلان واضح للحرب على الله ورسوله والمسلمين. وقد أجمع العلماء على مر التاريخ الإسلامى على أن الجهاد واجب يتحمله كل مسلم إذا دمر العدو بلاد المسلمين.

تنص الفتوى التى تلت أن من واجب كل فرد مؤمن أن يجاهد ضد

الأمريكيين - العسكريين منهم والمدنيين - حتى تتحرر أراضى الأمة. جاء فيها ما معناه:

إن قتل الأمريكيين وحلفائهم- المدنيين والعسكريين - هو فريضة على كل مسلم بإمكانه فعل ذلك فى أى بلد يمكن القيام فيها بهذا.. ندعو كل من يؤمن بالله ويريد مثوبته أن يذعن لإرادته بقتل الأمريكيين والاستيلاء على أموالهم حيثما يجدهم وحينما يجدهم.

يمثل محتوى فتوى ١٩٩٨ قفزة أيديولوجية وفقهية بعيدا عن بيانات أسامة بن لادن السابقة. ليس بالإمكان المبالغة فى مدى النقلة الاستراتيجية، من استهداف حكومة الولايات المتحدة وقواتها المسلحة بالسعودية باتجاه استخدام العنف ضد جميع مواطنى الولايات المتحدة، عسكريين ومدنيين معا والقول بأن هذا فريضة على كل مسلم. يرى سدچمان تلك الفتوى دعما للجهاد الكوكبى السلفى وتكملة للانتقال إلى استهداف العدو «البعيد» بالتقابل مع العدو «القريب». وهكذا، فإن ما بدا، وفقا لفتوى عام ١٩٩٦، قتالا ضد الوجود العسكرى الأمريكى بالسعودية واستهداف «القوات المحتلة» فقط، أصبح صراعا كوكبيا من و اجب كل مسلم الاضطلاع به ضد الأمريكيين فى جميع الأنحاء. وفقا لفتوى ١٩٩٨، تمت إضافة الأمريكيين المدنيين فى جميع البلدان، وليس فقط من يتواجد منهم فى مسرح أنشطة العسكريين الأمريكيين، وتحديدهم هم والقوات الأمريكية بصفتهم عدوا مشروعا، وأصبح العالم بأجمعه ميدان قتال، قد تشن عليه الحرب التى يقوم بها المؤمنون لتحرير الأمة. يصف تقرير لجنة ٩/١١ هذا التطور من حيث بنية القاعدة وتنظيمها:

من ثم، تبدو فتوى فبراير ١٩٩٨ وأنها كانت نوعا من إطلاق علنى لقاعدة مُحَدّثة أقوى، بعد عام ونصف العام من العمل. فبعد إعادة تشييد شبكة جمع الأموال، كان

بن لادن قد أصبح رجل حركة الجهاد الأخرى أو استعادها. كما أنه قوّى الروابط الداخلية في تنظيمه.

يمضى التقرير ليؤكد أن بن لادن كان محاطا بدائرة داخلية من الداعمين الموالين الذين أقسموا له على البيعة، لكن أيضا كان ثمة دائرة غير ثابتة من الداعمين له. يوصف قلب الجماعة الداخلى بأنه يتشكل من «مجموعة تراتبية تبدأ من القمة لهم مناصب ومهمات ورواتب محددة بوضوح. يذهب ميجاوكس إلى أنه، فى هذه الفترة، تم تعديل هيكل القاعدة من أجل تسهيل الهجمات على الولايات المتحدة، ويتوسع جوناراتنا حول هذه النقطة:

من أجل إحراز تقدم فى مشروع الإسلاميين، أعيد تنظيم القاعدة فى عام ١٩٩٨ فى كيانات أربعة متمايزة ومترابطة. كان الأول بنية هرمية من أجل تسهيل التوجيه الاستراتيجى والتكتيكى؛ وكان الثانى شبكة إرهابية كوكبية؛ والثالث قاعدة قوات لحرب العصابات داخل أفغانستان، والرابع ائتلاف عابر للجنسية من الجماعات الإرهابية وجماعات حرب العصابات.

وعلى الرغم من أن تلك المزاعم تظهر فى أعمال كل من ميجاوكس وجوناراتنا، إلا أن كليهما لا يمدنا بإحالات إلى المصادر التى يؤسسان عليها تلك المزاعم أو توضيحات لها، كما أن إعادة الهيكلة تلك لا يرد ذكرها فى الأماكن الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، يستشهد تقرير لجنة ٩/١١ بتفجيرات سفارتى الولايات المتحدة فى نيروبى ودار السلام عام ١٩٩٨ كدليل على تغير استراتيجية القاعدة ودورها، لأن التفجيرات نفذتها الجماعة وأعضاء أساسيون بها. يبدو سدچيمان وأنه يتفق مع تقرير لجنة ٩/١١ إلى الحد الأدنى الذى رأى به أن تفجير السفارتين كان تمهيدا لحملة فى أرجاء العالم ضد الولايات المتحدة. يعلق قائلاً «اقتضت تفجيرات شرق إفريقيا، والتى استهلت موجة من التفجيرات

والمؤامرات ضد أهداف غربية فى جميع أنحاء العالم، اقتضت كثيرا من التخطيط المركزى بواسطة العاملين الدائمين بالقاعدة» أما رايت، فيرى أنه وعلى الرغم من أن تلك الهجمات «حملت بصمات عمليات القاعدة المستقبلية» إلا أنها أيضا «أظهرت عدم خبرة القاعدة»: يزعم أن ثمة مشاكل أفسدتها الهجمات بما فى ذلك القبض على المنفذين.

بيد أن بيرك يعتبر أن هذا سوء فهم جوهرى للوضع، ويستشهد ببيل كلينتون ليؤكد أن شبكة بن لادن نفسه، لا القاعدة، هى من موّلت الهجمات. وبالتقابل، يوضح ريتشارد كلارك أن البحث عن القاعدة ومحاولة محاكمتها سبقت تفجيرات السفارتين فى عام ١٩٩٨، ويستشهد برئيس السى آى إيه الذى تذكُر التقارير أنه قال بلهجة يقينية «هذه العملية شديدة الوضوح يا سيدى الرئيس ليس ثمة شك فى أنها من عمليات القاعدة. لدينا نحن والإف بى آى قرائن وأدلة كثيرة». أما فى الصورة الأوسع، فيبدو أن كثيرا من النقاشات الخلافية حول تحميل القاعدة مسئولية عمليات إرهابية معينة، نتجت عن عدم وجود إجماع واضح حول «ما القاعدة» فى المقام الأول. فما يشير إليه بيرك على أنه «شبكة بن لادن» يناظر «القاعدة فى كتابات ريتشارد كلارك. وبالمجمل، فقد نسبت بوضوح تفجيرات شرق إفريقيا، وبأكثر من أية هجمات سابقة إلى «القاعدة» – على الرغم من أن هوية القاعدة المحددة لم تكن قد تقررت بوضوح. تلا تفجيرات السفارتين سلسلة من الأحداث الإرهابية التى تم ربطها بالقاعدة. بيد أنه، وكما يبين سدچمان فإنه «لمدة العامين التاليين، كانت العمليات لامركزية، وكان يخطط لها بقدر كبير من الاستقلال المحلى. كان تدخّل القاعدة، وبدلا من المشاركة المباشرة،

يتكون من تدريب الإرهابيين المحتملين». يستخدم سدچمان هجوم عام ١٩٩٩ على البارجة الأمريكية The Sullivans، والهجوم على المدمرة الأمريكية كول بميناء عدن عام ٢٠٠٠، وتفجير الكنائس باندونيسيا عشية كريسماس عام ٢٠٠٠، والتفجيرات التى استهدفت خمسة مواقع بمدينة مانيلا فى ٣٠ ديسمبر عام ٢٠٠٠، يستخدمها أمثلة على استراتيجية العمليات تلك. يستشهد برجن بحارس بن لادن الشخصى، أبوجندل الذى قال «تتبع القاعدة أسلوبا يدعو إلى لا مركزية القرار ولا مركزية التنفيذ. كان القرار يُتخذ مركزياً، لكن أسلوب الهجوم وتنفيذ العملية كان من واجبات القائد الميدانى». يدعم هذا استنتاجات سدچمان حول أسلوب عمل القاعدة وقتئذ. من ثم يبدو وأن الفترة بين عامى ١٩٩٨ و٢٠٠١، قد شهدت القاعدة وهى فى أوج التنظيم والقدرة، وبدت جيدة التمويل وأنها قد نشرت مداها إلى داخل عدد من الدول، كما بدا وأن بن لادن يمارس سلطة على الجهاد الكوكبى لا يرقى إليها الشك. يقول سدچمان «رسخت الهجمة على المدمرة كول وضع بن لادن على دفة الجهاد الإسلامى الكوكبى.. وحقا، فقد كان ثمة ظاهرة تماثل «عبادة» شخص بن لادن فى طريقها للتشكل».

شكلت كل تلك العمليات تمهيدا جيدا لأكثر هجمات القاعدة جسارة وفتكا حينما تم اختطاف أربع طائرات أمريكية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، اصطدمت اثنتان منها بالبرجين التوءم لمركز التجارة العالمى بنيويورك، والثالثة بالبنتاجون، فيما تحطمت الرابعة فى حقل بالقرب من شانكسفيل، پنسلفانيا بينما حاول الركاب التغلب على الإرهابيين. ذكر تقرير لجنة ٩/١١ تفاصيل تلك الهجمات وكيف أن أسامة بن لادن والقاعدة كانوا هم من خططوا لتلك العمليات وأشرفوا على أسلوب

تنفيذها. يذكر التقرير: «أن مؤامرة ٩/١١ توضح بما لا يدع مجالا للشك الدور المركزى المهم الذى يضطلع به بن لادن فى القاعدة. ففيما أن بن لادن لم يتدخل فى تفاصيل عملية ٩/١١، فقد كان هو قائدها الأساسى» وفيما يؤكد بيرك على استثنائية طبيعة بن لادن والعاملين معه بالقاعدة، إلا أنه يرى أن الحادث كان متوقعا بشكل أو آخر: «من حيث طموحها، وتعقيد تنفيذها وطبيعتها المذهلة، لم تكن هجمات ٩/١١ تمثل قطيعة جذرية مع التطورات والأنشطة السابقة، بقدر ما كانت محصلة نهائية لها». كان ريتشارد كلارك، بعد سنوات من مراقبة تطور القاعدة وتقدمها، قد حذر إدارة بوش المرتقبة من أخطارها، لكنه يذهب إلى أن تلك التحذيرات لم تؤخذ بجدية كافية وقتئذ. وسواء كانت هجمات ٩/١١ غير متوقعة بإطلاقه، أم كانت ذروة الأنشطة السابقة، فإن مدى العملية وما نجم عنها من تدمير وإراقة دماء حفرت حقيقة القاعدة – بأشكالها وهيئاتها المختلفة والمفترضة – فى عقول المشاهدين حول العالم. رأى البعض أن هذا كان من عمل تنظيم إرهابى كوكبى، جيد البنية، مُصمم على هزيمة الولايات المتحدة وحلفائها، فيما رآه آخرون نجاحا مشهديا مذهلا لم يكن متوقعا بشكل ما، لتحالف غير متبلور من أفراد متماثلى الفكر تربطهم قضية مشتركة.

إعادة النظر فى تحليل هيكل القاعدة:

على الرغم من أن هجمات ٩/١١ ظلت ترتبط غالبا بفكرة عن القاعدة كتنظيم إرهابى محكم فإن هذه الفكرة لا تصمد أمام التحليل الصارم. منذ بدايات القاعدة المبكرة بأفغانستان فى الثمانينيات وحتى الهجمات الصادمة فى عام ٢٠٠١، ظل التشكيل المحدد للمجموعة التى يعتقد أنها تمثل أحد أعظم التهديدات الأمنية على العالم الغربى غير واضح. وفيما

اخـتلفت دوافع المحللين واهتـمـامـاتهم وأجنداتهم- بدءا من الحـاجـة لترسيخ وجود تنظيم واضح المعالم من أجل الوفاء بالمتطلبات القانونية فى الولايات المتحدة لمحاكمة بن لادن غيابيا، وإلى مجرد الاعتقاد فى وجود شىء كبير جدا، هناك بالخارج، أو الشك فى ذلك، والخوف من وجوده، شىء ينبغى الكشف عنه - واجهت كلاً من هؤلاء المحللين المهمة الصعبة لتفسير تلك الظاهرة من خلال العثور على مصادر للأدلة والقرائن، مثل الشهود، أو الكتيبات، أو الخطابات وما شابه ذلك من مصادر توفر برهانا قاطعا ليس فقط على وجود القاعدة، بل أيضا على هويتها وطبيعتها. بيد أنه تبين أن تلك المهمة كانت تماثل محاولة الإمساك بقطعة من الصابون فى بانيو ملىء بالمياه: كان القادة ينزلقون باستمرار بعيدا عن أية محاولة للتصنيف الواضح غير الملتبس. لا يعنى هذا القول أن كل خطاب لهذه المحاولات ليس متسقا منطقيا ومقنعا بحد ذاته، على الرغم من أن الأدلة التى استندت إليها هذه الخطابات كانت واهية لدرجة عدم الإقناع أحيانا. الأحرى أن المشكلة تكمن فى تناقضها الذى ضاعفه استحالة ترسيخ صحة أى من تلك «البراهين» بدرجة يقينية. ومع الأخذ فى الاعتبار طبيعة الكيان ذاته، فلا يجوز أن يثير أى من هذا الدهشة: ليس على القاعدة أن تقدم البرهان على وجودها. ما على بن لادن وحلفائه سوى الإلحاح عن تنظيمهم ومداه، حتى يندفع الجمهور المترقِب فى سعيه الحثيث لهزيمة ما قد لا يكون له وجود فى المقام الأول. يضع هذا عبئا مضاعفا على المحللين: من الممكن العثور على مصادر تشير إلى وجود تنظيم متبلور مما يمنح المقتنعين بوجود تهديد شيئا ملموسا يستندون إليه دعما لمزاعمهم. بيد أنه من المستحيل تقديم البرهان على عدم وجود مصادر بنفس الأسلوب: يترك لهؤلاء غير

المقتنعين بنظرية التنظيم الهائل مهمة مساءلة موثوقية الأدلة التى يطرحها منظرو وجود «تنظيم». وكما يبين أندرياس بنك بحنكة، فإن «طبيعة القاعدة الشبحية» التى أنتجت كثيرا من النقاشات غير المجدية عن بنيتها المحددة (تنظيم، توكيلات وأفرع، شبكة، أيديولوجيا...إلخ) لا تقبل أى تثبيت وتراوغه». أى أنه، وببساطة، فإن القاعدة تحدى معرفى - مشكلة معرفة - قد لا تجد حلا أبدا.

وعلى الرغم من ذلك، ففيما قد يَرضى المنظرون بعامة بمناقشة نشوء القاعدة ولا يجدون أية صعوبة فى القبول بأن الحقيقة الواقعية عن طبيعتها قد لا تُعرَف، فإن مثل تلك التحليلات النقدية، على الرغم من صلتها بالموضوع، إلا أنها محكوم عليها أن تظل حبيسة أبراج الأكاديميا العاجية بواسطة سلطات صناع السياسة فى العالم. فليس بإمكان تلك التحليلات تزويد «صناع السياسة» بإجابات مباشرة - فى هذه الحالة، صور للعدو - ضرورية لتبرير شن حرب كوكبية. أثمة مساحة للتسوية - تقييم نقدى دقيق لبنية القاعدة يعترف بالشروط النظرية لكنه يوفر مفهوماً للعمل يمكن من خلال فهم الظاهرة - مساحة فى الوسط بين «التنظيم» ومجموعة عشوائية من اللاعبين تلهمهم أهداف أيديولوجية مشتركة لكن كل منهم يعمل بوحى من مرجعيته وسلطته المستقلة تماما؟ يقدم بيرك نقطة بدء مفيدة لمثل هذا النهج، حيث يذهب إلى أن القاعدة تتكون من عناصر ثلاثة متمايزة: أولا، «جوهر صلب» يتكون من بن لادن و«حوالى دستة من رفاقه الذين ظلوا معه منذ أواخر الثمانينيات»؛ ثانيا «شبكة من مجموعات مختارة» حول العالم مرتبطة بأسلوب ما بأعضاء المركز الصلب، والثالث، أيديولوجيا، فكرة الجهاد الكوكبى التى تربط عمليا أتباعا متباينين وغير مرتبطين سوى بتلك الأيديولوجيا، والذين كان

لهم أن يكتسبوا أهمية عظمى فى فترة ما بعد ٩/١١. تتيح تلك الفكرة المدمجة لبنيان القاعدة درجة من السيولة ترضى مطلب الدقة، فيما تترك مساحة للتهكن وعدم اليقين. مثلا، قد لا يكون تحليل بنية القيادة المركزية، وعضويتها المتغيرة، ومتناولها، وديناامياتها، قد لا تكون دقيقة تماما أبدا. وفى الواقع، فإنه، وبغض النظر عن المركز الذى يُعتبر أنه، وعلى نطاق واسع، قد تلقى ضربة خطيرة نتيجة الحرب على الإرهاب، فإن حتى هزيمته الكلية لا تعنى نهاية «القاعدة». تظل أيديولوجيتها - فكرة أن ثمة ما هو خطأ فى حال الأمة، وأنه ينبغى إصلاح هذا الخطأ بأية تكلفة، حتى بالأساليب العنيفة - تظل سليمة لم تمس وتستمر فى إلهام الأفراد المسلمين للاستجابة لدعوة الجهاد. وفى الواقع، فإن ثمة إجماعاً شاملاً على أن عالم ما بعد ٩/١١ قد أصبح أكثر راديكالية وتطرفا من أى وقت سابق - ويمكننا أن نضيف، أن من المفارقات أن ذلك هو نتيجة مباشرة، للحرب القائمة على الإرهاب. إن الحروب فى أفغانستان والعراق، وبشاعات أبوغريب، وبذلات جوانتنامو البرتقالية هى مجرد أمثلة سهلة الاستدعاء لأحداث وسلوكيات أضافت الوقود إلى لهيب العداء الإسلامى للغرب، وخدمت أهداف الإرهابيين الذين يجندون شباب المسلمين الذين حاقت بهم المظالم. وعلى الرغم من الإجراءات العنيفة القاسية - وربما بسببها - التى يجرى استخدامها لمنع «الإرهاب الإسلامى»، فإن المنطق الذى يلهم هذا الإرهاب قد أصبح أكثر إقناعا مما كان من قبل. يقول بيرك «إن لرسائل بن لادن معنى لدى الملايين» ويتنبأ أن الأفراد من بين هؤلاء الملايين هم من سينفذون الهجمات باسم الإسلام فى المستقبل. وعلى الرغم من أنهم «عاملون مستقلون» ليس لديهم رباط واضح مع المجموعة المركزية بالمعنى التقليدى، فمن المرجح

لهم أن يروا أنفسهم جزءا من خطة أو حركة أعظم تنقذ الأمة من القمع والظلم وتعيد الإسلام الحق. ولدى النظر إليها بهذا الأسلوب، فإن القاعدة توجد فى احتمالية – أو بدقة أكثر الخوف من تلك الاحتمالية – بأن شيئا هناك فى مكان ما سيضرب مرة أخرى.. إنها فكرة وجود تنظيم ما، شبكة، أفراد متماثلى التفكير، هى التى ترعى حركة الجهاد الكوكبى من خلال صياغة الأفكار والدعاية وأيضا الدعم الفيزيقى حيثما يمكن ذلك. إن القاعدة تجد تجسيدها الفيزيقى من خلال تلك العمليات الفردية، أو محاولة شن الهجمات أو مجرد التهديد بمثل تلك الهجمات وما يتبع ذلك من إجراءات أمنية مشددة ومناخ دائم للخوف من الإرهاب – تجسيد أصبح واقعا يوميا بالنسبة لمئات الملايين من البشر طوال العقد الأخير.

بيد أنه، وقبل تفحص حالة القاعدة فى عالم ما بعد ٩/١١، فإنه من الطبيعى أن تكون الخطوة التالية هى تفحص الفكرة ذاتها. ما الأسس الأيديولوجية للجهاد الكوكبى التى ألهمت أكثر العمليات الإرهابية تدميرا والتى سبق وأن ارتكبت؟ ما المنطق الذى يفسر مثل هذا العنف العشوائى باسم الله ودفاعا عن الإسلام ذاته؟ ما أصوله، وعلى ماذا يؤسس مرجعيته؟

الفصل الثالث

منافقون، وهابيون، وجهاديون سلفيون
تفسيرات أيديولوجيا القاعدة بعد ٩/١١

«ليس ثمة أيديولوچيا تدفع عمليات القاعدة»

– استنتاج لفريق استخبارات البنتاجون

واشنطون تايمز، ٥ يونيو ٢٠٠٣

«تُحرّف القاعدة النص القرآنى وتسىء تمثيله وتفسيره»

– روهان جوناراتنا، «داخل القاعدة»

«يمكن تقصى أيديولوچيا القاعدة إلى أصول المذهب الوهابى»

– ستيفن شوارتز «وجها الإسلام»

«إن الجهاد السلفى الكوكبى حركة دينية إحيائية تعم العالم بأكمله تهدف إلى إعادة ترسيخ مجد المسلمين القديم فى دولة إسلامية تمتد من المغرب وحتى الفلبين، وتمحو الحدود القومية الحالية. القاعدة هى طليعة هذه الحركة. تحدد الأيديولوجيا السلفية رسالة القاعدة، وتقرر غاياتها، وتُرشِد تكتيكاتها».

– مارك سدچمان «فهم شبكات الإرهاب»

«من المستعدون لفعل مثل هذه الأشياء؟ – ولِم؟»؛ «لِم يُكنُّون كل هذه الكراهية للولايات المتحدة ولأسلوب الحياة الغربى؟»؛ «لِم كانوا مستعدين للانتحار لتنفيذ أهدافهم؟». منذ ١١ سبتمبر، لم يخضع سوى عدد قليل من القضايا للجدل المُلحّ والشائع بمثل ما خضعت له الحاجة إلى تفسير أعمال العنف وإراقة الدماء على مدى هائل والتى حدثت باسم الإسلام فى السنوات الأخيرة. طفا على السطح العديد من التفسيرات. شملت تلك التفسيرات مقترحات بأن العمليات الإرهابية غير عقلانية وقد تكون نتيجة خلل عقلى؛ وأن الخطاب الدينى ليس سوى حجاب يُخفى طموحات سياسية؛ أو أن التفسير يكمن فى نظريات عن التطرف الإسلامى. وفيما كان الاستنتاج الذى توصل إليه فريق استخبارات البنتاجون هو أنه

«ليس ثمة أيديولوجيا تدفع عمليات القاعدة»؛ ذهب ستيفن شوارتز إلى أن «أسامة بن لادن وأتباعه ينتمون إلى فصيل إسلامى متشدد يُعرف بالوهابيين، وهو طائفة فاشية إسلامية متطرفة تُحكَم السعودية رسمياً وفق تعاليمها». بيد أن آخرين يفضلون رؤية القاعدة بصفتها مجموعة من المنافقين الفاشيين - تجسيدات للشر الخالص. يعبر روهان جوناراتنا عن هذه النظرية بقوله «تحرّف القاعدة النص القرآنى وتسىء تفسيره وتمثيله بهدف تأجيج مشاعر داعميها وإثارتهم». يبدو أن ثمة إجماعاً ظهر مؤخراً على أن القاعدة هى طليعة الجهاد السلفى الكوكبى وهو حركة إحيائية دينية تعم العالم غايتها استعادة مجد الإسلام فى دولة إسلامية عظمى. وفى الواقع، يبدو وأن فكرة الجهاد السلفى قد غدت

جزءاً من المفردات السائدة بدرجة أنها تظهر الآن بانتظام فى المقالات الصحفية، والتقارير الاستخباراتية والبرامج الحوارية التليفزيونية التى تناقش أسس القاعدة الأيديولوجية. يخلق استخدام هذا المصطلح انطباعا بأن جهودا جمة قد بُذلت من أجل تحليل التأثيرات التاريخية والدينية والفلسفية التى تمثل جوهر تفكير القاعدة وفهمها. بدون شك فإن السهولة التى يمكن بها وصف القاعدة بهذا الأسلوب تضفى على ذلك التصنيف قبولا وجاذبية بعامة: يستطيع الإعلام والسلطات السياسية الإفادة من ذلك الاستخدام الذى يعمل على إراحة عامة الناس. بيد أنه، فإن حقيقة وجود تعريف لأيديولوجيا القاعدة، فى الوقت الذى مازالت فيه طبيعتها كتنظيم تراوغ التصنيف، تثير القلق. هل من الممكن أن يكون الجهاد السلفى، مثل القاعدة، هو مجرد مُسمّى يفتقد الجوهر أو أنه ليس له سوى قليل من العلاقة بالواقع؟ هل تطرح أية من محاولات تعريف القاعدة تفسيرا شاملا وموثوقا لمنطق الجهاد الكوكبى الذى يدعو إليه أسامة بن لادن ولجاذبيته؟

تفسير أيديولوجية القاعدة فى ظل «الحرب على الإرهاب»:

من المفيد، ومن أجل الحصول على إجابات ذات معنى عن هذه الأسئلة، استدعاء حال المعلومات حول القاعدة قبل ١١ سبتمبر، وعملية توليد المعلومات السريعة التى تلت. فعلاوة على ندرة المعلومات، بشكل كلى، حول منطق المهاجمين، فقد كان السياق السياسى هو ما شكّل التفسيرات والاستراتيجيات التى أعقبت الهجمات. لم تكد البشاعات التى حلت بنيويورك تتكشف، حتى تحركت الولايات المتحدة لتُعلن «حربا على

الإرهاب» مفتوحة النهاية. مما لا شك فيه أن هذا كان استجابة تلقائية غير محسوبة أصبحت فيما بعد حملة كوكبية عسكرية، سياسية، قانونية وأيديولوجية ضد أشخاص وتنظيمات وُصِفت بأنها إرهابية، وأيضا ضد أنظمة اتُهِمت بدعْمها، أو بدت وأنها تمثل تهديدا للولايات المتحدة وحلفائها. وسرعان ما بدأ رئيس الولايات المتحدة چورچ دبليو. بوش، فى سياق هذا التعريف الفضفاض للعدو، يتحدث عن «عالم إرهابى تحتى» شمل مجموعات مثل حماس، وحزب الله والجهاد الإسلامى، وجيش محمد «عالم يعمل فى غابات وصحراوات قصية ويختبئ فى مراكز المدن» وتساعده بعض الأنظمة مثل كوريا الشمالية والعراق وأنظمة تسعى إلى تصدير الإرهاب وتهديد أمريكا. قال: «إن الدول من أمثال هؤلاء، وحلفائها الإرهابيين، يشكلون محورا للشر، هدفه تهديد السلام العالمى». سرعان ما أصبحت الأهداف المحتملة لـ «الحرب على الإرهاب» تشمل تنويعة عريضة من التنظيمات والشخصيات الإسلامية، وكذلك أنظمة جد مختلفة من حيث هياكلها الأيديولوجية، وأهدافها السياسية، جمع بينها جميعها حقيقة أن بالإمكان اتهامها، بقدر من المعقولية، بأن لها روابط مع القاعدة، أو لأن هذا الاتهام كان يتواءم مع الدعوة للحرب على الإرهاب. وعلى الرغم من أنه ما يثير الدهشة للوهلة الأولى أن حكومة الولايات المتحدة، وما تملكه من موارد استخباراتية، قد جمعت فى سلة واحدة بين القاعدة ومجموعات أخرى متباينة مثل حماس، ومدارس قم الفقهية، ومدارس ديو باندى الإسلامية بشمال باكستان والتى تعلّم فيها أعضاء طالبان، وتربط بينها وبين أنظمة حزب البعث القومية العربية

العلمانية، فإن هذا لا يبدو مستغربا فى لحظتنا الراهنة. فعلى خلفية مناخ سياسى كلّى تم فيه تقسيم العالم إلى «خير» و«شر»، افترضت حكومة الولايات المتحدة، وجود أجندة إسلامية تحتية، وركزت على التماثلات السطحية بين تلك المجموعات، مثل الهجمات الانتحارية، وعمليات اختطاف الطائرات، المتعلقة بأسلوب ما بالشرق الأوسط. كان ذلك، بمعنى ما، يرقى إلى خلق تنميطات استشراقية جديدة، نوع من الاستشراق يرى الشرق الأوسط والإسلام يتمثلان فى مفجرين انتحاريين ملتحين وُلدوا وتربوا فى مهدٍ جغرافى معادٍ لأمريكا، بعد أن كانا يتمثلان فى الحريم والحجاب والنقاب كعهد الاستشراق القديم. خضع شكل الاستشراق الجديد هذا للنقد القاسى من جانب الأكاديميين الذين يشيرون إليه بصفته «خطاب إرهاب الاستشراق الجديد»، حيث يتخذون مرجعاً لهم الراحل إدوارد سعيد الذى شجبت أعماله نظرة الغرب إلى عالم المشرق بصفتها مؤسسة على مُدركات مسبقة وفهم محدود للثقافة المشرقية والإسلامية. هذا الاستشراق الجديد متجذر بعمق فى الأفكار الاستشراقية الكلاسيكية عن «العمل العربى» و«طبيعة الإسلام»، مما مكن من تشكيل نموذج «آخر عربىٍّ إسلامى إرهابى»- يتماشى مع نظرية هنتنجتون عن صراع الحضارات، آخر يسعى إلى القضاء على الثقافة والقيم الغربية. عرَّف داج تواستاد الرواية الاستشراقية الجديدة بصفتها آلة لـ «القوة الرمزية» تُبقى على مصالح الكلونيالية الجديدة من خلال «تمثيلات للعنف السياسى وتُغفِل المصالح السياسية والاقتصادية والسياقات.. وتقدم العنف على أنه ناجم عن

خصائص متأصلة فى الثقافات المحلية». وفى هذا النموذج المانوى [الذى يقسم العالم إلى خير وشر] لا تختلف القاعدة، جوهرياً، عن حماس أو حزب الله، أو منظمة الجهاد الإسلامى، أو جبهة مورو الإسلامية للتحرير: كلها، أولا وقبل كل شىء، أعداء للولايات المتحدة وللعالم الغربى المتحضر.

يمكن العثور على أمثلة دالة بخاصة على هذه النظرة - أمثلة كثيرة منها مُهين لواضعيها وأيضا لمنتجيها - فى المحاولات النفسية التى تصور الإرهابيين على أنهم «مهاويس مجانين» تحفزهم عِلَلٌ عقلية، أشخاص محرومون من أى منطق عقلانى متعلق بالأوضاع الاجتماعية أو السياسية أو الدينية. للوهلة الأولى، قد يبدو تفسير الإرهاب بصفته نتيجة لأمراض عقلية ونفسية وأنه يوفر تفسيرا فوريا عِلْمياً مقبولا فى وقت يتزايد الطلب فيه على الإجابات المباشرة. المنطق بسيط: ليس لدى الأصحاء الطبيعيين حافز لقتل أعداد كبيرة من البشر الآخرين، أما المصابون بأمراض عقلية حادة، فأحيانا يكون لديهم هذا النزوع. بيد أنه، ومن ناحية أخرى، فإن «المجانين» لا يصلحون عادة لقيادة عمليات تقنية معقدة، أو لتوصيل رسائلهم للآخرين- المرجح أن الأمراض العقلية الحادة تحرم الأفراد من القدرات التى لابد وأن يحتاجونها ليصبحوا إرهابيين ناجحين. بيد أنه قد وُجد أن مفهوم «الإرهابيين» المجانين، يوفر إجابات سهلة من خلال وصفه لسلوك أفراد مختارين، بل الأخطر هو أنه يمد المعنيين بتشخيص يمكن من خلاله التمييز ضد مجتمع بأكمله، ويستحضر فى الأذهان صورة «لثقافة محلية مريضة وبحاجة إلى الطب

والعقاقير الغربية». من بين الدعاة لهذه النظرية چوان لاتشكار التى انتهت إلى أن المفجرين الانتحاريين يعانون من اضطرابات بينية فى الشخصية تتسبب فيها «أساليب تنشئة الأطفال الإسلامية». وهكذا، يتحول الإرهاب على أيدى الإسلاميين إلى مرحلة نهائية من علّة عامة يعانى منها المسلمون - مع وجود القاعدة كتطور خبيث بائس لهذه الحالة.

بيد أنه يصبح من الواضح للمراقب الناقد أن التنميط والتبسيط المفرط المتأصلين فى فكرة أن السلوك المتطرف أو العصابى المرضى [الذى يتمثل فى الأعمال الإرهابية] مرتبط بطبيعة الثقافة العربية يطمسان عمليات التنوع الاجتماعى والسياسى والدينى الذى يجب أخذه فى الحسبان فى أى تحليل عبر ثقافى، علاوة على أن تلك الفكرة تكمل الزعم بأنه ثمة مُثل منحرفة ترتبط ببقع جغرافية بعينها. فطالما كان الغبار مازال يملأ الأجواء فى منطقة الحدث، كان بالإمكان تسويغ فشل المجتمع الدولى فى استيعاب تعقيدات الوضع بالكامل، وهنا تحضرنا مقولة برنارد لويس الأنيقة أن التعاملات بين / الحضارية ظلت دائما صعبة. بيد أن الاستمرار فى النظر إلى ديناميات منطقة بأكملها ومشاكلها وتطلعاتها من خلال إطار الصدام بين الإسلام والغرب يعنى أن يظل شُغلنا الشاغل هو «كشف الحساب» الذى لا يخبرنا سوى بجزء من القصة فى أفضل الأحوال. فطالما ظلت رواية المستشرقين الجُدد معزولة عن كل الملابسات المحلية وعن كل ما هو محدد غدا بإمكانها الصمود والبقاء. لكن مزاعمها بوجود عدو إسلامى إرهابى متجانس

تنهار لدى مقارنة طبيعة القاعدة وأهدافها بطبيعة وأهداف الجماعات الأصولية الأخرى. وبالتقابل مع الصراعات الإقليمية ضد عدو محدد التى تشكل الأسس التحتية لحركات الرفض الفلسطينية مثلا، فإن مهمة القاعدة عبر/ دولية أولا وقبل كل شىء، غير محدودة بسياق دولة قومية معنية، أو مدفوعة باحتياجات شعوب بعينها وتطلعاتها . وفى هذا الصدد، يقول أوليفية روى إن أتباع القاعدة «لا يبالون بجنسياتهم.. بل إن لدى بعضهم عدة جنسيات.. وجميعهم يُعرّفون أنفسهم بصفتهم مسلمين دوليين ولا يربطون بين نزعاتهم القتالية وقضايا قومية معينة». بتعبير آخر، فإنهم ملتزمون بقضايا المسلمين جميعها، ولا يهدفون لأقل من إنهاء جميع ما يعانيه المسلمون على أيدى العدو المطلق للإسلام: الولايات المتحدة وحلفائها، أو كما يشيرون إليهم، الحلف الصليبى الصهيونى. من ثم، يمكن القول إن كلا الطرفين يقومان بعملية التنميط ذاتها.

تذهب بعض التفسيرات الأخرى لأيديولوجيا القاعدة إلى وصف أعضائها، دونما تمييز، بأنهم مجرمون، منافقون، أو لاعبون سياسيون يستخدمون الدين، بخبث، للتلاعب بأحاسيس الآخرين من أجل الوصول إلى أهداف سياسية، لا دينية. يخلُصُ روهان جوناراتنا، الذى يذهب إلى أن بن لادن يستدعى الرموز والخطابات الإسلامية عن عمد لخلق صورة لمرجعية دينية، يخلص إلى أن القاعدة، تُحرّف النص القرآنى وتسىء تفسيره وتمثيله بهدف تأجيج مشاعر داعميها وإثارتهم. نجم عن نشر كتاب جوناراتنا «داخل القاعدة» والذى يعتبر ضمن الأعمال الأولى

الموسعة عن القاعدة بعد ٩/١١، قبول شائع لهذه النظرة إلى بن لادن وأتباعه بصفتهم لاعبين سياسيين لا يتعدى التزامهم الظاهرى بالإسلام كونه، واقعيا، أداة دعائية ماهرة لحشد الدعم الشعبى وتشريع الإرهاب فى مسعى لتحقيق أهداف سياسية محضة. بيد أنه، بإمكاننا أن نبيِّن هنا، أن استدعاء المشاعر الدينية ليس مقصورا، بأية حال، على أسامة بن لادن، بل هو ملمح مشترك للسياسيين الإسلاميين فى التنافس القائم على المشروعية الدينية والسياسية كما أن إحدى النقاط التى يتم التغاضى عنها - والتى سيتم التعاطى معها بمزيد من التفاصيل فى الفصل التالى - هى أن بن لادن وأتباعه يرون أنفسهم مؤمنين خالصين ولا يرون أى تعارض بين مبادئهم الدينية وأفعالهم السياسية.

وعلى حين يصور بعض المحللين الآخرين الإرهابيين الإسلاميين على أنهم منافقون يتحدثون لغة الإسلام ويلجأون إلى القنابل لإثبات نظرياتهم ينكر آخرون وجود أى فكر أيديولوجى. انتهى تقرير استخباراتى للبنتاجون فى عام ٢٠٠٣ إلى أن القاعدة لا تتبنى آراء بعينها وأنها على استعداد للتعاون «عبر الخطوط الأيديولوجية والسياسية». ومن الواضح أن هذا المنطق يتواءم مع فرضية «الرجال المجانين المهاويس»، كما أنه مضلّل مثلها، لأن كليهما يضمران نفس الحل: القبض على تلك الفئة الضالة أو تدميرها، وبذلك تنتهى المشكلة. بيد أن عدم تحقيق نجاح نهائى فى «الحرب على الإرهاب» هو دلالة على أن نموذجها التفسيرى هذا يفتقد الدقة، حيث إنه يبدو من المرجح أن منفذى هجمات ٩/١١ الذين ذهبوا إلى الموت باختيارهم كان لديهم حوافز أعظم لفعل ذلك

بأكثر مما لدى الفاعلين السياسيين العقلانيين بعامة. وفى الواقع، فإن أية نظرة عابرة على الأبحاث الأنثروبولوجية سرعان ما تكشف عن أن الأصوليين الدينيين فى أنحاء العالم، بمن فيهم أتباع القاعدة، يعتبرون أنهم ينتمون إلى جماعة من المؤمنين الخالصين، دقيقة التحديد، تلهمهم إرادة الله، ويستحقون مثوبته لطاعتهم إياه.

باتجاه تفسير «إسلامى للقاعدة»: الجدل الوهابى

يذهب ستيفن شوارتز، وهو يقر بوجود مصدر للمعنى أعظم من «هذه الدوافع الدنيوية» لتفسير أيديولوجية القاعدة، يذهب إلى أن أسامة بن لادن وأتباعه ينتمون إلى طائفة إسلامية متشددة تعرف بالوهابيين، طائفة فاشية/ إسلامية متطرفة متعصبة، يُزعم أن الدولة السعودية تُحكم وفقا لمبادئها. تُنمّط هذه النظرة المذهب الوهابى بصفته مدرسة فكرية متطرفة، تضمر الأخطار، وتشكل كيانا واحدا ثابتا. سرعان ما تُدعم تلك الفرضية من خلال أى بحث استهلالى عن مصطلح «الوهابية» على الشبكة الإلكترونية والذى يولّد آلافا من الروابط لمواقع معادية للوهابية بشكل رئيسى. بيد أن دائرة معارف الإسلام - والتى تمثل مرجعية فى الموضوع أكثر موثوقية بكثير - تشير إلى أن مصطلح «الوهابية» فى واقع الأمر، تعبير يتبناه أناس من خارج الجماعة ويطلقونه على حركة دينية أسسها العالم محمد بن عبدالوهاب فى القرن الثامن عشر. وفقا للموسوعة، ينظر أتباع الحركة إلى أنفسهم بصفتهم من أهل السنة الذين يتبعون فقه ابن تيمية ويتبنون توجها حَرْفيًا متشددا ينظرون من خلاله إلى القرآن بصفته المصدر الأول للمشروعية. والمشروع الوهابى بسيط:

تخليص الإسلام من جميع البدع التى لحقت به بعد قرنه الثالث. تؤكد الموسوعة أيضا على أن الوهابيين شنوا حملات لا هوادة فيها ضد المتصوفين والشيعة، ووصفوا من يتبنون آراء مختلفة بالهراطقة والمرتدين، وأحلوا، عملياً، استخدام العنف ضدهم.

يعتبر استخدام العنف المصدّق عليه ضد المسلمين الآخرين بؤرة هؤلاء الذين يربطون بين الوهابية والقاعدة. بيد أن هذه المقاربة تبدو على شيء من قصر النظر حيث إنها تتجاهل الخلافات الجوهرية بين الأيديولوچيتين، وأيضا التطور المعقد للمذهب الوهابى طوال القرون التى تلت نشأته. على أحد المستويات الأساسية، فمن المشكوك فيه أن محمد بن عبدالوهاب، الذى أدت به معتقداته الجامدة عن التوحيد إلى التأكيد على أن «الغالبية الساحقة من المسلمين قد دهمتهم حالة من الجهل الدينى لا تختلف عن العصور الجاهلية»، أنه كان سيعتنق خطاب بن لادن المتسامح نسبيا الذى يدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية ويسعى إلى خلاصها جميعها من أشكال القمع الأجنبى بغض النظر عن الاختلافات المذهبية الموجودة بين أجزائها.

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من إرث حملات الوهابيين التى استخدموا فيها العنف ضد جميع من لم يشاركهم آراءهم، فقد تطورت الوهابية منذ بداياتها التقليدية الأصولية وطوال القرن العشرين، وأصبحت معاييرها على درجة من الاعتدال. ففيما أن تقاليد العنف التى تبناها محمد بن عبدالوهاب قد تكون قد ألهمت أسامة بن لادن وغيره من الأصوليين الإسلاميين، فإنه من الصحيح أيضا أن المشايخ الوهابيين

بالسعودية قد بينوا، بما لا يدع مجالا للشك، أن التفجيرات الانتحارية حرام وغير إسلامية. تثير هذه الملاحظات، وعلى الرغم من إيجازها، سؤالا مهما: ما مدى ما يعرفه حقا هؤلاء الذين يزعمون أن الفكر الوهابى هو جوهر رؤية القاعدة، عن أصول هذا الفكر وتطوره اللاحق؛ مدى دقة قراءتنا لتاريخ الإسلام؟

من المفيد، لأجل توضيح هذه النقطة، العودة إلى الجدل الدائر حول تأثير ابن تيمية الذى يقال إن تأويلاته المتشددة للإسلام ألهمت، ليس فقط ابن عبدالوهاب، بل أيضا الأصوليين المسلمين المعاصرين، بمن فيهم أسامة بن لادن. كثيرة هى الأطروحات التى ترى هذا: تُلقى ناتانا دلونج - باس اللوم على ابن تيمية لأنه تبنى تقسيم العالم إلى منطقتين حصريتين تبادلياً - دار الإسلام، ودار الكفر، واللتين رأى أنهما تحددان مكانة المسلمين والكفار والعلاقة العدائية بينهما. أما برنارد هايكل فيرى أن «أهمية ابن تيمية تكمن فى استعداده لاتهام المسلمين الآخرين الذين لا يشاركونه آراءه بالهرطقة، والأهم من ذلك أنه أحلَّ شن الحرب ضد الحكام المسلمين الذين لا يطبقون الشريعة». ويذهب مناحم ميلسون خطوة أبعد ليقول إنه «وفقا لابن تيمية فإنه ليس ثمة فرق بين الحاكم المسلم الذى يرتكب العظائم أو يطبق القوانين الأجنبية وبين المرتد، ومن الواجب قتله. من ثم فإن شن الحروب ضد مثل هؤلاء الحكام واجب دينى». واتباعا منه لنفس المنطق سينتهى جاى سورمان إلى أن ابن تيمية «بدأ ثورة فقهية سياسية: ليس ثمة حركة إسلامية أصولية لا تحيل إليه أو لا تستند إلى آرائه».

وبالتقابل مع ما يبدو وأنه قد أصبح معرفة شعبية عن أصول الوهابية، يقدم يحيى ميتشوت منظورا أكثر توازنا فى قراءاته الدقيقة التجردية لفتوى ابن تيمية عن المرتدين التى ينبثق عنها هذا الجدل، ويقارنها بعد ذلك بالأساليب التى فسرها بها عبدالوهاب فرج والشيخ عبدالله يوسف عزام، بين آخرين. وفى الواقع، فإن تحليل متشوت مفيد أيضا من حيث إنه يذكرنا أنه ينبغى إخضاع قراءة ابن تيمية اليوم للمباحث المعرفية والنظر إليها فى السياق التاريخى الذى وُظِفت فيه. وبمحاولته هذه يقدم لنا ميتشوت صورة نابضة لعالِم كان أبعد ما يكون عن ذاك المتطرف الأعظم وفق ما يراه كثير من المحللين والمعلقين. علاوة على ذلك، يصبح من الواضح لنا، فيما يمضى ميتشوت فى تحليله للفتوى، أن الكتّاب المعاصرين «يرتكبون (على الأقل) أخطاء قائمة على المفارقة التاريخية، إذ إنهم يُضْفون على المفردات التى استخدمها ابن تيمية دلالات معاصرة، أو بمزيد من التحديد، يربطون بين قراءتهم لابن تيمية والأحوال المعاصرة».

إذا أخذنا فى الاعتبار إمكانية ألا يكون ابن تيمية هو أصل الفكر الراديكالى الإسلامى المتطرف، فالسؤال الذى يلى ذلك مباشرة هو: متى بدأ ومع من؟ بالطبع، فإن المتهم الأكثر وضوحا هو محمد بن عبدالوهاب.

بيد أنه، ومرة أخرى، فإنه يبدو مع التفحص الثاقب، أنه، وعلى الرغم من أعمال هنرى لاوست، وتوماس ميتشل، وبشير نافع، فإن البحث التاريخى المنهجى فى تطور الفكر الإسلامى خلال القرون التى سبقت

ظهور عبدالوهاب، والتقدم الذى أحرزه منذ وقتئذ، مازال مهمة لم تنجز. وبعد أن أدلى كل بدلوه، فإن الإجابة عما إن كانت أيديولوجية القاعدة تستمد أصولها من فكر إسلامى متشدد يُعرِف بالوهابية لا ترقى سوى إلى مصاف الاحتمالات. بيد أنه، وفى خضم تطور الجدل حول أيديولوجية القاعدة، سرعان ما أصبحت نظرية الوهابية جزءا من نظرية غدت أكثر شيوعا.

القاعدة: «طليعة الجهاد السلفى الكوكبى»

على هذه الخلفية، ظهر فى النهاية إجماع داخل مجال دراسات الإرهاب على أن القاعدة هى طليعة الجهاد السلفى الكوكبى. يُستخدم هذا المصطلح على نطاق واسع لوصف أيديولوجيا القاعدة، ويترك الانطباع بأنه يمثل مدرسة فكرية لا لبس فيها داخل نطاق الموروث الإسلامى وفيما أن المصطلح يستخدم كثيرا للإشارة إلى طبيعة أيديولوجية القاعدة؛ فإن ما يعنيه بالفعل غير واضح، بخلاف الإيحاء بمفهوم مبهم بأن تلك الأيديولوجيا متشددة بخاصة، ومن ثم تصبح تلك التسمية مجرد حاشية لمفاهيم لم يتم بعد تفحصها بما يكفى، أكثر من كونها تسمية متمايزة لظاهرة تم تحديدها بوضوح وموثوقية. وعلى الرغم من أنه من الصعب تحديد الموقع الذى استُخدِم فيه المصطلح للمرة الأولى، فإن كتاب مارك سدچمان «فهم شبكات الإرهاب» مصدر يستشهد به كثيرا ويُزعم أنه يقدم نظرة ثاقبة عن الجهاد السلفى. يرى سدچمان أن القاعدة:

حركة دينية إحيائية تشمل العالم بأكمله هدفها استعادة مجد الإسلام فى دولة إسلامية عظمى تمتد من المغرب إلى الفلبين، وتمحو الحدود القومية الحالية. تدعو إلى

السلفية، أو استعادة الإسلام الحق، وتتبنى استراتيجية الجهاد العنيف الذى ينجم عنه انفجار للإرهاب يمحو ما تعتبره هرطقات محلية. أما النسخة الكوكبية من هذه الحركة فتتبنى الدعوة إلى هزيمة القوى الغربية التى تحول دون إقامة الدولة الإسلامية الحقة.

يمضى سدچمان، ومن أجل مزيد من التأكيد على التهديد، إلى القول بأن الغرب أصبح يواجه حركة واسعة النطاق «تضم مجموعات إرهابية كثيرة أخرى تتعاون فى عملياتها وتتقاسم قاعدة بيانات ضخمة». بيد أن سدچمان لا يذكر لنا أسماء تلك التنظيمات الإرهابية الأخرى كما أنه لا يذكر أية تفاصيل عن المصادر التى حصل منها على معلوماته. أيضا، فإن بقية تفحصه لـ «أصول الجهاد السلفى» لا يمدنا بأية بصيرة أخرى ذات قيمة أو يتضمن تعريف عمل للظاهرة «السلفية». يزعم سدچمان أن محمد بن عبدالوهاب الذى «أسس الكثير من تأويلاته للقرآن على فتاوى ابن تيمية» كان له تأثير حاسم فى تطور الفكر الإسلامى المتطرف الذى تقوم عليه أيديولوجيا القاعدة. ولسوء الحظ، فإنه لا يورد إشارات إلى فتاوى بعينها كى يوضح ما يقوله. بيد أن ما يلى ذلك من وصف للملابسات التى أحاطت بتلك الواقعة [أى إصدار تلك الفتاوى] والإشارة إلى «أكثر الفترات اضطرابا فى التاريخ الإسلامى – غزو المغول لأراضى المسلمين حينما سئل ابن تيمية عما إن كان من الجائز إعلان المسلمين الجهاد على غيرهم من المسلمين» يدفعنا إلى القول إن سدچمان كان يشير إلى فتوى المرتدين التى أشرنا إليها سابقا، حيث رأى ابن تيمية أن «المغول لم يكونوا مسلمين حقا... بل مرتدين ينبغى عقابهم بالموت وفقا للشريعة وأنه من الصواب أن يعلن المسلمون الجهاد ضدهم، بل من واجبهم أن يفعلوا ذلك»، وفى واقع الأمر فإن هذا يتماشى مع آراء

العلماء المعاصرين الآخرين الذين ذكرناهم آنفا. بيد أنه يظل ثمة سؤال محيّر: هل تصبح مقولة ما حقيقةً واقعة لأنها قد تكررت كثيرا؟ لكن الأهم من ذلك هى الخلاصة التى يصل إليها المرء بعد القراءة المتمعنة للفصل الأول من كتاب سدچمان: تظل فكرة «الجهاد السلفى الكوكبى» – والتى يبدو وأنها أصبحت بالنسبة للكثيرين الحقيقة الجديدة لأيديولوجيا القاعدة – تظل مبهمة فى أفضل الأحوال.

يلقى تفحص كتاب ويكتوروويتز «تشريح الحركة السلفية» قدرا من الضوء على هذه القضية، حيث يقول المؤلف «تمثل الحركة السلفية (التى كثيرا ما يشار إليها باسم الوهابية) إلى جماعة متنوعة، تضم شخصيات متباينة مثل أسامة بن لادن و مفتى السعودية، وتعكس مواقف شديدة التنوع من القضايا المتعلقة بالسياسة والعنف». لكن الكاتب يبين أنه وعلى الرغم من الاختلافات العديدة فإن «ثمة عقيدة دينية مشتركة تجمع بين السلفيين» والتى تدور حول التمسك الصارم بمبدأ التوحيد والرفض التام لدور العقل البشرى ومنطقه ورغباته. ثم يضيف أنه بتحديد أكثر فإن «السلفيين يؤمنون أنه بالاتباع الصارم لأحكام القرآن وهدى السنة فإنهم بذلك يقضون على التحيزات الذاتية البشرية والمصالح الأنانية مما يتيح لهم تحديد حقيقة أوامر الله المتفردة». ومن هذا المنظور، فلا يوجد سوى تفسير دينى مشروع واحد لا يوجد به أى مكان للتعددية الإسلامية. ثم يقوم ويكتوروويتز فى نقاشه التالى بتقسيم تنوع الفكر داخل الحركة السلفية إلى ثلاثة مصنفات رئيسية: الصفائيين، المسيسين والجهاديين. للوهلة الأولى تبدو تلك التصنيفات وأنها تتيح وسيلة لفهم

التعددية داخل تلك الحركة التى تطورت كثيرا منذ نشأتها الأولى. بيد أن ويكتورowيتز ليس وحده فى مسعاه لتعريف الحركة السلفية. إذ إننا نقرأ فى مصادر أخرى عن «السلفيين التقليديين الجدد» و«الإصلاحيين المحافظين» و«العلمانيين المتطرفين»، وهذا بعض من فيض. وفيما أن المقارنة الدقيقة بين تلك المناهج تتجاوز نطاق هذا الكتاب فإن هذه الملاحظة تثير سؤالين مهمين: أولا، إلى أى حد يوجد إجماع حول الخطاب السلفى؟ وثانياً، ماذا يعنيه تحديدا مصطلحا «سلفى» و«سلفية»؟

مرة أخرى، تصف «موسوعة الإسلام» مسيرة تطور جد معقدة، ومتناقضة فى غالبيتها، للفكر السلفى. مثلا، تذكر الموسوعة أن «مسألة من يعتبر عضوا بالسلف تظل مسألة خلافية». لفظ «السلفية» مشتق من الفعل «سلَف» أى «سبق» أو تقدم. وفيما يستخدم القرآن اللفظ للإشارة إلى الماضى، تورد المعاجم العربية تعبير «السلف الصالح» من ثم، يصبح «السلفى» هو الشخص الصالح الذى يستند إلى القرآن والسنة بصفتهما المصدر الوحيد للأحكام الدينية. وعلى الرغم من توافق غالبية علماء المسلمين على أن «السلف» يضم الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين والتى امتدت لفترة قُدِّرت بثلاثة قرون وتشمل صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتابعين، وتابعى التابعين، فإن التعريف الحرفى والتتابع الزمنى غير كافيين لتفسير وافٍ للمصطلح. تذكر الموسوعة تحديدا أن «السلف لا يقتصرون على مجموعة بعينها أو على فترة معينة». الأحرى أن العلماء البارزين والشخصيات المستقلة التى تنتمى إلى عصور لاحقة مثل أحمد بن حنبل، وأبى حامد الغزالى، وابن تيمية، وابن القيم

الجوزية، ومحمد بن عبدالوهاب، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وآخرين، يعتبرون من السلف، هنا يجدر بنا أن نذكر أنه حتى آراء أولى أجيال المسلمين لم تكن متجانسة، وأن المكونات الأيديولوجية للفكر السلفي ظلت تتغير بمرور الوقت وفي استجابة للتحديات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية مثلما ظل التزام تلك الحركة بالإصلاح والإحياء مستمرا. وهكذا، فإن الفرضية الشائعة بأن خطاب الجهاديين السلفيين يصدر عن مدرسة فكرية واحدة ثابتة محددة بوضوح هي فرضية مفتوحة للجدل، بمثل الأسلوب الذي تصور به السلفية في أدبيات الإرهاب بعامة، وفيما يتعلق بأيديولوجيا القاعدة بخاصة.

ولتأكيد هذه النقطة، فمن المفيد المزيد من تفحص الأطروحة السائدة بأن السلفيين يجتنبون التفكير والرغبات البشرية فيما نبقي نصب أعيننا أن التأويل هو جزء لا غنى عنه من تفسير القرآن: للوهلة الأولى تركز الموسوعة الإسلامية، مثلا، على أن ابن حنبل تبنى أولوية النص المنزل على العقل والمنطق البشري، رغم أنه لم يَرَ تناقضاً بين العقل والكتاب المقدس. تؤكد الموسوعة أيضا أن السلفية الحديثة كما أسسها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده تقول بأن القرآن هو كلمة الله الأزلية، أي أنه أُنزل على الرسول ولم يكتبه البشر. وعلى الرغم من أنهما لم يريا أي تعارض بين التنزيل وبين العقل، إلا أنه، وحينما كان يبدو أن ثمة تناقضاً بين الاثنين، كانا يُعمِلان العقل لتأويل النص. هل يعني هذا أن التفكير البشري جائز في حالات معينة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما تلك الملابسات؟ هل من المسموح به إعمال الذاتية البشرية التي من المحتم لها

أن ترافق تمعنات البشر فى المفاهيم الإلهية؟ وأخيرا، إذا كان النص المقدس هو وحده الذى بإمكانه حقا التحدث باسم الذات المقدسة، فمن له الحق فى التحدث باسم «الإسلام الحق؟»

لدى هذه النقطة، فمن المهم الرجوع مرة أخرى إلى أطروحة سدچمان التى تبين، بالإضافة إلى أخريات، أن تأثير سيد قطب على الجهاد السلفى كان حاسما. لكن، وقبل أن نطور هذا الرأى أبعد من ذلك، علينا أولا أن نقرر التعريف الذى بمقتضاه لم يعد يمكن اعتبار سيد قطب سلفِيا. تكشف أول رابطة للبحث عن الإنترنت الذى ذكرناه سابقا أن «غالبية السلفيين يرفضون ما يسمونه بالتوجه القطبى بصفته انحرافا عن السلفية الحقة». بيد أن المقال لا يذكر من هم «السلفيون»، أو أين يعبرون عن مثل هذه الآراء؛ كما أنه لا يمدنا بحس أكبر بالموضوعية من خلال تعريف ناقدى قطب لـ «السلفية الحقة». إن أطروحة ويتورووِيتز القائلة بأن السلفيين يرفضون أى دور للعقل والتأويل البشرى تجعل من محاولة سدچمان لإيجاد رابطة بين قطب والقاعدة والتيارات السلفية تبدو أكثر ضعفا: إن الإنكار المتزامن - والمفترض أن يكون حصريا بأسلوب تبادلى - للعقل والذى يرافقه تكييف النص القرآنى معرفياً مع واقع الأمور أمر جلى فى تأويل سيد القطب السياسى الشهير فى كتابه «فى ظلال القرآن». وفيما أن ثمة مستوى معيناً من التأويل تشترك فيه كل التفسيرات، وكما ذكرنا من قبل، فإن المرء لدى قراءته تعليقات سيد قطب تستوقفه التفاعلات بين أفكاره الخاصة وبين النص القرآنى، الأمر الذى يوضح أنه لم يجد الحقيقة فى النص نفسه، بل الأحرى فيما اعتقده هو أنه معناه.

تتبدى نفس العملية حينما يدعو بن لادن إخوانه المسلمين إلى شن حرب على أعداء الإسلام ويتخيل إقامة ما يماثل الفكرة الحديثة، للدولة الإسلامية: فهو بذلك ينقل مفردات النص المقدس إلى الوضع السياسى الراهن، ويؤول معانيها فى إطار هذا السياق الجديد. يبنى بن لادن فكرته الخاصة عن الإسلام وفقا لخطوط تأويل بديل يتغلب على الانشقاقات الأيديولوجية داخل الإسلام ويضع أمة المؤمنين المفترضة فى مكانة أسمى من كل دولة أو حكومة بمفردها، وخارج نطاق تأثير كل ما هو غير إسلامى. وبذلك، فهو يعوّض عما يفتقده من حيث التخطيط المتسق لكيفية تنظيم أمة الإيمان هذه واقعيا، بوهج المنطق الذى يمكن إنجازه كالتالى: أولا، ينبغى علينا التغلب على أعداء الإسلام، أى الغزو الصهيونى/ الصليبى، ثم بعد ذلك يتحقق كل شىء بأسلوب طبيعى، أو بتدخل ربانى. وبمنطقه هذا، لا يرقى خطاب بن لادن إلى مصاف خطابات دعاة الوحدة الإسلامية الآخرين الذين عبروا عن رؤاهم الخاصة بالأمة الإسلامية بأساليب أكثر واقعية وعن كيفية بناء أمة المؤمنين وحكمها. بيد أنه، وكما اتضح فى المناقشة السابقة حول وجود القاعدة كتنظيم، فإن قوتها الحقيقية تكمن فى أيديولوجيتها. فإن تجاوزنا بساطتها النسبية، فإن رؤية بن لادن، وفوق كل شىء آخر، مثالية، ويمكن القول إن هذا النوع من المثالية يشكل جوهر مشاعر التكافل الإسلامى وهذا يفسر الجاذبية الهائلة لتلك الرؤية لدى المتعاطفين مع بن لادن والقاعدة، وهكذا، فإنه من أجل تبنى أسلوب ذى معنى فى تقييم الأصول الأيديولوجية للقاعدة وجاذبية خطابها ورؤيتها يتطلب وضعها فى السياق

الأوسع لظهور الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية، وهو الموضع الذى سنبحثه بمزيد من التفاصيل فى الفصل التالى.

تتدعم صحة هذا النهج، البديل لدى محاولة تطبيق مسمى «سلفى» على بن لادن. وفقا لأى تعريف يمكن القول إن بن لادن سلفى؟ هل بسبب إنكاره لجواز إعمال العقل البشرى فى تأويل النص المقدس الإسلامى، إذا سلمنا بأن هذا معيار مشروع، هذا على الرغم من أنه يناقض عدم جواز هذا بتطبيق تأويلاته الخاصة للقرآن لدى عرضه حججه؛ هل بسبب محاولاته ونواياه المعلنة عن العودة إلى أصول الإسلام؟ أم أن هذا التصنيف ناتج عن أنه، ومثل غيره من الأصوليين الإسلاميين، يرى نفسه مؤمنا حقا - أو سلفيا- يتبع بصرامة هَدىَ الرسول ويحاول استعادة أصول الإسلام الأولية، فيما يبدو غير مدرك أنه يطرح تأويلاته الخاصة لتلك الأصول. وإن كان بن لادن وأتباعه يصنفون على أنهم جهاديون سلفيون بناء على أى من هذه الأسباب، أو بناء عليها مجتمعة، إذا، فمن المناسب أن نسأل «من ذا الذى ليس سلفيا معاصرا؟»

وعلى الرغم من أن تفحص تنوع الحركة السلفية أو تقصى تطور الحركة الوهابية بالكامل يخرج عن نطاق هذا الفصل، فمن المفيد أن نبين أنه من غير المجدى تجاهل فكرة التشظى الإسلامى والقول بأن هذا يدخل ضمن مزاعم المستشرقين. تتحدى الفكرة القائلة بأن الخطاب السلفى يشكل وحدة متسقة وجود توجهات فكرية متنوعة وتأويلات مختلفة، بخاصة فى وجود التشظى الحالى للمرجعية الدينية «حيث لم يعد ثمة حاجة لأن تقوم المؤسسة الدينية بتأويل معنى النص المقدس لأن

الأحرى أن المعنى يكمن فى عين الرائى». وأساس مثل هذه الملاحظة هو أن العالم الإسلامى لم يعد معزولا عن عمليات التحديث أو التعليم الجماهيرى، مما، وبين عوامل أخرى، أثر فى تطور تيارات سياسية جديدة وأنواع من عدم المساواة، وهويات وفرص جديدة، وسَمَح بهذا. وفيما لابد وأن يصر مسلمون كثيرون، وبقوة، على أن الفقه الإسلامى والتأويل القرآنى اللذين ظلا قائمين منذ زمن طويل يوفران إرشادا واضحا محددا للمؤمنين، «فإن تلك الموروثات يواجهها الآن تزايد الأفراد الذين تلقوا تعليما حديثا، والذين يطّلعون مباشرة على النصوص الدينية الأساسية ويتساءلون عن السبب الذى يحتم عليهم الإذعان، تلقائيا، لآراء الطبقة الدينية». ونتيجة لهذا التطور القائم أصبح من الصعب بتزايد القول بما هو إسلامى وما هو غير إسلامى وإن هذه النقلة فى مواقع الغايات والسهولة التى يمكن بها للأفراد التجرؤ على استدعاء الموروث الإسلامى والاستشهاد به والدفاع عنه - هى ما أتاح لأفراد مثل بن لادن الزعم بأنهم يتحدثون باسم الإسلام. لكن، أيعنى هذا أن كل مسلم يسعى للتوصل إلى المعنى الحقيقى للنص الإسلامى يعتبر سلفيا؟ لابد وأن يزعم حسن الترابى الذى تعلم فى السوربون، وأصبح زعيم الإخوان المسلمين بالسودان، والذى صاح قائلا: «لأن المعرفة جميعها مقدسة ودينية، فإن الاقتصادى، أو الكيميائى، أو القانونى هم من علماء المسلمين» لابد وأن يزعم صحة هذا. وحسب ما قاله چيمس پيسكاتورى فإن «الأفكار المتعلقة بالقضايا التى تبدأ بالمشاركة الشعبية، وحتى

العدالة الاجتماعية، أبعد ما تكون عن الركود، كما أن المعانى القرآنية لا تعنى شيئا إن لم تكن غير مبهمة». بتعبير آخر، يفتقد خطاب «الجهاديين السلفيين» الذى يبدو وأنه الأيديولوجيا التحتية للقاعدة أساسا تعريفيا محددا ويظل مبهما فى أفضل الأحوال. وعلى الرغم من أن البعض يجدون من الملائم تسمية الراديكاليين الإسلاميين «الجهاديين السلفيين» بالمعنى الفضفاض للتعبير، فإن هذا الوصف يثير مشاكل التعميم، وجمع حركات متنوعة لها أهداف جغرافية محددة وأجندات مختلفة فى سلة واحدة من خلال التركيز الحصرى على أساليب العنف التى تتحقق بها تلك الغايات المختلفة. ومن ثم، فإنه لا يبدو من المجدى بخاصة استخدام هذا التعبير وسيلة لتفسير المنطق الذى يشكل الأساس التحتى لجهاد القاعدة الكوكبى.

باتجاه الأيديولوجيا التى تكمن فى مركز القاعدة:

كما رأينا، فإن الأبحاث الموجودة عن أيديولوجيا القاعدة انبثقت، على ما يبدو من حالة أزمة، وأجريت فى مناخ بحثى استحوذ عليه الإلحاح فى مواجهة حالة الفوضى الفجائية التى عمت المشهد الأمنى والسياسى. وسواء وصِف أتباع القاعدة بأنهم مجانين، أو منافقون، أو متعصبون، أو وهابيو القرن الحادى والعشرين، أو جهاديون سلفيون، فإن ما يجمع هذه التوصيفات هو ما يمكن أن نسميه منهج التحليل من «الخارج إلى الداخل»، الذى يركز على المظهر الخارجى للقاعدة ويستفيد من النماذج المعيارية الموجودة فى محاولة تفسير الظاهرة موضوع التفحص.

واستنادا إلى تركيزهم على استخدام العنف، التجأ محللو «الإرهاب» إلى استخدام نماذج تفسيرية مثل الوهابية أو الجهاديين السلفيين، تلك المفاهيم، وكما أوضحنا سالفا، المعقدة فى حد ذاتها والتى مازالت موضع كثير من النقاشات الخلافية - والتى هى أيضا أبعد ما تكون عن وصفها بأنها مدارس فكرية واضحة المعالم تشكل وحدة متراصة متناغمة وفقا لما يحلو للبعض أن يعتقد - استخدامها من أجل تفسير منطق القاعدة. وهكذا يبدو وأن كثيرا من التحليلات قد انحرفت عن المناهج الراسخة للبحث وأوجدت مسميات على قدر من الضحالة والضعف تعطى وهما بأنها إجابات، لكنها، فى النهاية، لا تقدم سوى أقل القليل من حيث المعنى المتسق المنطقى. إن المُضىّ فى اتباع هذا الأسلوب لا ينطوى فقط على مخاطر القراءة الخاطئة لتاريخ الفكر الإسلامى الثرى وتطوره، بل أيضا - وهذا هو الأهم - يخاطر بالتأويل المغلوط للقضية التى تخضع للبحث. وعلى حين أنه من المحتمل لتسمية أتباع القاعدة «الجهاديين السلفيين» أن تعكس بشكل كافٍ الأساليب العنيفة التى يتبعونها، فإنها لا تتيح أية بصيرة ثاقبة فى منطق جهاد القاعدة الكوكبى، وغاياته ومبرراته، أو فى أسباب جاذبية واسعة النطاق.

إن التركيز تحديدا على الأسئلة التى تتعاطى مع التفاعل المعقد بين الدين والسياسة فى الموروث الإسلامى قد يكون نهجا أكثر ملاءمة للبحث فى الآليات التى تشكل الأساس التحتى لسياسة العنف التى تتبعها القاعدة. وبتحديد أكبر، ما المكان المناسب لوضع جهاد بن لادن الكوكبى

فى مشهد الإسلام السياسى الحديث؟ ما الرابط بين النطاقات الدينية والسياسية التى يطمسها خطاب بن لادن؟ إلى أى مدى أثرت التغيرات الاجتماعية السياسية الكوكبية فى تلك النطاقات أو أوقعت فيها الفوضى؟ سيلقى تفحص هذه الأسئلة ضوءا جديدا على منطق جهاد بن لادن الكوكبى وشعبيته الواسعة وأيضا على التهديد الذى يمثله للاستقرار الدولى.

الفصل الرابع

إصلاح الأمة

أيديولوجيا القاعدة فى سياق موروث وحدة الأمة الإسلامية

«.. فلا يخفى عليكم ما أصاب أهل الإسلام من ظلم وبغى وعدوان من تحالف اليهود والنصارى وأعوانهم، حتى أصبحت دماء المسلمين أرخص الدماء، وأموالهم وثرواتهم نهبا للأعداء، فها هى دماؤهم قد سُفِكت فى فلسطين والعراق، ومازالت الصور الفظيعة لمجزرة قانا فى لبنان عالقة بالأذهان، وكذلك المجازر فى طاجكستان وكشمير وآسام، والفلبين، وفطانى، والأوجادين، والصومال، وإريتريا، والشيشان، وفى البوسنة والهرسك، حيث جرت مذابح للمسلمين هناك تقشعر لها الأبدان، ويهتز من هولها الوجدان، وذلك على مرأى ومسمع من العالم أجمع، بل وبتآمر واضح من أمريكا وحلفائها بمنعهم السلاح عن المستضعفين هناك تحت ستار الأمم المتحدة الظالمة، فانتبه أهل الإسلام إلى أنهم الهدف الرئيسى لعدوان التحالف اليهودى الصليبى».

– أسامة بن لادن، إعلان الجهاد، ٢٣ أغسطس ١٩٩٦

على النقيض من المدركات الشائعة عن القاعدة كمجموعة من الإسلاميين المتطرفين الموجودة على هوامش جماعة المسلمين إن لم تكن خارجها تماما، فإن الكثير من منطق بن لادن، لكن ليس بالضرورة وسائله العنيفة، يلقى القبول على نطاق واسع ويتردد أصداؤه فى أنحاء العالم الإسلامى. يظهر فى مسح أجراه مركز بيو Pew للتوجهات الدولية والصادر فى يوليو ٢٠٠٥، أن عددا من المسلمين يثير الدهشة يثقون فى سلوك بن لادن الخاص بالشئون العالمية، هذا على الرغم من التراجع الكلى لدعم التفجيرات الانتحارية وأشكال الإرهاب الأخرى والقلق المتزايد من الحرب على الإرهاب. وفيما بلغ معدل دعم بن لادن فى المغرب وإندونيسيا ٢٦٪ و٣٧٪ على التوالى، مما يعكس تراجعا فى دعمه منذ

عام ٢٠٠٣، فلا ينعكس هذا التوجه فى البلدان الأخرى. مثلا، وضعت غالبية ضيقة فى باكستان تقدر بنسبة ٥١٪ قدرا من الثقة فى بن لادن بزيادة معتدلة عن نسبة ٤٥٪ فى عام ٢٠٠٣. ارتفع دعم القاعدة فى الأردن على مدى العامين الأخيرين من نسبة ٥٥٪ إلى ٦٠٪، بمن فى هذا نسبة ٢٥٪ الذين يقولون إن لديهم كثيرا من الثقة فيه. من اللافت أن البلاد الستة عشر التى غطاها الاستطلاع لم تشمل السعودية أو العراق حيث كان من المتوقع على أن يزيد دعم بن لادن فيهما عن بلدان المنطقة الأخرى. كشف تقرير تالٍ نُشر عام ٢٠٠٧– أو الأحرى أكد – عن وجود استياء عميق ومتزايد من الولايات المتحدة فى أنحاء العالم الإسلامى. مثلا، كان من أعلنوا عن رأى مواتٍ للولايات المتحدة فى مصر ٢١٪ فقط،

فيما بلغت النسبة فى باكستان ١٥٪ وفى تركيا ٩٪. كان الشعور الساحق فى البلدان الإسلامية هو قليل من الثقة، أو انعدام للثقة، فى الأسلوب الذى تتعاطى به الولايات المتحدة مع الشئون العالمية. ولا يقتصر استنتاج أن الصورة العامة للولايات المتحدة قد غدت شائهة على تقرير پيو Pew عن التوجهات الكوكبية بل هو استنتاج يمثل تيمة متواترة فى المسوحات ذات الطبيعة المتماثلة. مثلا، وجد استطلاع مركز زغبى الدولى لستة بلدان عربية فى عام ٢٠٠٤ أن ١٢٪ لديهم رأى مؤيد للولايات المتحدة، فيما رفض ٦٥٪ من المستطلعين الرأى القائل بأن الديمقراطية هى هدف حقيقى للولايات المتحدة بالشرق الأوسط. بيد أن الاعتراض لم يكن على الديمقراطية أو القيم الليبرالية حيث أظهر استطلاع أجراه مركز جالوب فى عشرة بلدان ذات غالبية مسلمة أن الغالبية الساحقة تدعم المعايير الغربية للحرية والديمقراطية، على الرغم من أن إحدى الشكاوى المفتاح كانت من المعايير المزدوجة للسياسة الخارجية الأمريكية - وهذه قضية مركزية فى نقد بن لادن لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. يذهب هذا الرأى إلى أنه، وعلى حين أنه من المحتمل لحملات أمريكا الدولية أن تُجرَى باسم الحرية والديمقراطية فإن نتائجها جد مختلفة بالنسبة لهؤلاء الذين يتواجدون فى الطرف المتلقّى. كما أن الإدارة الأمريكية الجديدة برئاسة باراك أوباما لم تؤدِ سوى لتحسن مؤقت فى تقديرات استطلاعات الرأى: كان استحسان القيادة الأمريكية فى الجزء الأخير من عام ٢٠١٠ مماثلا لمستواه فى عام ٢٠٠٨ أو أقل منه فى عدد من بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، مع محو المكتسبات التى تحققت بعد الانتقال من إدارة بوش إلى إدارة أوباما.

ومع الأخذ فى الاعتبار مناخ العداء للولايات المتحدة والنفور منها، فلا يكاد يكون من المستغرب تنامى الدعم لبن لادن والقاعدة. لا يقتصر الأمر على أن عددا لا يستهان به من المسلمين فى أنحاء العالم يجدون أن رسائل بن لادن معقولة ومنطقية لكن، وكما أشرنا من قبل فى إحالاتنا فى الفصول السابقة إلى الأبحاث الأنثروبولوجية، فإن الخصائص التى تُنسب إلى الأصوليين تجعل منهم نماذج تحتذى بالنسبة للآخرين وذلك لأنهم يعتبرون أنفسهم المؤمنين «الحق» ويبرهنون على التزامهم بالعقيدة ليس فقط من خلال التقوى، بل أيضا من خلال أفعالهم. وفى عالم يجد فيه الإسلام نفسه، أو يَتصوَّر نفسه محاصرا من القوى الأجنبية ومن انتشار القيم العلمانية المُطّرد، تصبح المجموعات التى تتخذ مواقفها وفقا للمبادئ الدينية والتى تدافع بجسارة عن العقيدة ضد أعدائها - مصادر إلهام هائلة لأولئك الذين سئموا الانتهاكات المتواصلة التى يشهدونها. وهكذا، اكتسبت القاعدة وبن لادن الدعم الشعبى لأنهم هم مَنْ تصدوا لجولياث (جالوت) الأمريكى. وكما يبين شوير «تنظر ملايين عديدة من المسلمين إلى بن لادن بصفته بطلا إسلاميا». كيف حدث هذا؟

الاستماع إلى بن لادن:

يبدأ أى بحث ذى معنى فى الأساس الأيديولوجى لجهاد القاعدة الكوكبى وأسباب شعبيته بتفحص متمعن للمنطق الذى يعرضه بن لادن نفسه. وكما أشار النقاش حول أصول القاعدة فى الفصل الأول، فقد ظل بن لادن منذ أوائل التسعينيات يتبارى على جذب الانتباه - يعبر عن آرائه علنا ويشرح نواياه قبل وضعها قيد التنفيذ، على الرغم من عدم

إحرازه سوى نجاح محدود. لم تلق حواراته المبكرة مع وسائط الإعلام الغربية اهتماما كبيرا بل إنه لم يؤخذ على محمل الجد. وكما أوضح برجن في استجابة منه للحوار الذى أجرته سى إن إن مع بن لادن عام ١٩٩٧:

قال بن لادن إنه يتنبأ بيوم أسود للولايات المتحدة، يوم لن يصبح الأمريكيون بعده كما كانوا من قبل، ولن تعود الولايات متحدة كما كانت، كما بين إلى حد كبير أن تلك ستكون معركة مستدامة.

ولدى هذه النقطة أتى بإجابة انتهى بنا الأمر إلى إعادة الاستماع إليها مرارا وتكرارا، قال إن لديه الرسالة التالية لأمريكا، رسالة كثيرا ما استوقفتنى بعد ذلك، لأنها بدت نوعا من المغالاة المفرطة. آنذاك قال: «إننى أعلن الحرب على الولايات المتحدة. سأهاجم بلدكم». وفكرت حينئذ، «آه، وبأى جيش؟». إذا أخذتم كلماته تلك وأعدتم الاستماع إليها فى ١٢ سبتمبر ٢٠٠١، بالتقابل مع ٩ سبتمبر ٢٠٠١، فستجدون أنها تحولت من فرط المغالاة إلى ما كان يخبرنا به طوال الوقت».

وإذا كان صوت بن لادن قد ظل لا يستمع إليه إلى حد كبير قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فإن الأحداث التى وقعت فى اليوم ذاك أتت ببرهان مطلق على أن صوت الأفعال أعلى من صوت الكلمات. كان من خلال الهجمات أن نجح بن لادن فى نهاية المطاف فى مسعاه لاكتساب اعتراف – على الرغم من أن بالإمكان القول إنه ليس الاعتراف الذى كان يأمله، أى الاشتباك مع رسائله السياسية. وفيما طافت صور سقوط البرجين التوءم على الفور بأنحاء العالم لتصبح رمزا نهائيا للحرية وهى تتعرض للهجوم، فإنه، وفى السنوات التالية لم تصل سوى أجزاء مشظاة من رسائل بن لادن إلى الجمهور الغربى العريض. وكما ذكرنا من قبل، فإن الأجزاء المختارة من بياناته التى بثتها وسائط الإعلام الغربية فى أعقاب

٩/١١، كانت تنزع لإبراز إعلاناته الخلافية الداعية إلى استخدام العنف ضد الأهداف الأمريكية/ الغربية ومن ثم، لم توفر سوى بصيرة جزئية فى أجندته. وفى الواقع، فلم يكن سوى فى عام ٢٠٠٥ أن أتيحت مجموعة من أهم بيانات بن لادن التى بثت ما بين عامى ١٩٩٤ و٢٠٠٤ فى ترجمة إنجليزية. بيد أنه، فإن المدى الذى مكّن به هذا النشر الذى طال انتظاره من التعاطى الناقد غير المتحيز مع منطق جهاد القاعدة الكوكبى يظل مشكوكا فى أمره. يثير إلقاء القبض على طالب ماجستير وتوقيفه، طالب كان يجرى أبحاثا على التكتيكات الإرهابية، وكذلك توقيف عضو هيئة تدريس بجامعة نوتينجهام لتحميله كتيب تدريب إرشادياً للقاعدة رؤى أنه «غير مناسب» ليكون موضوعا للبحث، يثير هذا قلقا مشروعا عن مدى الحرية المتاحة للعمل على أفكار القاعدة. لم تكن أيضا ثمة أهمية لحقيقة أن هذا الكتيب الإرشادى يمكن شراؤه من الأمازون من خلال الإنترنت نظير مبلغ ١٤,٩٥ دولاراً أمريكيا. من ثم، فلا غرو أن الصورة الشائعة لبن لادن هى صورة إسلامى متطرف يجسد الشر، ويمثل «مجموعة» أو «تنظيما» يكنّ للغرب بغضا ضاريا بسبب أساليبه الليبرالية، إسلامى عازم على استعادة عصر الإسلام الذهبى بأية تكلفة. لكن، إذا لم تكن القاعدة ذاك التنظيم المحكم الذى يعتقده البعض، وإذا كان وجودها الأساسى، وقوتها، وإمكانياتها تكمن فيما للفكرة من تأثير – إذن، فإن التعاطى الناقد مع رسائلها يصبح ضرورة أساسية لا مجرد أمر مرغوب فيه.

فى الوقت الحالى، وقد أصبح الجزء الرئيسى من الرسائل متاحا

للجماهير المتحدثة بالإنجليزية، فمن الملائم أن نتحدث عن وجود شخصين (على الأقل) يسميان بن لادن: من جانب شخص شرير معادٍ للحرية والديمقراطية ومن جانب آخر المسلم الورع الذى يدافع عن العقيدة. بيد أننا إذا قرأنا رسائل بن لادن بمزيد من التمعن سرعان ما نكتشف - وعلى النقيض من الصورة الشائعة - أن حربه ليست استجابة لما هو عليه الغرب (أى الحرية والديمقراطية، واللتين يُختزل الغرب فيهما، وهذا موضع تساؤلات فى أفضل الأحوال) بقدر ما هى استجابة لما يفعله الغرب. أوضح هذا بدون مواراة فى بيان صدر عام ٢٠٠٣ قال فيه:

إن عصابة الإجرام فى البيت الأبيض تصور الأمر على غير حقيقته، بل يزعم زعيمهم الأحمق المطاع أننا نحسدهم على طريقة حياتهم، وإنما الحقيقة التى يخفيها فرعون العصر أننا نضربهم بسبب ظلمهم لنا فى العالم الإسلامى وخاصة فى فلسطين والعراق واحتلالهم بلاد الحرمين».

وفى الواقع، فإنه ومنذ وقت مبكر، أى فى عام ١٩٩٧، فى الحوار الذى أجرته معه السى إن إن والذى أشرنا إليه، فقد أوضح بن لادن بما لا يدع مجالا للشك أنه أعلن الحرب ضد الولايات المتحدة بسبب سياساتها الخارجية ومغباتها. وعلى الرغم من أن بن لادن، آنذاك، كان مهتما بخاصة بوجود القوات المسلحة الأمريكية بالسعودية، فقد شملت أسباب عدائه الأخرى العقوبات المفروضة ضد العراق ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل - وجميعها إجراءات وأفعال تسهم فى معاناة المسلمين فى أماكن متنوعة. رأى بن لادن أن معايير أمريكا مزدوجة، فهى تمارس الإرهاب فى مسعاها لتحقيق مصالحها ثم تسمى من يقاومونها «إرهابيين» جاء فى الحوار ما معناه:

«لقد أعلنا الجهاد ضد حكومة الولايات المتحدة لأنها حكومة غير عادلة وتمارس الإجرام. لقد ارتكبت أفعالا ظالمة بشعة وإجرامية إلى أقصى حد، سواء بأسلوب مباشر أو من خلال دعم الاحتلال الإسرائيلى لأرض إسراء الرسول. ونعتقد أن الولايات المتحدة تتحمل المسئولية المباشرة عمن قتلوا فى فلسطين ولبنان والعراق. إن ذِكر الولايات المتحدة يذكرنا قبل كل شىء بهؤلاء الأطفال الأبرياء الذين تقطعت أوصالهم ورءوسهم وبُترت أذرعهم فى الانفجارات التى وقعت مؤخرا .. لقد تخلت تلك الحكومة عن المشاعر الإنسانية. لقد انتهكت كل الحدود وتصرفت بأسلوب لم تشهده أية قوة، أو أية قوة إمبريالية فى العالم. كان عليهم أن يكونوا حساسين لحقيقة أن قبلة المسلمين تستثير عواطف جميع العالم الإسلامى. إن صلافة نظام الولايات المتحدة واستكباره، وبسبب خضوعه لليهود، قد وصل إلى درجة احتلال قبلة المسلمين الذين يتجاوز عددهم مليار شخص(١).

وعلى الرغم من تطور منطق بن لادن بمرور الوقت بحيث إنه كان يأخذ فى اعتباره ما يحدث من التغييرات الاجتماعية السياسية، إلا أنه ظل متسقا من حيث أسباب هجومه على الولايات المتحدة. نجد أن التيمة المركزية التى يستدعيها بن لادن فى جميع بياناته – بدءا من الخطابات المفتوحة ورسائل الفيديو إلى الحوارات وكتيبات التدريب منذ نهاية الثمانينيات وحتى يومنا الحالى – هى معاناة الأمة الإسلامية ومهانتها على أيدى الكفار، أى الولايات المتحدة وحلفائها. تكمن فى جوهر رسائله نظرة الأمة الإسلامية إلى العالم، التى تتلخص فى أن الأمة التى اصطفاها الله تواجه تهديدا وجوديا من أعداء الإسلام الرئيسيين الخبثاء: الولايات المتحدة وإسرائيل، اللذين يشير إليهما بمسمى التحالف الصهيونى/ الصليبى. يتبع بن لادن أسلوبا رئيسيا لإيصال هذه الرسالة

(١) تعذّر الحصول على النص العربى، وهذه ترجمة مباشرة من النص الإنجليزى. (الترجمة)

وهو ذِكر قائمة ما يعانيه المسلمون بإحالته إلى أوضاع رمزية مثل فلسطين والعراق والشيشان وكشمير، وبخاصة السعودية حيث تحتل القوات الأمريكية أرض الإسلام المقدسة وتتحكم فيها. من ثم يوجد السبب النهائى للحالة التعيسة وغير المحتملة التى عليها الأمة والتى تتبدى فى معاناة المسلمين الفيزيقية وفى الاضمحلال الشائع للمعايير وأساليب السلوك الإسلامية داخل الأمة، يوجد فى الواقع المزدوج لاحتلال الولايات المتحدة العسكرى لأراضى المسلمين وهيمنتها الثقافية عليهم. وكما يقول بن لادن:

منذ مَهّد الله شبه الجزيرة العربية وخلق صحاريها وأحاطها بالبحار، لم تُصَب هذه الأرض بفاجعة كفاجعة حلول الصليبيين ضيوفا على هذه الأرض كالجراد، يلوثون رمالها ويأكلون ثمارها ويدمرون بهاءها، كل هذا فى وقت تزاحمت فيه الأمم ضد المسلمين كتزاحم الآكلين حول قطعة طعام. منذ أكثر من سبعة أعوام، تحتل الولايات المتحدة أرض الإسلام فى أقدس مواقعها، الجزيرة العربية، فتنهب ثرواتها، وتتسلط على حكامها وتذل ساكنيها وتهدد جيرانها مستخدمة قواعدها فى شبه الجزيرة كرأس حربة لمهاجمة الشعوب الإسلامية المجاورة.

العالم يشتعل. معاناة لا نهاية لها، فساد متزايد، وانتهاكات مروعة. فقط انظروا إلى العراق. انظروا إلى فلسطين، انظروا إلى كشمير. تُرتكب البشاعات ضد إخواننا وأخواتنا، وهم جزء من أمتنا ويستحقون تعاطفنا ودعمنا.

الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الأمة ضد هذا العدوان هى من خلال المواجهة العسكرية (أو بدقة أكثر، الميليشاوية) مع أمريكا، والتى يعرضها بن لادن بأسلوب محمّل بالعواطف بصفتها جهاد العصر الحديث المشروع ضد العدو الرئيسى لأمة الله المصطفاة، وضد الإسلام ذاته. والغاية النهائية لهذا الجهاد هو استعادة الأمة من قبضة الولايات المتحدة

الأليمة. توضح فتوى عام ١٩٩٨ التى اكتسبت الشهرة وسوء السمعة بما لا يدع مجالا للشك كيفية تحقيق هذه الغاية:

إن حكم قتل الأمريكيين وحلفائهم مدنيين وعسكريين، فرض عين على كل مسلم فى كل بلد متى تيسر له ذلك، حتى يتحرر المسجد الأقصى والمسجد الحرام من قبضتهم. وحتى تخرج جيوشهم من كل أرض الإسلام، مسلولة الحد كسيرة الجناح، عاجزة عن تهديد أى مسلم.

تفسير جاذبية بن لادن وشعبيته:

من المفهوم، بطرق عديدة، أن يركز المعلقون والمحللون على العنف الواضح فى خطاب بن لادن وفى أساليبه الجهادية، وبخاصة أن مجرد إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الإسلام تكشف عن جماعات متطرفة عديدة انشقت عن مدارس الفكر الراسخة، واشتُهر عنها استخدامها للعنف ضد من لم يجارونهم فى معتقداتهم وممارساتهم. بيد أن تلك المجموعات ذاتها فشلت فى البقاء طويلا بسبب عدم استطاعتها اجتذاب دعم كافٍ والحفاظ عليه. وبالتقابل مع تلك المجموعات المنشقة التى تميزت معتقداتها بدرجة من الراديكالية أو الحصرية بحيث عملت على اغتراب الغالبية الساحقة من هؤلاء الذين كانت تلك المجموعات تزعم أنها تمثلهم، نجد أن بن لادن يطرح أيديولوجيا تحقق ما لم تنجح حملات تلك المجموعات فى تحقيقه: أيديولوجيا تجد أصداء فى قلوب عامة المسلمين. لا تكمن جاذبية رسالة بن لادن فى حقيقة أنها متطرفة، بل لأنها مُقْنِعة، تخاطب شيئا موجودا بالفعل فى قلوب السامعين. علاوة على ذلك، فإن المسلمين فى أنحاء العالم يتصورونه مؤمنا مخلصا وليس على درجة من التطرف لا يجوز معها أخذه على محمل الجد أو على درجة من التشدد لا

تجيز اتّباعه. قال شاب باكستانى حاورته الجزيرة «بن لادن ليس إرهابيا. إن هذا خطاب أمريكى. إنه مسلم صالح يقاتل من أجل الإسلام. لقد أسميت ابنى أسامة لأننى أريده أن يصبح مؤمنا مثله». هل يعنى هذا أن الملايين من عامة المسلمين يُغضون النظر عن استخدام العنف ضد المدنيين بصفته جزءا من الجهاد الحديث المشروع، أم أنه ثمة شىء آخر فى فحوى رسالة بن لادن يمكنه تفسير تلك الشعبية واسعة المدى؟

كما هو واضح من بيانات بن لادن، فإنه لا يتنكر لأعمال العنف التى نُفِذت باسم الجهاد الكوكبى، كما أنه ينوى الاستمرار فى القتال فى المستقبل. بيد أنه يبذل قصارى جهده ليوضح أن العنف المستخدم هو نوع من العنف الارتكاسى – عمل ثأرى ضد ما يعتبره الشكل الأكثر هولاً من العدوان الذى ظل الغرب يمارسه منذ مدة طويلة. وكما يوضح مرارا وتكرارا، فإن ما يميز الغرب هو قتله لأعداد من المسلمين المدنيين، وإنزاله المعاناة بالعالم الإسلامى، بدرجة تفوق كثيرا كثيرا ما فعلته أية قوة أخرى. وفى وجود البراهين التاريخية إلى جانبه، يصبح من الصعب من حيث المبدأ إنكار مشروعية حججه حينما يسرد بن لادن وقائع آثار الاحتلال بدءا من الحملة الفرنسية على مصر وإلى خلق الحدود المصطنعة للدول والتى تسببت فى إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، وحينما يندد بخيانة الغرب للعرب، ودعمه غير المشروط لإسرائيل والهيمنة الأمريكية على المنطقة بأكملها. وليقظة بن لادن الدائمة لمبدأ المعاملة بالمثل، نجد أنه يركز بإصرار على تفاصيل هول معاناة

المسلمين على أيدى الغزاة الأجانب: استخدام تشرشل للغازات السامة بغزارة ضد العراقيين فى عشرينيات القرن العشرين؛ سحق الانتفاضات الفلسطينية الدموى منذ الثلاثينيات وحتى يومنا هذا، موت أطفال العراق وسوء تغذيتهم والأمراض التى انتشرت بينهم فى التسعينيات؛ العدد المتنامى للضحايا المدنيين فى أفغانستان والعراق، والبشاعات التى ارتكبتها إسرائيل فى غزة مؤخرا، وما تلك إلا قطرات من فيض الأمثلة التى يوردها. نراه يقول:

فها هى دماؤهم سُفكت فى فلسطين والعراق، ومازالت الصورة الفظيعة لمجزرة قانا فى لبنان عالقة بالأذهان، وكذلك المجازر فى طاجكستان وبورما وكشمير وأسام والفلبين وقطانى والأوجادين والصومال وإريتريا والشيشان، وفى البوسنة والهرسك، حيث جرت مذابح للمسلمين هناك تقشعر لها الأبدان، ويهتز من هولها الوجدان، وذلك على مرأى ومسمع من العالم أجمع.

وفى مجموعها ،تكوّن الأمثلة العديدة التى توضح المعاناة الظالمة للأمة، وما يقرنها من غاية استرداد تلك الأمة من القبضة القامعة الآثمة وشفاء الإسلام من ركوده، تكون المعتقدات الجوهرية لفكر بن لادن. وهو بهذا يلمس حِسًّا متناميا بتكافل المسلمين الذى غدا ملمحا بارزا للعالم الحديث المعولم. وفى الواقع، فإن مثالية بن لادن هى التى تميزه عن غيره ومعها نهجه عبر/ القومى الحق الذى لا يرتبط بأى مشروع قومى معين، بل يوحّد الطيف الكامل لمظالم المسلمين بصفتها قضية واحدة. وعلى الرغم من أنه ليس بإمكان أكثر المظالم مشروعية تبرير قتل بن لادن المتعمد للمدنيين - بل إننا نستطيع القول إن وحشية مسلكه تعمل على تقويض المبادئ الأخلاقية لدعوته - فإن مناشدته الشمولية لحس

المسلمين بالظلم، علاوة على عدم مبالاة الغرب بما ارتكبه ويرتكبه من بشاعات هى سبب إعجاب عامة المسلمين به وثقتهم فيه على الرغم من قدر معارضتهم لقتل الأبرياء. يستغل، عمليا، حس المسلمين المتنامى بالتضامن كمنصة لإطلاق عملياته العنيفة. ووفقا لما قاله الصحفى يسرى فودة من القاهرة «ليس ثمة سوى القلة القليلة من الناس بالشرق الأوسط ممن لا يستجيبون لرسالته ويتعاطفون معها».

السؤال المنطقى الذى يلى ذلك هو ما إن كان دعم بن لادن يقوم فقط على الاتفاق مع منطقه السياسى. بتعبير آخر، هل يفسر وضعه بصفته أكبر معادٍ راديكالى للاستعمار فى القرن الحادى والعشرين شعبيته؟ يذهب عالم الاجتماع مايكل مان إلى أنه «وبالرغم من خطابه الدينى ووسائله الدموية، فإن بن لادن رجل عقلانى. ثمة سبب بسيط لهجومه على الولايات المتحدة: الإمبريالية الأمريكية. طالما ظلت الولايات المتحدة تسعى للتحكم فى الشرق الأوسط، سيظل هو وأمثاله أعداء لها». وفى الواقع، فإن بن لادن، فى حوار أجرته معه شبكة إيه بى سى الأمريكية، يتعاطى، عمليا، مع فكرة الإرهاب بأسلوب علمانى متمايز: جاء فى الحوار ما معناه:

«بالإمكان أن يكون الإرهاب محمودا أو جديرا بالشجب والإدانة. إن إرهاب شخص برىء وترويعه أمر بغيض وظالم، وبالمثل، فإن إرهاب شعب دونما وجه حق ليس من الصواب فى شىء. أما ترويع القامعين والمجرمين واللصوص وقطاع الطرق فضرورى من أجل أمن الناس وحماية ممتلكاتهم. ليس ثمة شك فى هذا. على كل دولة وحضارة وثقافة اللجوء إلى الإرهاب فى ظل ملابسات بعينها بهدف القضاء على الطغيان والفساد. لكل بلد فى العالم نظامه الأمنى الخاص، وقواته الأمنية الخاصة، وشرطته وجيشه. والمقصود بها جميعها إرهاب من يفكر فى

الهجوم على البلد أو مواطنيه. إن الإرهاب الذى نمارسه من النوع المحمود لأنه موجه ضد الطغاة والمعتدين وأعداء الله، الطغاة والخونة الذين يرتكبون أفعال خيانة ضد بلادهم وعقيدتهم ورسولهم وأمتهم. إن إرهاب هؤلاء وعقابهم إجراءات ضرورية من أجل استقامة الأمور وصلاحها.

يسائل بن لادن هنا معنى «الإرهاب» فى إطار السياق الأوسع لسؤال من له حق استخدام العنف من النظام الدولى، وهذه أطروحة من المحتمل أن تكون لها جاذبيتها وأهميتها فى حد ذاتها. بيد أن النظر إلى قضية بن لادن من منطلق أنها فلسفة سياسية منفصلة عن الاهتمامات الدينية – يعنى أننا لا ننظر سوى إلى جانب واحد فقط فى القصة. إن مقاربة رسائل بن لادن التى تركز حصريا على الجانب السياسى لا تترك مساحة للبعد الدينى المتأصل فى مهمته. وبما أن مثل هذا النهج يقوم إضمارا على منطق فصل الدين عن الدولة العلمانى، فلابد وأن يؤدى هذا المنطق إلى خلاصة مفادها أنه، وبما أن فكر بن لادن سياسى أولا وقبل كل شىء، فلا يمكن أن يكون دينيا حقا. بيد أن ما يُغفله هذا الموقف هو العلاقة المعقدة بين الدين والسياسية فى تاريخ الإسلام، وأيضا النقاش الخلافى القائم ذو الصلة، رغم أنه لم يتعاظم بعد، حول الأسئلة المتعلقة بتأويل النص المقدس وتشظى المرجعية الدينية.

فصل «الدين» عن «السياسة» ومثال وحدة المسلمين:

تفترض معظم النقاشات حول هذه القضية – فى الدوائر الأكاديمية الغربية، وبقدر لا بأس به بين الأكاديميين المسلمين – أن الإسلام لا يميز بين المجالات الدينية و السياسية. يقوم هذا الرأى على أساس أنه يجب تسيير جميع أوجه حياة المسلمين وفقا لمشيئة الله ومن ثم ليس من المنطقى أن تقع شئون الدولة خارج نطاق الدين: يدعم من يعتنقون هذه

النظرة الشائعة عن عدم إمكانية الفصل بين المجالين الدينى والسياسى رأيهم بإحالتهم إلى ما يربو على أربعين آية قرآنية وبالاستشهاد بنموذج الرسول الذى كان قائدا روحيا وقائما على الشئون السياسية لجماعة المسلمين فى آن. لكن سرعان ما يوضح التفحص المتمعن أن هذه رواية مثالية عن الإسلام، ترمز إلى ما يجب أن يكون بدلا من أن تقدم وصفا دقيقا لما هو كائن، أو لما حدث بالفعل على مر التاريخ. ففى واقع الأمر، وكما أوضح كتّاب عديدون، فإنه قد تم الفصل بين المجالين بعيد وفاة الرسول، على الرغم من أنه بالإمكان تقييد هذه المقولة بأن نضيف أن درجة من الاعتماد المتبادل ظلت موجودة. لم توجد الوحدة بين الدين والسياسة سوى فى حياة الرسول فيما كان باستطاعته أن يمد أعداد المؤمنين المتنامية بالإرشاد المباشر عن كيفية تسيير حياتهم اليومية على أساس من الهدى الدينى الإلهى. وبوفاته، واجهت جماعة المؤمنين أزمة قيادة سياسية ودينية معا، ولم يحدث أبدا أن اتحد المجالان الدينى والسياسى بالأسلوب ذاك، حتى فى فترات التاريخ الإسلامى التى تعتبر أقرب لهذا المثال من غيرها.

وعلى الرغم من العلاقة المعقدة تاريخيا بين المجالين، ظل دائما المبدأ الجوهرى بوجوب أن يعيش المسلمون جميعهم وفقا لمشيئة الله، وأنه ينبغى، بالضرورة، أن تحكم الأمة وفق المبادئ الإسلامية كما نص عليها القرآن والسنة، ظل يُنظر إليه على أنه مشروع ومهم فى آن. من ثم، فإنه وفقا لهذا المبدأ، فليس ثمة تعارض بين الدين والسياسة هذا على الرغم من أن هذا لم يكن أبدا الحقيقة الواقعية الكاملة. وفى واقع الأمر فإن

العالم الإسلامى لم يكن أبدا معزولا عن التوجهات الاجتماعية/ السياسية العالمية، ومن ثم، فقد تحرك مبتعدا عن مثال الوحدة الإسلامية وشهد مزيدا من التشظى بمرور الوقت. وإزاء هذا التوجه نحو مزيد من العلمانية والتشظى، فإن غاية الإسلاميين المعاصرين هى تحقق ما يرونه حالة الوجود المصدّقة الأصلية التى يرغبونها أكثر من أى شىء آخر: العودة إلى عصر الإسلام الذهبى، والذى يُعبَّر عنه سياسيا بأنه إعادة إقامة الخلافة، بحيث لا يوجد سوى أقل قدر ممكن من الاختلاف بين المجالين. وعلى الرغم أن هذا الكتاب لا يسعى إلى تقييم أهداف بن لادن الشخصية لكنه، ومن أجل فهم منطق رسالته وجاذبيتها، فمن الأمور الحاسمة الاعتراف بأنه يطرح مفهوما للإسلام لا يرى أى تناقض بين العقيدة الإسلامية والفعل السياسى، بل إنه، فى واقع الأمر، ينظر إلى العمل السياسى على إنه إنجاز ضرورى يُكمل العقيدة وينبع منها.

وفيما أنه من السهل الموافقة على أن بن لادن ينظر إلى نفسه وإلى رسالته على أنهما إسلاميتان أولا قبل كل شىء (وكما بينّا من قبل، فإن الأصوليين الدينيين من أية عقيدة يعتبرون أنفسهم المؤمنين الحق)، يظل سؤال سبب أنه ينبغى على الآخرين أن يشاركوه نفس النظرة محملاً بالمشاكل. ومن خلال اختزال أى نقاش ذى معنى منذ البداية، فإن مناخ ما بعد ٩/١١ السياسى والذى قَسّم العالم إلى قوتين للخير والشر - إذا لم تكن معنا، فأنت معهم!- لم يسمح سوى لإجابة واحدة مشروعة عن سؤال ما إن كان بن لادن يمثل الإسلام أى: «لا» قاطعة. بيد أنه، ومرة أخرى، فإن الواقع لا يتسق مع هذه الثنائية بالغة التحديد. وفى

الواقع، فإن القول المحدد الوحيد الذى يمكن للفرد الإدلاء به حول مصطلح «الإسلام» هو أنه غير محدد ويعنى أشياء مختلفة لمختلف الأفراد. وفيما يتفق المسلمون عامة على أن شهادة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» هى إعلان للإيمان لا تقبل أية تأويلات متباينة، فإن معنى كثير من المبادئ والأفكار الأخرى، إن لم تكن جميعها، وسؤال ما إن كانت لا تقبل الجدل وإنها ثابتة لا تتغير، هو موضوع آخر تماما. إن الاستجابة الواضحة والتى تتكرر كثيراً هى «انظر إلى القرآن» لكن فى القرآن، ومثل جميع الوثائق الأساسية، فإن معنى الرسالة يكمن فى عينى الرائى. وفيما أن تأويل النص المقدس أمر مشكل فى جميع الأديان، فإنه صعب بخاصة فى حالة الإسلام.

الملاحظة الأولى التى يمكن طرحها فى هذا الصدد هى أن القرآن ذاته وعلى الرغم من أن أجيالا من المشرعين المسلمين ذهبوا إلى أنه ليس ثمة إمكانية لإضافة أية تشريعات فى مواجهة الإرشاد الدقيق الواضح الذى يوفره القرآن للبشر، يشجع التساؤلات بدرجة أنه يغرس الشكوك حول ثبات التنزيل وعدم تغيره. ينص القرآن تحديدا على أنه ثمة آيات مبهَمة لا يعلم معناها المحدد سوى الله. علاوة على ذلك، فإنه يتم تحدى فكرة القول بثبات التنزيل وأبديته حينما يؤكد أن الرسالة يمكن أن تتغير حيث تنص الآية ٨٦ من سورة الإسراء على أنه «ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا»- ويصبح التحدى أكثر وضوحا لدى الأخذ فى الاعتبار أنه كان ثمة مراجعات منهجية للقرآن كما تُبين آيات نَسَختْ سابقاتها مثل: «ما ننسخ من آية أو نُنسِها نأتِ بخير منها

أو مِثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير» (البقرة: آية ١٠٦)، و«إذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما يُنزّل قالوا إنما أنت مُفتر بل أكثرهم لا يعلمون» (النحل: ١٠١) و«ما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبّى إلا إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يُلقى الشيطان ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم» (الحج: آية ٥٢). علاوة على ذلك، فثمة توافق شبه شمولى بين المسلمين على أن تأويل القرآن على أساس سنة الرسول يوضح المعنى ويكمله. بيد أن البرجماتية التى تميز السنة تعنى إمكانية حدوث متبادل لتبريرات شديدة التنوع ومعها مواقف حصرية فى الممارسات العملية. وعلى الرغم من النقد الذى خضع له هذا التنوع وعدم الاتساق، فإن غالبية المسلمين يقبلون مرجعية السنة بشكل عام ولا يرون أى خطأ فى تغيير الرسول للمواقفه تبعا لتغير الملابسات. مثل تلك السابقات تدعم الفكرة العامة فى التشريع الإسلامى بأن الضرورات والمصالح تبيح المحظورات. يمكن القول إذن، مع مخاطرة الإفراط فى التبسيط، إن تحديد ما هو إسلامى يتوقف على ما إن كان المستعلَم عنه هو فى مصلحة الأمة، ومن ثم، فيحتمل لهذا الحكم أن يتأثر بمصالح الفرد أو المجموعة المسئولة عن اتخاذ القرارات السياسية وتحيزاتهم.

وعلى الرغم مما كانت تعكسه ممارسات الرسول من مرونة، ومن مرونة التأويلات القرآنية، يظل السؤال حول كيفية تحديد ما هو ضرورى وما هى المصلحة العامة ومن يحدد ذلك، قائما. وفى الواقع فإن مشكلة من يتخذ هذا القرار تزداد تعقيدا لأنه، وعلى الرغم من التأكيد على عضوية الفرد فى جماعة المؤمنين فليس ثمة حس بخضوع الأفراد

لممثلين للسلطة الروحية. لذا، نجد أن الفقه الإسلامى يؤسس على هذه الفكرة بمفهوم الإباحة الذى يُعترف بمقتضاه بحرية الفرد فى اتخاذ القرار خارج نطاق الأوامر والنواهى القرآنية المحددة. وهكذا، فطالما يؤمن الفرد بألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤدى الفرائض ويجتنب النواهى التى نص عليها القرآن، فإنه هو، فى نهاية المطاف، من بيده أمر إيمانه وعقيدته. وعلى الرغم من أن علماء المسلمين يتلقون من التعليم ما يؤهلهم لممارسة الاجتهاد وتحديد معنى النص القرآنى – مع اتباع مبدأ أنه ليس ثمة وسطاء بين العبد وربه – فلا توجد سلطة دينية مؤسسية لتسوية الخلافات الفقهية بينهم.

لا غرو إذن أن غدا المسعى إلى سبيل الإسلام الحق، بدءا من السلوك المناسب فى الحياة اليومية وإلى إقامة أشكال رسمية رشيدة لحكم الأعداد المتنامية من المؤمنين، غدا مهمة أدت إلى نقاشات خلافية واضطرابات بعد وفاة الرسول. يشهد التاريخ الإسلامى على الخلافات الكثيرة التى لم يتم حسمها: لم يقتصر الأمر على الانقسام بين علماء السنة والشيعة بل حدثت انقسامات عديدة داخل كل مجموعة حيث انقسم السنة إلى مذاهب أربعة – الحنفى، والمالكى، والشافعى والحنبلى – فيما انقسم الشيعة إلى الإماميين، والإسماعيليين والزيديين وتفرعات كل منها. وبمرور الوقت، ومع عمليات التحديث والتعليم الجماهيرى، لم تحسم الخلافات حول من له حق التحدث كمرجعية باسم الإسلام، بل تعاظمت. ومن بين التضمينات العديدة لتلك التوجهات الكوكبية، بدءا من تطور المجتمعات السياسية الحديثة، إلى وجود هويات وفُرص جديدة،

وأيضا أشكال جديدة من عدم المساواة. نجد أن ثمة قضيتين متداخلتين تكتسبان أهمية خاصة لدى تقييم منطق بن لادن. إحدى هاتين القضيتين هى تشظى المرجعية الدينية. ومع إتاحة المصادر المرجعية، التى كانت مقصورة على القلة المتعلمة، لجماهير المتعلمين لم يعد ثمة حاجة لأن يتولى العلماء تأويل النص المقدس، بل إن ذلك غدا فى متناول كل فرد. وأيضا، وكما بين حسن الترابى قائد جماعة الإخوان المسلمين بالسودان، فى مقولته التى أوردناها سابقا، فإنه، ونظراً لأن المعرفة جميعها مقدسة ودينية، فإن الكيميائى، والاقتصادى، والمشرّع جميعهم علماء. يعوض هؤلاء العلماء الجدد عما يفتقدونه من حيث التعليم الدينى الرسمى بالحماس الذى يميز محاولاتهم المستمرة للتعبير عن آرائهم – فى الإصدارات المطبوعة، والفضائيات العربية مثل الجزيرة، أو من خلال إسلام أون لاين – ويتحدثون عن المبادئ العامة والاهتمامات المعاصرة دونما أية إحالات محددة إلى المبادئ التى رسختها مدارس الفقه السنية الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، ولا يستشهدون سوى بمجتزآت قليلة من الأعمال الفقهية الكلاسيكية. كانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور هى ما يتحدث عنه وائل حلاق بصفته «موت الشريعة» الموروثة بمعنى أنه فيما يتولى الأفراد المسلمون تأويل الإسلام لأنفسهم، يظهر طيف متسع من التأويلات التى توفر آراء بديلة عن آراء المؤسسات الدينية التقليدية مما يجعل حسم ما هو إسلامى وما هو غير إسلامى أكثر صعوبة. ومن الواضح أنه من المحتمل لهذا أن يشكل أكبر معضلة وأعظم تحدى للإسلام فى العالم الحديث المعولم.

يتصل بهذا المزيج من تراجع البنى التقليدية التدريجي، وتطور هويات جديدة نتيجة للعولمة وتزايد تشظى المرجعية الدينية ظاهرة يسميها إيكلمان وپيسكاتورى «تجسيد وعى المسلمين objectification of Muslim Conciousness، وهى عملية تتجسد الأسئلة الأساسية مثل تلك المتعلقة بالمعنى الحقيقى للإسلام وكيف ينبغى له التأثير فى سلوك الفرد، تتجسد فى مقدمة وعى المؤمنين ويتمحور اهتمامها الرئيسى بأسئلة حول تطبيق المبدأ الإسلامى؛ مثلا، ماذا يعنيه أن تكون مسلما فى عالم لا يماثل بإطلاقه عالم الرسول؟ وكما أوضحنا فى الجزء السابق، فمن المحتم أن ينتهى البحث عن الإسلام الحقيقى فى العالم الحديث بفيض من الإجابات المختلفة عبر طيف من التأويلات الموجودة التى تراوغ التصنيف. ونظرا لأنه لا يوجد فى الإسلام ما يناظر البابوية، فإن الحكم النهائى يكمن فى ضمائر الأفراد المؤمنين. وإذا جمعناها معا، فإن هذه الملاحظات تؤدى إلى النتيجة الحتمية، والمحتمل لها ألا تكون مريحة: إنه فى واقع الممارسات المعاشة، وإن لم يكن فى الجوانب العقائدية، فإن ثمة عدداً من الإسلام يناظر عدد الأفراد المسلمين.

التنافس على المرجعية المقدسة:

يتيح العدد المتزايد من آراء العلماء – وآراء من هم أقل من علماء – عما يقوله الإسلام بشأن شئون العالم الحالية لمن يبحثون عن الإرشاد الروحانى مستوى غير مسبوق للاختيار. ويعنى هذا بدوره أن هؤلاء الذين يرغبون فى ترسيخ آرائهم بصفتها المعنى الحقيقى للإسلام ومشاركة الآخرين فيها – سواء كانوا علماء أو إسلاميين – يدخلون

مباشرة مجال التنافس على المرجعية المقدسة التى من خلالها يكسبون أفئدة وعقول هؤلاء الذين يهدفون إلى إقناعهم بصواب رسالات كل منهم وأجنداتهم وصلاحها. يحاول كل منهم إقناع جمهوره من خلال الرموز الدينية التى من خلالها يقرر عامة المسلمين أن تأويله للنصوص المقدسة يرقى إلى كونه مشيئة الله الحقة. قد لا يكون بن لادن مفكرا مبدعا أو عالما تلقى تعليما دينيا رسميا. لكنه يملك موهبة خطابية فذة تحوِّل رسائله إلى ما وصفه برنارد لويس بأنها «قطع رائعة من النثر العربى البليغ، بل والشعرى أحيانا»، يدعم صورته كرجل متدين من خلال ظهوره بالزى التقليدى للمسلمين الورعين، كما يُضفَى عليه مظهر البطولة والتضحية بالذات من خلال القصص التى تُتداول عنه كرجل أعمال ثرى هجر متع حياة والرفاهية من أجل العقيدة. وفى بيئتنا اليوم التى تتميز بتسارع الخطى وحيث تحل الانطباعات السطحية محل التقييم المتعمق الذى يراعى ظلال الفروق والمعانى، فإن بن لادن يمتلك كل الصفات المطلوبة للزعيم الدينى المُلهِم: يظهر بمظهر المؤمن الحق، ويتحدث كما يتحدث المؤمن الحق - إذن فلابد وأن يكون مؤمنا حقا.

لكن هذا لا يترك فقط تأثيرا سطحيا لأن رسائل بن لادن تصل إلى أعماق وعى المسلمين الجمعى فى أنحاء الكوكب. مثلا، فإن «السعودية» و«فلسطين»، وهما تيمتان مركزيتان تتكرران فى كثير من خطبه، محملتان بالعاطفة والترميز فى مخيلة المسلمين السياسية، حيث تقع بهما أقدس مدن الإسلام، أى مكة والمدينة والقدس، والتى تمثل المشهد الذى عاش فيه الرسول، وأُسرى به إليه، ومنه بزغ الإسلام. وُلد الرسول

بمكة التى يحج إليها المسلمون وتلقى فيها الوحى، وهاجر إلى المدينة التى فيها قوى الإسلام وانتشر، وأُسرى به إلى القدس التى عرج به منها إلى السماء. وكما يوضح پيسكاتورى فإن «لأراضى بلاد العرب وفلسطين حرمة خاصة، ولهذا فهى تكتسب أهمية أوسع، وبخاصة فى خضم التنافس على المشروعية التى تسم سياسات الشرق الأوسط». من ثم، فحينما ينادى بن لادن بتحرير أرض الحرمين والمسجد الأقصى ويطالب بطرد الجيوش الأجنبية من أراضى الإسلام، فمن المحتم أن يلمس وترا عاطفيا حساسا فى نفوس جمهوره من المسلمين. بيد أنه من التضليل اتهامه باستغلال تلك الرموز المشحونة عاطفيا لتحقيق أهداف أخرى، فإنه، وبالتقابل مع صدام حسين الذى كان ربطه لقضية فلسطين بانسحابه من الكويت حركة ذكية لكسب دعم شعبى عربى لم يكن من المحتمل له أن يكسبه بأسلوب آخر، فإن بن لادن يرى تحرير أراضى الإسلام المقدسة بصفته معلماً أساسياً باتجاه الغاية النهائية لإصلاح الأمة واسترداد مجد الإسلام. ليست فلسطين شأنا عرضيا على أجندته – إنها أجندته، ويوضح أى مسح لبياناته العامة وڤيديوهات التجنيد هذا بجلاء. يستنكر ما يعتبر بيان بن لادن الأول الذى استهدف جمهورا عريضا وكان عنوانه «خيانة فلسطين» وخاطب من خلال عبدالله بن عبدالعزيز بن باز مفتى السعودية، يستنكر المصادقة عام ١٩٩٣ على اتفاقيات أوسلو بصفتها «خيانة لكلمة الله ولأمة المؤمنين» .كانت خلفية هذا الخطاب مناخ نقد أوسع لقرار صادق عليه العلماء أجاز وصول القوات الأجنبية إلى المملكة عام ١٩٩١، وهو عمل رأى بن لادن أنه أدى إلى اقتحام المعايير الغربية وإفساد الملَكية والاعتماد المطلق على الولايات

المتحدة، مما نتج عنه خيانة القضية الفلسطينية - التى تجسدت فى اتفاقيات أوسلو، من أجل إرضاء واشنطن. تنقل كلمات بن لادن هذه الرسالة بأسلوب مقنع مشحون بالعاطفة:

إن ما تتخبط فيه البلاد من أزمات اقتصادية وسياسية، وما انتشر فيها من جرائم بشتى أنواعها وبشكل مذهل، ما هو إلا عقوبة من الله.. ولما قررت قوات التحالف الصليبية واليهودية الغازية فى حرب الخليج - بتواطؤ - مع النظام احتلال البلاد باسم تحرير الكويت سوغتم ذلك بفتوى متعسفة بررت هذا العمل الشنيع الذى أهان عزة الأمة. ولطخ كرامتها ودنس مقدساتها.. وكأنكم لم تكتفوا بإباحة بلاد الحرمين الشريفين لقوات الاحتلال اليهودية والصليبية، حتى أدخلتم ثالث الحرمين فى المصيبة بإضفائكم الشرعية على صكوك الاستسلام التى يوقعها الخونة والجبناء من طواغيت العرب مع اليهود.. إن الواجب الشرعى تجاه فلسطين وإخواننا الفلسطينيين من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ولا يهتدون سبيلا، هو الجهاد فى سبيل الله وتحريض الأمة عليه حتى تتحرر فلسطين عن آخرها وتعود إلى السيادة الإسلامية.

من الواضح أن السعودية وفلسطين، وكأبعد ما أن تكونا عن أنها خواطر لاحقة أو ذرائع، فقد كانتا، ومنذ البداية من قضاياه المركزية. وفيما توسعت قائمة القضايا تدريجيا لتشمل حالات من معاناة المسلمين فى أنحاء العالم، وغدا تحديد العدو الرئيسى، سبب جميع تلك البلايا - الولايات المتحدة أولا، ثم التحالف اليهودى الصليبى - أكثر دقة، ظلت السعودية وفلسطين على أجندته منذ آنذاك. يوضح خطاب بن لادن فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٩٦، والذى يشار إليه باسم «إعلان الجهاد ١٩٩٦» والذى أصدر دعوة مؤكدة لـ «طرد المشركين من شبه الجزيرة العربية..» يوضح التطور الذى حدث حيث يخاطب «إخوانى المسلمين فى أنحاء

العالم» لا جمهور الشرق الأوسط وحده، ويوسع نطاق مناشداته فيما يستدعى أمثلة على معاناة المسلمين فى ظل صفاقة إمبريالية الولايات المتحدة الصارخة بدءا من الشرق الأوسط ووسط آسيا والقرن الإفريقى وحتى القوقاز والبلقان وجنوب شرق آسيا. بيد أنه من الأمور الدالة أن بن لادن، ووسط ذلك السرد المطول للانتهاكات والظلم، يركز على قضية يراها من أكثر القضايا مدعاة للقلق - استمرار الاحتلال للسعودية:

من أعظم المصائب التى أصيبوا بها منذ وفاة النبى ألا وهى احتلال بلاد الحرمين - عقر دار الإسلام، ومهبط الوحى، ومنبع الرسالة، وبها الكعبة المشرفة، قبلة إخواننا المسلمين أجمعين - وذلك من قبل النصارى من الأمريكيين وحلفائهم.

بالنسبة لبن لادن فإن القضية الموجودة على المحك هى تحرير الأمة الإسلامية فى أنحاء الكوكب، التى اصطفاها الله، وأراضى الإسلام المقدسة، السعودية وفلسطين، من قبضة الغزاة الآثمين، الأمر الذى هو واجب أخلاقى ودينى لجميع المؤمنين. وعندما يتوحد المسلمون باسم الله، سيصبح بالإمكان استرداد مجد الإسلام:

«إخواننا المسلمين فى العالم أجمع، إن إخوانكم فى بلاد الحرمين وفلسطين يستنصرونكم، ويطلبون منكم مشاركتهم فى جهادهم ضد أعدائهم وأعدائكم من الإسرائيليين والأمريكيين بالنكاية فيهم بكل ما من شأنه أن يخرجهم مهزومين مدحورين من المقدسات الإسلامية، كل بحسب استطاعته، قال تعالى «وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر» (الأنفال: ٧٢).

قام بن لادن فى الحوارات والخطابات التى بُثت فى وقت متأخر فى عام ١٩٩٦، وفى عام ١٩٩٧ بالتأكيد بجلاء على هذه النقاط وإضافة التفاصيل إليها. فى فبراير ١٩٩٨، أدانت «الجبهة الإسلامية العالمية» التى كانت قد تشكلت حديثا بقيادة بن لادن، رسميا سياسات الولايات

المتحدة بصفتها إعلانا واضحا للحرب على الله ورسوله والمسلمين، ثم، وفى محاولة بالوصول بمرجعيته الدينية إلى حدها الأقصى، أصدر فتوى تجيز الجهاد ضد أمريكا وتدعو إلى قتل «الأمريكيين وحلفائهم، مدنيين وعسكريين.. كلما تيسر ذلك». ثم تبعت الأفعال الأقوال فى أغسطس من نفس العام من خلال التفجير المتزامن لسفارتى الولايات المتحدة بكينيا وتنزانيا، الأمر الذى كان بمثابة نذير للإرهاب الذى كان له أن يضرب قلب الولايات المتحدة فى ٢٠٠١. وعلى حين أن بن لادن كان يكيف رسائله مع الملابسات المتغيرة على المسرح الدولى، مع تكشّف «الحرب ضد الإرهاب» الخلافية، إلا أن منطقه الداعى إلى وحدة الأمة الإسلامية ظل دونما تغيير. فى إحدى رسائل بن لادن الصوتية التى أصدرها مؤخراً فى استجابة منه لمأساة غزة فى مارس ٢٠٠٩، نجد أن نفس التيمات التى أصبحت مألوفة إلى أقصى درجة، تطفو على السطح مرة أخرى. يتحدث بن لادن عن تحرير «الأرض المباركة» وإنهاء معاناة الفلسطينيين «إخواننا وأخواتنا فى الإسلام» وهزيمة المصدر الأساسى لكل تلك الشرور، أى التحالف «الصليبى/ الصهيونى» من خلال الجهاد. يوضح الأسلوب الذى يخاطب به بن لادن جمهوره تكرارا ويدعوهم «أمتى» وبما لا يدع مجالا للشك، طموحه عبر/ القومى الذى يرتكز على مفهوم وحدة الأمة الإسلامية.

الدفاع عن الإسلام: واجب كل فرد:

من المرجح أن استخدام المصطلحات العاطفية ليس مجرد صدفة، أو دليلاً على استغراق عاطفى شخصى، الأحرى أنه أداة خطابية ذكية مجدية يعمل من خلالها بن لادن على إضفاء سمة فردية مميزة على

الدعوة إلى الدفاع عن الأمة والإسلام لجمهور يتكون من مسلمين ينتمون إلى تنويعة عريضة من القوميات والخلفيات الاجتماعية. وبتأويله هذا لمعنى الإسلام الحق فى إطار السياق الاجتماعى/ السياسى الحالى - أى حالة الأمة البائسة نتيجة لسياسات الولايات المتحدة القامعة - يُرشد بن لادن جمهوره إلى مسعى أخلاقى. بتعبير آخر، فإنه فى واقع الأمر ينقل إليهم مفهوم المسئولية الشخصية، أى أن كل فرد مسلم مناط به / بها فعل ما باستطاعته/ ها لمعالجة هذا الوضع غير المقبول:

«يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتُم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل» (التوبة: ٣٨).

أيها المسلمون، هل تريدون أن تسلكوا الصراط المستقيم مرضاة لله؟ هل تريد أن تخضع لإرادة الله؟».

يكشف الأسلوب الذى صيغ به السؤال عن أهمية المسعى الأخلاقى الذى يُدْعى كل فرد فى جمهور المستمعين إلى المشاركة فيه. يخاطب الجزء الاستهلالى من السؤال الجمهور بأكمله فيما يتوجه الجزء الثانى إلى الفرد تحديدا. وبانتقاله من التحدث إلى الجمهور ككل إلى مخاطبة الفرد يعمل بن لادن على إشراك كل مستمع فى ذلك المأزق الأخلاقى.

ليس التركيز على ما هو شخصى ودفاعى الذى يُراعى هنا هو مجرد أداة بلاغية بل إنه أيضا أسلوب للتغلب على متطلبات الجهاد الشرعية. ينقسم الجهاد فى الموروث الإسلامى إلى مصنفين: «الدفاعى» و«الهجومى». الدفاع الهجومى مسئولية جمعية لفتح مزيد من الأراضى وتحويل شعوب جديدة إلى العقيدة، لكن من ينبغى أن يدعو إليه هو

الخليفة، قائد الأمة الإسلامية. ومع الغياب الفيزيقى للخليفة فى بيئة العصر الحالى، لا يضطلع بن لادن، وبخلاف بعض التوقعات، بدور القائد الجديد للأمة. وفى واقع الأمر فإن طموحاته أكثر تواضعا حيث يكتفى بتذكير أقرانه المسلمين بالجهاد «الشخصى» الذى لا يقتصر على مجرد السعى لأن يصبح الفرد مسلما أفضل، بل يقتضى الدفاع عن العقيدة الإسلامية، والأمة الإسلامية، والأراضى الإسلامية ضد هجمات غير المسلمين. ولا يتطلب هذا إعلانا رسميا للحرب لأن العقيدة تفرض على كل مسلم المشاركة فى القتال ضد المعتدى بأكثر ما باستطاعته. وبصفته هذه، فإن بن لادن ليس بحاجة إلى مرجعية أى شخص آخر أو سلطته من أجل إضفاء الشرعية على دعوته لأن المبادئ والممارسات التاريخية تبطل أى زعم بأنه غير مؤهل بما يكفى لقيادة الجهاد وذلك لافتقاده أية مسوغات دينية. يرى مايكل شوير أن «عبقرية بن لادن لا تكمن فى دعوته إلى الجهاد الدفاعى، بل فى تشكيله حجة مقنعة متسقة بأن ثمة هجوماً قائماً على الإسلام وأن هذا الهجوم تقوده أمريكا وتديره، وفى تعبيره عن تلك الحجة». وفى ضوء رُقى بن لادن الخطابى والبلاغى، فعلينا القول إن ما يقوله شوير صحيح جزئيا. إن تشكيله لمفهوم أمة تتعرض للهجوم وتحتاج إلى الإنقاذ هو الخطوة الأولى – لكن عبقريته الحقة تكمن فى قدرته على نقل تلك الحجة وذلك المفهوم وتحويلها إلى أحداث ذات أهمية كوكبية عن العلاقات الدولية تصنع العناوين الرئيسية فى الإعلام، وجعلها مشكلة شخصية يمكن أن تنطبق على كل مؤمن. وهكذا، يصبح إصلاح الأمة واسترداد مجدها، حتى من خلال

القوة القاتلة فريضة على كل فرد يسمى نفسه / نفسها مسلم صالح - وتلك رسالة تبدو للبعض أكثر جزما وموثوقية فى عالم حديث معلمن يفتقد الإرشاد الدينى الواضح.

إصلاح الأمة واستعادة مجدها:

أصول عاطفة وحدة الأمة الإسلامية:

إن بن لادن من خلال تعاطيه مع قضايا حية تمثل اهتمامات مهمة للعالم الإسلامى، ومناداته الجادة بالعودة لتقاليد عصر الإسلام الذهبى كحل مباشر، وتوجيه خطابه بلهجة واثقة جازمة إلى الأمة الإسلامية أجمعها، فإنه بذلك يوجه اتهاما قويا إلى حالة اللامسئولية والانحراف فى المجتمعات الإسلامية ويطرح خطة بسيطة للعمل. يظل احتمال نجاحه فى تحقيق غايته النهائية لتوحيد الأمة من خلال الجهاد - بكل ما تضمره الطبيعة العشوائية للأساليب التى يتبناها من تدمير وإراقة دماء - يظل موضع شك، فى أفضل الأحوال، حتى فى أذهان من يتعاطفون مع أهدافه. بيد أن بن لادن جعل إسلام العصر الحديث موضوعا للنقاش الخلافى. فمن خلال دعوته بأسلوب مقنع للعودة للتقاليد والقيم الإسلامية الأصلية، وسعيه لتأويلها بأسلوب يجعلها قابلة للتطبيق العملى فى الأوضا ع الراهنة، يقدم، بقدر كبير من الصراحة والإخلاص، معيارا يمكن على أساسه قياس الوضع القائم ونقده وبذلك، فهو يوفر الإرشاد الدينى للمؤمنين، وفى نفس الوقت يصدر حكما دينيا - ومبررا أخلاقيا بمعاييره - على عالم لا يماثل حالياً بإطلاقه رؤيته لعصر الخلافة الذهبى.

وعلى ضوء هذا، فإن علينا وضع القاعدة فى سياق القضايا التى أسهمت فى ظهور الدعوة إلى وحدة العالم الإسلامى، كأسلوب ذى معنى للتعرف على الأصول الأيديولوجية للقاعدة.

تنامت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ردا على هجمة الإمبريالية المزدوجة وتفكيك مركزية الإمبراطورية العثمانية فى نهاية القرن التاسع عشر. وفيما أسهم مختلف المؤيدين لها من أمثال السلطان عبدالحميد (١٨٤٢- ١٩١٨) ودعاتها مثل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨- ١٨٩٧) والمدافعين عنها من أمثال ويلفرد بلانت ١٨٤٠- ١٩٢٢ جميعهم فى جعل الفكرة المبهمة عن الوحدة الإسلامية رمزا للوضع الإسلامى الحديث، فقد كان المجلس الوطنى التركى الأعلى هو من تحدى المؤمنين وغير المؤمنين معا حينما ألغى الخلافة فى مارس عام ١٩٢٤.

تنبأ الكماليون بحتمية علمنة المجتمعات الإسلامية؛ واعتقد المؤمنون الملتزمون أن ذلك سيضعف المسلمين فى تفاعلهم مع الغرب؛ أما المكاتب الكلونيالية فقد خشيت أن يحفز القرار الانتفاضات فى أنحاء العالم الإسلامى. وعلى الرغم من عدم حدوث أى من هذا، فقد بدأت جاذبية فكرة تضامن المسلمين التى لم تختف أبدا، تجسد نفسها من جديد، باكتساب مكان لها فى تكوين الدول الإسلامية الحديثة، ثم مؤخرا، فى محاولات تقويض تلك الدول.

ظهرت، فى السنوات التى تلت، منظورات حول أهمية الخلافة كحالة ضرورية للوحدة الإسلامية أو تعبيرا عنها، وتراوحت تلك الآراء بين هؤلاء الراغبين فى إعادة إنشاء مؤسسة دينية/ سياسية خالية من الشوائب التى كانت تعيبها (حيث كانت قد تعرضت للتشوهات فى التجربة

العثمانية المتأخرة) إلى هؤلاء الذين رأوا أن دمج السلطة الدينية والسياسية غير مفيد ومعوق بل وحتى خطير، والمتكيفيين مع الأوضاع القائمة الذين رأوا فى إقامة منظمة دولية تشارك فيها الدول الإسلامية المستقلة بصفتها الطريقة المثلى للتكيف مع أوضاع ما بعد الحرب. وفى وجود تلك الآراء المتنوعة، وعدم وجود قيادة سياسية بارزة تطور مشاعر الوحدة الإسلامية وتجعل منها واقعا، بدت الدعوة وأنها وصلت إلى الحضيض. يرى لاندو أن «من المفارقات أنه بين القلائل الذين اعتقدوا أن الدعوة إلى الوحدة الإسلامية تمثل قوة فاعلة كانوا هم المسئولين وضباط الجيش الأجانب الذين كان من مهامهم إثباط تهديد الوحدة الإسلامية». بيد أنه، وعلى الرغم من أن الداعين إلى الوحدة لم يتوصلوا إلى اتفاق حول كيفية إقامة الأمة، فقد ظل المس بوحدة الأمة الروحية راسخا بصفته من المعطيات غير القابلة للجدل حيث إنها تتسق مع الآيات القرآنية التى تشير إلى «الأمة الواحدة». ومن منطلق روحانى، فقد طُرِحت فكرة الوحدة بصفتها ضرورة جوهرية عضوية للإسلام. وتم الفصل بينها، إلى حد كبير، وبين التعبيرات القانونية الواضحة عن مفاهيم مثل الخلافة ودار الإسلام وأهل الذمة، بل إنه، وكما يذكرنا پيسكاتورى، فإن النقاشات الأكاديمية والفقهية حول تلك المواضيع، كانت هزيلة بدرجة لافتة.

فى النصف الثانى من القرن العشرين، وعلى الرغم من الاختفاء التدريجى لرسالة الخلافة السياسية، فلم تختف فكرة رسالة الإسلام السياسية حيث رأى الكثيرون أن الأمة بحاجة إلى شكل من التعبير السياسى. بيد أنه وأيا كان قدر شيوع الحس الناجم عن إدراك وجود

حاجة للتضامن الإسلامى، فقد كان على هذا الحس التنافس مع ظهور المشاعر الوطنية البازغة فى الدول القومية المسلمة، أو على الأقل مع تعزيز حكم وأنظمة الأسر المالكة فى كل دولة على حدة. وفى سياق تلك التطورات الهيكلية، حل هدف توحيد سياسات الدول الإسلامية محل الهدف السياسى لإقامة دولة إسلامية موحدة تماثل الخلافة. وعلى الرغم من أنه كان قد ظل للإسلام دائما بُعد كوكبى، فقد كان من هنا أن انبثق مفهوم التضامن الإسلامى، أو ربما من الأصوب القول تضامن المسلمين: حتى إن لم يكن من الممكن توحيد المسلمين تحت حاكم واحد، فقد غدا الاهتمام بسلامة جميع أتباع العقيدة، بل وبشكل من المسئولية عنهم، بغض النظر عن جنسيتهم، بندا من بنود المدرك الإسلامى الحديث. من ثم، فحينما يستنكر بن لادن معاناة المسلمين الكوكبية، فإنه بهذا يخاطب جوهر وعى المسلمين.

وفى المجال السياسى، تم التعبير عن الحس الجديد بالتضامن الإسلامى بقيام منظمات أسستها الدول مثل مؤتمر المسلمين العالمى؛ رابطة العالم الإسلامى، ومنظمة المؤتمر الإسلامى. بيد أنه وعلى الرغم من تنويه تلك المنظمات الشفاهى عن دعمها لمثال التضامن الإسلامى النبيل، فإن التفحص الناقد يكشف أنه فى واقع الأمر، فإن النخب القومية كانت تستدعى فكرة الوحدة الإسلامية لخدمة جميع الأهداف باستثناء ما يصب فى صالح الوحدة الإسلامية. سعى هؤلاء، وفيما كانوا يركزون أبصارهم على الجماهير المحلية من ناحية، وعلى الدول المنافسة من ناحية أخرى، إلى الظهور بمظهر رعاة الإسلام الجدد، لترسيخ مطالبهم الشخصية بالسلطة فى أوطانهم، ومزاعمهم بالقيادة الكوكبية.

وما التنافس بين السعودية وإيران وباكستان إلا مثال واحد فى هذا الصدد. أما الحركات الإسلامية مثل جماعة الإخوان المسلمين وحماس والجبهة الإسلامية للإنقاذ، فعلى الرغم من الانتقادات الشديدة التى توجهها إلى قياداتها المختلفة بسبب أساليبهم غير الإسلامية، إلا أن مسعى تلك الجماعات لم يتركز أبدا على استعادة الخلافة بقدر مسعاها للوصول للسلطة السياسية فى بلدانها القومية، كل على حدة. يمكن لنا أن ننتهى إلى أن التعبير السياسى عن الوحدة الإسلامية قد تراجع تدريجيا حتى أصبح لا يتعدى كونه التزاما رمزيا بوحدة العقيدة.

قام لاندو فى كتابه «سياسات الوحدة الإسلامية» بعد استعراض هذه التغيرات فى التنظيمات السياسية الكوكبية وتقييم التوجهات الاجتماعية السياسية الأوسع، بدراسة متمعنة للموجة الجديدة من التعبير عن الوحدة الإسلامية. انتهى فى عام ١٩٨٩ إلى أنه «فيما تتحرك أجزاء واسعة من العالم باتجاه أشكال ملموسة من الترابط، فقد يقوم دعاة الوحدة الإسلامية بتحويل الحلم الذى راودهم منذ ١٢٠ عام من اليوطوبيا إلى واقع سياسى». أما پيسكاتورى فيوضح فى عام ٢٠٠٤ أنه:

فيما بدا بُعد الوحدة الإسلامية وأنه يتراجع، سعى بعض الراديكاليين، إلى ملء الفراغ. يسعون، فى رأيهم، إلى استعادة الأمة من الدول القومية وأنظمة الأسر الحاكمة. والأمثلة واضحة: حزب التحرير الإسلامى، والمهاجرون (فرع الحزب فى بريطانيا)، وأسامة بن لادن وأيمن الظواهرى (قائدى القاعدة). عملياً، لجأ دعاة الوحدة، إلى العمل السرى، ثم عادوا إلى الظهور بأسلوب مذهل وهاجموا بشكل واحد ضارٍ الوضع القائم باسم «موروث» لم يظهر إلا متأخرا نسبيا. أرجع بيان بن لادن الذى بثه فى ٧ أكتوبر ٢٠٠١ تاريخ المشاكل الراهنة التى يعانى منها العالم الإسلامى إلى ثمانين عاما سابقة، ويحتمل لهذا التاريخ أن يكون إحالة إلى إنهاء

الخلافة عام ١٩٢٤ . يتسق هذا التفسير مع الروايات التى تربط بين التدخل الأوربى والبريطانى بخاصة، وبين النظم العلمانية المحلية - أتاتورك هنا - لتفسير انهيار الوحدة الإسلامية. والآن، فإن الوجود الأمريكى فى الشرق الأوسط وأماكن أخرى مُضرّ بخاصة لأنه اقتصادى وأيديولوجى معا. تتوقف محاولات الأمريكيين للوصول إلى هيمنة على السوق على تقليص الإسلام إلى شكل من الإسلام الآمن، المحافظ، المخصخص إلى حد كبير، مثل ذلك الذى تطبقه النخب الحاكمة فى العالم الإسلامى.

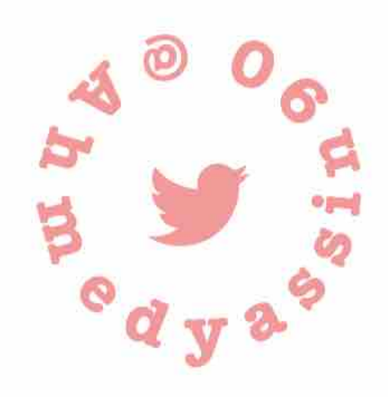
قد لا تكون القاعدة والجهاد الكوكبى هما تحديدا ما تخيله لاندو حينما تمعن فى إصرار دعاة الوحدة الإسلامية على تحقيق حلم طوباوى. بيد أن رؤية إحياء الخلافة التى تجسد نفسها الآن فى التهديد المستدام بالعنف الإرهابى تبدو وأنها قد أصبحت ملمحا دائماً للحياة فى القرن الحادى والعشرين. وعلى حين أن القاعدة لا تماثل ما يفكر فيه المرء تقليديا بصفته تنظيما سياسياً، إلا أنها قد أصبحت، بالرغم من ذلك، واقعا سياسيا. يكمن مفتاح هذا الإدراك فى الاعتراف بمدى أهمية الأفكار. فى هذا العالم الكوكبى الذى تتداخل فيه بتزايد الحقائق والهويات الافتراضية مع تلك الموجودة فى «العالم الواقعى» بل وتحل محلها أحيانا، فلا غرو أن أعظم تحدٍ - حقيقى أو متصور - للأمن فى العالم الحقيقى يأتى من مجال ما هو متخيل، وما يُخْشى منه. لكن، إلى أين يؤدى هذا؟

نحو وحدة الأمة الإسلامية، أم التشظى المرير؟

يمكن للمرء أن ينتهى إلى أن أسامة بن لادن ليس عالم دين يستمد منطقه من مدرسة فقهية بعينها، كما أنه ليس مفكرا مبدعا بخاصة.

الأحرى أن بالإمكان التوصل إلى تفسير مناسب لمنطق دعوته إلى الجهاد الكوكبى بوضعه فى السياق الأوسع للتطورات السياسية/ الاجتماعية التى غيّرت مشهد الإسلام الحديث. وفى الواقع فإن النظرة المتمعنة فى بياناته تكشف عن أن رؤيته عن استعادة الأمة من قامعيها الآثمين والتى هدفها النهائى إعادة إقامة الخلافة هى تعبير معاصر عن الوحدة الإسلامية. يشكل بن لادن فكرته عن الإسلام على أساس تأويل بديل فردى يتخطى الشقاقات الأيديولوجية داخل الإسلام، ويضع أمة المؤمنين فى مكانة أسمى بكثير من الدول والحكومات الفردية وخارج نطاق تأثير كل ما هو غير إسلامى. نراه يعوض عن غياب خطط محددة متسقة منطقيا تبين كيف لجماعة المؤمنين هذه أن تنتظم على أرض الممارسة الواقعية، بحماسه المتوهج الذى يمكن إيجاز منطقه كالتالى: أولا، ينبغى علينا التغلب على أعداء الأمة، أى الغزو الصليبى / الصهيونى، وحينئذ سيحتل كل شىء وضعه الصحيح، بشكل طبيعى، أو ربما بتدخل إلهى، وبمثل هذا التفكير، لا يرقى بن لادن، بقدر ما، إلى مصاف الرؤى الواقعية للدعاة الآخرين للوحدة الإسلامية الذين عبروا عن أفكارهم عن الإسلام، وعن الترتيبيات اللازمة لقيام «خلافة جديدة» بأساليب أكثر قابلية للتطبيق على أرض الواقع الآن وهنا. بيد أن قوة جاذبية رسالة بن لادن تستند بصلابة إلى عقيدته الراسخة بأنه يمكن تحقيق العالم المثالى الطوباوى، فقط إذا كان المسلمون على استعداد لبذل المحاولات الشاقة المخلصة وللقيام بدورهم لاستعادة الأمة من القبضة الغاشمة للصهاينة/ الصليبيين. وبالرغم من كل ما يتميز به من بساطة فإن نمط المثالية هذا

الذى يضم فى جوهره الحس المتنامى بالتضامن بين المسلمين، هو الذى يلهم، بأسلوب فاعل، هؤلاء الذين يتعاطفون مع أهداف بن لادن، وأولئك الذين يعتنقون بإخلاص مبدأ الجهاد الكوكبى وينفذونه من خلال عمليات فيزيقية. تجسد القاعدة والجهاد الكوكبى أنفسهم بشكل أساسى من خلال ما يقال، عن حق، إنه خوف مبالغ فيه من الشبكات الإسلامية عبر القومية التى يزعم أن الهدف الذى يوحدها هو تدمير الغرب فى مسعاها لإقامة عصر ذهبى إسلامى جديد – وفى هذا صدى لخشية أوربا فى القرن التاسع عشر من معاداة الكلونيالية التى كانت تمثلها الوحدة الإسلامية. لكن، أمن الممكن خلق وجود ملموس فى عالم الواقع من شىء مبهم بطبيعته، شىء يجد تجسيداً له فى عمليات التدمير، ولا أقل من ذلك؟ أو بتعبير آخر، ما سجل أثر القاعدة فى استعادة وحدة الأمة؟ تقتضى الإجابة عن هذا السؤال تسويغ نظرة أكثر تمعناً فى واقع القاعدة فى عالم ما بعد ٩/١١.


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

القاعدة بعد ٩/١١:
دُمِرت، أضعِفت، أم انبثقت من جديد؟

«كان كل افتراض موجود قبل ٩/١١ تجاهل القاعدة خطأ، وكذلك الافتراض بأنها فى حالة تراجع الآن: إنها مازالت أخطر تهديد أمنى دولى على العالم الغربى والعالم الإسلامى معا. لم يُجبَر أسامة بن لادن على الاختفاء كما أنه لم يفقد الصلة بأتباعه. تستخدم القاعدة الإنترنت بتوسع للتواصل مع داعميها، وللدفع قُدماً بهدفها لإقامة قواعد جديدة تنظم منها هجمات إرهابية. يناقض فيض التعليمات المتدفق الذى ترسله إلى أتباعها المقترحات القائلة باحتمال تحولها إلى نوع من التنظيم «الأيديولوچى» أو «المُلهِم» الذى يشجع مجموعات شباب المسلمين التى تحاكيها على الاقتداء بأعظم «إنجازاتها.. ستستمر القاعدة فى تطوير أهدافها الأصلية لهزيمة الغرب، وتغيير الأنظمة فى العالم الإسلامى، وزيادة عدد جيوش داعميها فى أنحاء العالم، وذلك من أجل الإسراع بمقدم الخلافة التى تضم العالم الإسلامى بأجمعه تحت لوائها وتحكمها القاعدة.

-Do not think al - Qaeda Is on the Back Foot, It will Be on the March»
.«in 2007 "Telegraph, 31 Dec 2006, www.telegraph co. co. uk"

أحمد رشيد

منذ بداية الحرب على الإرهاب، احتلت أنباء «النجاحات» وبخاصة المتعلقة منها بالقبض على الشخصيات المفتاح، أو قتلهم، من الذين عُرِف عنهم التورط مع القاعدة، وحالات «الفشل»، مثل هروب بعض الموقوفين من أعضاء القاعدة من المعتقلات وتنفيذ هجمات إرهابية بواسطة جماعات تزعم انتماءها للقاعدة، احتلت العناوين الرئيسية فى وسائط الإعلام الغربية بانتظام. وعلى الرغم من تدفق المعلومات المطرد، يظل من الصعب الإجابة عن السؤال عن أحوال القاعدة بعد ٩/١١. أأُضعِفت بدرجة يمكن معها القول إنها تكاد تكون دُمِرت ولا تستطيع تنفيذ عمليات كبرى؟ أم أنها فى سبيلها إلى العودة إلى الظهور، أكثر قوة وأشد خطرا عما كانته من قبل؟

القاعدة: بين الافتراضات المتناقضة؟

كما ذكرنا فى الفصل الثانى، يُعتقد بعامة أن الفترة التى حدثت فيها هجمات ٩/١١ شهدت ذروة نفوذ القاعدة وفاعليتها. وعلى حين أن هجمات ٩/١١ تُعتبر بعامة أكبر نجاحاتها، نجد أن سدجمان يُقيِّمها فى ضوء ما تلاها من أحداث:

ارتد نجاح ٩/١١ سلبياً على القاعدة. ثمة قرائن على أن قيادات القاعدة توقعت رد فعل محدود من جانب الولايات المتحدة.. لكن اتضح أن هذا كان سوء حساب خطيراً؛ قررت إدارة بوش تجميد أصول القاعدة وغزو أفغانستان من أجل تغيير نظامها، وإنكار أى ملاذ على القاعدة. بيد أن قوات الولايات المتحدة لم تنجح فى القضاء على قيادات القاعدة الذين هربوا من خلال خطوط التحالف الأفغانى أثناء «العملية أناكوندا».

وحقا، فمن المحتمل أن بن لادن وقيادات القاعدة المركزية قد لا يكونون قد تنبأوا بأن الحرب على الإرهاب، التى بدأت عام ٢٠٠١، ستظل مشتعلة بعد ذلك التاريخ بعشر سنوات. يمكن القول إنه، فى أعقاب هجمات ٩/١١ مباشرة، فقد مثل غزو أفغانستان أكثر التطورات تهديدا للقاعدة، حيث إنها كادت تفقد بين عشية وضحايا الموطن المتعاطف الذى كانت قد أنشأته، مقرها المكتمل بأنظمة معسكرات التدريب وحرية الحركة المطلقة. يذهب بيرك إلى أنه «ببداية عام ٢٠٠٢، كان من الواضح أن أصول القاعدة الفيزيقية فى أفغانستان قد دُمِّرت، وتشتت العاملون بها. كما تلقى جوهر القاعدة الصلب أو أولى دوائرها متحدة المركز، هزيمة منكرة». يُدلِّل القائلون بهذا على رأيهم بانخفاض مستوى الهجمات اللاحقة التى نسبت للقاعدة، مثل الهجوم على الملهى الليلى فى بالى عام ٢٠٠٢. يزعم كل من بيرك وسدجمان أن تلك الهجمات دبرتها ونفذتها مجموعات محلية، ولم يبادر بها الجهاز المركزى للقاعدة. بيد أن حكومة الولايات، استمرت فى نفس الوقت فى طرح فكرة الخطر الداهم الذى يمثله تنظيم كوكبى «مُمَركز».

من ثم، ما غدت عليه القاعدة بعد الأضرار التى لحقت بها خلال الحرب على الإرهاب؟ يظل هذا السؤال موضع نقاش خلافى فى أوساط المحللين المختلفين الذين يصرون على أن التهديد الذى مازال مستمرا من مجموعة منظمة، أو هؤلاء الذين يزعمون أن طبيعة القاعدة قد شهدت تغيرا جوهريا. وفى الواقع، فمنذ حوالى عام ٢٠٠٥، ظهرت روايتان متمايزتان ومتناقضتان ظاهريا عن قدرة القاعدة، وتموقعها،

واستراتيجيتها «العلمانية». من ناحية، يؤكد كثير من القادة الحكوميون وخبراء مكافحة الإرهاب أن القاعدة تضعف باطراد ولم يعد بإمكانها التخطيط لهجمات واسعة المدى وتنفيذها. يدلل داعمو هذا الرأى على ذلك بتقلص أعداد مقاتلى القاعدة فى أفغانستان نتيجة لحملة مكافحة التمرد القائمة، وبأن مصادر تمويلها قد تم تجفيفها تقريبا، وبشكل رئيسى بعدم قدرتها العملياتية الملموسة على تنفيذ هجمات ضد الولايات المتحدة والغرب بمستوى هجمات ٩/١١. يشمل أبرز من يتبنون هذه الرؤية مارك سدچمان بفكرته عن «الجهاد الذى فقد قياداته» وچاسون بيرك ونظريته عن «المقاتلين المستقلين» الذين يعملون لحسابهم الشخصى. يرى هؤلاء أن تنظيم القاعدة لم يعد مصدر التهديد، بل إن التهديد يمرَّر الآن من أسفل إلى أعلى، حيث يلتقى أفراد ومجموعات متطرفة فى أحيائهم أو عبر الإنترنت ويخططون للعمليات. ويعمل هؤلاء مستقلين وبدون أية روابط مع التنظيم المركزى باستثناء الرباط الأيديولوجى.

من ناحية أخرى، فثمة من يؤكدون على أن القاعدة تشهد نهوضا. تشير الأطروحات التى تدعم هذا التأكيد إلى قدرة القاعدة المستمرة على التأثير فى الهجمات الأصغر مدى وتنفيذها، والتى توجد عليها أمثلة كثيرة. فى ٥ نوفمبر ٢٠٠٩، أطلق نضال حسن، الضابط بجيش الولايات المتحدة النيران على زملائه بقاعدة فورت هوود، تكساس مما أدى إلى قتل ١٣ شخصا وإصابة ثلاثين آخرين. أيضا، حاول عمر فاروق عبدالمطلب، يوم الكريسماس عام ٢٠٠٩، الهجوم بالمتفجرات على طائرة

فى طريقها إلى دتريوت، وكان قد نجح فى تهريب المتفجرات إلى متن الطائرة فى ملابسه الداخلية، لكن تم التغلب عليه بعد فشله فى تفجيرها وكشفت النيران الناجمة عن خطته. كما شهد يوم ٢٠ أكتوبر عام ٢٠١٠ فشل مؤامرة لتفجير طائرتين تجاريتين بعد أن أدى بلاغا إلى الكشف عن متفجرات مخبأة فى خراطيش أحبار طابعات ليزر كانت مرسلة بالشحن الجوى على طائرات من اليمن إلى الولايات المتحدة. يشمل من يقولون إن القاعدة مازالت حية ومزدهرة محللين من أمثال پيتر برجمان وبروس هوفمان واللذين يرفضان رأى سدچمان ويصران على أن القاعدة أعادت تجميع صفوفها فى مناطق أفغانستان وباكستان النائية وعلى أنها مازالت نشيطة، بل وفى الواقع، فقد تم إحياؤها وأصبحت أكثر خطرا عما كانته منذ أعوام عدة. يصف ريدل بروس القاعدة بأنها «عدو أكثر خطرا اليوم من أى وقت مضى».

بيد أن التمعن فى هذين الموقفين يوضح أنهما ليسا متناقضين كما يبدو للوهلة الأولى. فلا ينكر هوفمان أو ريدل طبيعة القاعدة التى تغيرت. فى حوار له مع مجلة دير شبايجل الألمانية فى عام ٢٠٠٦، يوضح هوفمان أن:

هياكل جديدة قد ظهرت.. هناك خلايا جديدة تُلهمها القاعدة، تنشط اليوم، ومعها إرهابيون من القاعدة نفسها. ولهذا السبب أعتقد أن القاعدة أكثر خطرا الآن مما كانته يوم ٩/١١. وذلك لأن لدينا الآن بحراً واسعاً من المسلمين الذين تخيروا التطرف فى أماكن كثيرة فى العالم الإسلامى وليسوا بالضرورة مرتبطين بالقاعدة لكنهم على استعداد للقيام بعمليات. من ثم، مازال لدينا تنظيم للقاعدة يعمل مستقلا، لكنه يسعى أيضا إلى استغلال الكم الهائل من التعاسة والاستياء الموجودة فى أوساط المسلمين.

وبأسلوب مماثل، يكتب ريدل فى دورية فورين أفيرز ويذهب إلى أن:

القاعدة قد ابتليت ببعض النكسات منذ ٢٠٠١/٩/١١. فقدت دولتها داخل دولة أفغانستان، قُتل كثير من كبار العاملين بها، فشلت فى محاولاتها للإطاحة بحكومات مصر والأردن والسعودية. لكن التنظيم الآن، وإلى حد كبير بفضل حماس واشنطون لدخول العراق بدلا من التركيز على الإيقاع بقادة القاعدة، يمتلك الآن قاعدة عمليات صلدة فى مناطق باكستان القصية، وفرعا فاعلا له فى غرب العراق. وصل متناولها إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى حيث طورت كوادر متعددة من العاملين النشطين، وفى أوربا، حيث باستطاعتها أن تزعم دعم بعض المسلمين المحليين المحرومين من الحقوق والامتيازات ومن أفراد الشتات العرب والأسيويين. لقد نجح أسامة بن لادن فى حملته الدعائية ليجعل من نفسه وحركته الرموز الرئيسية للمقاومة الإسلامية فى جميع أنحاء العالم. وتجذب أفكاره الآن أتباعا أكثر من أى وقت مضى.

وفى الواقع، فإن ثمة اتفاقاً على تغير طبيعة القاعدة باتجاه أن تصبح تنويعة أقل إحكاما من الأفراد والمجموعات لا تجمع بينها روابط تنظيمية رسمية بل صلات شخصية ووحدة الهدف لاتّبَاع نداء الجهاد. علاوة على ذلك، يتفق الطرفان على خطورة التهديد الذى تمثله حركة الجهاد الكوكبى المشظاة، والتى من المستحيل تحديد مواقعها، كما أنها بطبيعتها من المتعذر التنبؤ بها. يتركز الخلاف، والذى لا يكاد يدعو للعجب فى ضوء النقاشات حول تشكيل القاعدة فى الفترة التى سبقت ٩/١١، بشكل أساسى على طبيعة الهيكل التنظيمى، وبخاصة حول ما إن كان جوهرها الصلد، أو قيادتها مازالت موجودة، أو أنها عادت إلى الظهور، أم أنها فى طريقها إلى الظهور فى موقع محدد لتسهيل الهجمات، أم أن الحركة قد غدت محلية بالكامل، مشظاة بدون قيادة،.

ووفقا لما قاله بيرك، الذى عبر عن عدم اعتقاده فى وجود تنظيم مركزى فإن:

من الأخبار السارة أن تلك القاعدة (الجوهر) غير موجودة. أما الأخبار السيئة فتتمثل فى أن التهديد الذى يواجه العالم الآن أكثر خطرا بكثير من أى قائد إرهابى مفرد له جيش، من الكوادر الموالية أيا كان حجمه. بدلا من ذلك، فإن التهديد الذى يواجهنا الآن جديد ومختلف، معقد ومنوع، دينامى وهلامى ومن بالغ الصعوبة وصفه أو تعيينه.

بيد أنه، فحتى الاختلاف حول وجود قلب مركزى ليس بالأهمية التى قد يبدو عليها. قام سدچمان، فى النقاش المرير الذى تلى عرض هوفمان لكتاب «جهاد بدون قيادة»، وبدون سبب واضح سوى أنه قد أذعن لرأى هوفمان الذى استند إلى مصادر استخباراتية تدعم إصراره على عودة ظهور قيادة مركزية للقاعدة، - قام بتغيير رأيه فى النهاية. وبفعله هذا، فقد قوض سدچمان الأطروحة المركزية لكتابه، حيث تراجع وقال إنه لم يقصد أبدا القول بأن القاعدة المركزية لم تعد موجودة أو أنها لم تكن خطرة.

ومع التفحص الأكثر تمعنا يتبين لنا أن الجدل حول مصير القاعدة بعد ٩/١١ ما هو إلا استمرار للنقاش حول تركيب القاعدة الذى سبق ٩/١١، باستثناء أنه قد أصبح الآن صراعا عاما حول مدى الموثوقية التى يتمتع بها كل متحدث فى الموضوع. وفى هذا الجدل المُسيَّس، فلا يبدو وأن أحدا قد أولى كثيرا من الاهتمام للأدلة التى تدعم أطروحة استمرار وجود قلب مركزى للتنظيم، ومازالت تلك الأدلة واهية كما كانت من قبل، إن لم تكن أوهى من أى وقت مضى. ترتكز، مثلا، أطروحة

هوفمان عن استمرار وجود «مركز» إلى تحذيرات أطلقها «التقييم الاستخباراتى القومى NIE» بأن القاعدة قد أعادت تشكيل نفسها، وكما رأينا، فقد عكست تقييمات محللين آخرين هذا الرأى. لكن، ما مدى موثوقية هذه المعلومات؟ يمثل التقييم الاستخباراتى القومى أفضل تكهن جمعى لأنواع استخبارات الولايات المتحدة حول ما يحتمل حدوثه، أو عدم حدوثه، على المشهد الأمنى فى أجزاء محددة من العالم. بيد أنه، وبالرغم من حيوية الاستخبارات الجيدة أو إمكانية أن تكون التنبؤات أداة نافعة، يظل NIE مجرد تقييم لا يملك مزاعم شمولية، هذا علاوة على الدرجة العالية من عدم الدقة فى تقريراته السابقة. وفى الواقع، فإن التقييم الذى صدر فى أكتوبر عام ٢٠٠٢ عن برامج الأسلحة العراقية غير المشروعة، يظل أحد التقارير الأكثر خلافية. ووفقا لما انتهى إليه تقرير مجلس الشيوخ فيما بعد «كانت معظم الأحكام المفتاح الرئيسية فى التقرير إما مبالغا فيها، أو غير مدعومة بأسسٍ من التقارير الاستخباراتية». وفيما أنه لا يمكن استبعاد عودة ظهور قيادة مركزية للقاعدة، بل وإنه من المحتمل لكلتا المجموعة الأصلية وللجيل التالى الاستمرار فى التطلع إلى المكانة والعظمة، فمن المهم أن نُبقى فى أذهاننا حقيقة أنه ليس ثمة دليل قاطع على هذا. بيد أن ما يمكن قوله هو أن القادة السابقين، وأعضاء الجهاد الكوكبى البازغين الأصغر سنا، لديهم حافز قوى للظهور موحَّدين بقدر الإمكان، من ثم، يجب النظر إلى جميع المزاعم بهذا الشأن والتى لا يمكن دعمها بالبراهين الكافية، بقدر من الشك.

أما الأكثر سهولة فهى القرائن – أو الأمثلة – على تشظى القاعدة

وحركة الجهاد الكوكبي. يشير بيرك، الذي يزعم أن الجهاد بدون قيادة نجم جزئيا عن نصيحة بن لادن لأقرانه بالتفرق، وبأن يُنفّذ كل منهم هجمات كلما أتيح لهم ذلك، يشير إلى العدد الكبير من الهجمات المكبوحة ضيقة النظام التي حدثت منذ ٢٠٠١. تشمل تلك حوادث مثل الهجوم الانتحاري في عام ٢٠٠٢ على المعبد اليهودي بتونس، وفي عام ٢٠٠٣، تفجيرات معبدين يهوديين، والقنصلية البريطانية ومقر بنك HSBC البريطاني بإسطنبول، تركيا، وتفجيرات الفنادق في عمان عام ٢٠٠٥؛ وتفجيرات الجزائر عام ٢٠٠٧؛ وكذلك ما ذكرناه عن إطلاق النار بقاعدة فورت هوود ومكتب تجنيد ليتل روك عام ٢٠٠٩، وغيرها وغيرها. يكشف الفحص المتمعن في تفاصيل تلك الهجمات تنوعا كبيرا بين المنفذين، وبين الأسباب التي دفعتهم لذلك، وكذلك انتماءاتهم. كان بعضها من فعل أفراد أرادوا وتوكيد استمرار وجود القاعدة والتهديد الذي تمثله، فيما نفذ البعض الآخر أفراد ليس لهم روابط واضحة بالتنظيم، أو أنهم كانوا أعضاء في تنظيمات محلية مثل تنظيم القاعدة بالمغرب الإسلامي وقاموا بهجماتهم كرد فعل على مظالم محلية محددة، لا بصفتها تنفيذا لأجندة بن لادن الأصلية. ذكر تقرير للبي بي سي في سياق تفجيرات المعبد اليهودي بتونس أن:

«متحدث باسم قاعدة بن لادن يقول إن التنظيم كان خلف الهجوم على المعبد بتونس في إبريل والذي قتِل فيه ١٩ شخصا. وفي بث صوتي على قناة الجزيرة العربية، قال سليمان أبوغيث مسئول القاعدة إن الهجوم كان انتقاما لقتل الفلسطينيين. أثنى السيد /أبوغيث على هجمات ١١ سبتمبر بأمريكا، وحذر بمزيد من الهجمات، في الأيام والأشهر القادمة؛ قال أبوغيث، وهو رجل دين من مواليد

الكويت، إن ٩٨٪ من قادة القاعدة – بمن فيهم بن لادن – أحياء، وأن بن لادن سيصدر بيانا ويبثه تليفزيونيا».

للوهلة الأولى، قد يبدو هذا الإعلان جازما، يمثل تنظيما مازال باستطاعته إحداث الدمار على مستوى كوكبى واسع، لكن الانطباع الذى يتركه مزيد من التحليل، أن البيان، والهجوم ذاته، ينتميان إلى قاعدة تسيطر عليها درجة من الذعر، وتسعى جاهدة إلى تأكيد وجودها المستمر، وخطورة التهديد الذى تمثله لأتباعها وأعدائها معا، فيما يتعلق بحادث لا وجه لمقارنته بضخامة هجمات نيويورك وهولها والتى كانت قد وقعت قبل ذلك بما لايتعدى السبعة أشهر. هل كانت القاعدة مازالت على نفس مستوى مزاعم أبوغيث؟ نعم ولا. لقد تواصلت الهجمات؛ لكن، وفيما بعثت بعضها بموجات صادمة بين صفوف الجماهير، فمن حسن الحظ أنه لم تقترب ولا واحدة منها من معايير ٩/١١ سيئة السمعة، والتى تُقاس الآن جميع الهجمات وفقها. علاوة على ذلك، فإن الكثير من الهجمات اللاحقة، وعلى الرغم من تنفيذها بروح الجهاد الكوكبى، فهى لا تدعم فكرة «القاعدة، التنظيم/ المركزى» بصفته مخططها ومُيسّرها المفتاح. إحدى الهجمات التى توضح هذا هى تفجيرات القطارات بمدريد، والتى تكونت من سلسلة من الهجمات المُنسّقة فى صباح ١١ مارس ٢٠٠٤ والتى أدت إلى مقتل ما مجموعه ١٩١ شخص وإصابة ١٨٠٠ جريح. ومع تركيز انتباه العالم على طبيعة التفجيرات المتزامنة، سرعان ما انتشر الافتراض بأنها تحمل توقيع القاعدة، وزاد من قبول هذا الافتراض الاعتقاد المتلازم بأنه لابد من وجود جماعة كبيرة وراء هجمات بهذا الحجم. بيد أنه، فإن الاتهام المبدئى بتورط القاعدة لم يثبت

أبدا كحقيقة واقعة. وفقا للمحلل سكوت أتران، الذى استشهد به تحقيق الجارديان فى «أسوأ هجمة إسلامية فى التاريخ الأوربى» فإنه:

«ليس ثمة أى قدر من القرائن على أية صلة عملياتية بالقاعدة، هكذا قال المستر أتران. لقد ظللنا نتفحصها عن كثب لسنوات، واطلعنا على آراء كل شخص تحت الشمس.. ولم نجد ما يربطهما. ليس للغالبية الساحقة للخلايا الإرهابية بأوربا أية علاقة بالقاعدة سوى علاقة أيديولوجية مبهمة. بل إن تلك الأيديولوجيا على قدر كبير من السطحية - إنها بشكل أساسى رد فعل على ما يرونه أنه حرب على الإسلام فى أنحاء العالم» هكذا قال. ذهب مستر آتران إلى أن الناس كانوا بحاجة للاعتقاد بتورط شىء أكبر - كان من الصعب القبول بأن بإمكان مجموعة من الشباب روابطهم غير محكمة تنفيذ هجوم بهذه الضخامة دونما مساعدة خارجية. بيد أن الحقيقة هى أن هؤلاء الشباب قد قاموا بردكلة أنفسهم».

پول هاميلوس، «أسوأ هجوم إسلامى فى تاريخ أوربا»، الجارديان، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٧

تبدو تفجيرات مدريد وأنها توضح النقلة إلى الجهاد المُشّظَّى الذى ينفذه أفراد ليس لهم روابط مباشرة بتنظيم أو شبكة فيما عدا عقيدة مشتركة بالجهاد كحل لما يعتقدونه من مظالم تحيق بالمسلمين. كما أنها أيضا تجسد القدرة - من حيث التدمير والقتل كأدوات لبث الخوف - لما يمكن أن نصفه بالهجمات المتوازية المنبثقة عن بعضها.

تم نسب هجمات إرهابية أخرى إلى ما يوصف بأنه أفرع القاعدة وتوكيلاتها - مجموعات تضم أفراداً لهم علاقة وثيقة نسبيا بأعضاء تنظيم القاعدة المركزيين، والذين يقال إنهم يتشاركون فى نفس أيديولوجيا الجهاد الكوكبى التى يتبناها بن لادن لكنهم ينشطون، بشكل رئيسى، داخل سياقات چيو/سياسية متمايزة بوضوح. إحدى هذه المجموعات هى القاعدة بالمغرب العربى والتى كانت تعرف سابقا باسم

الجماعة السلفية للدعوة والقتال. وعلى الرغم مما يقال عن مزاعمها بأنها تدعم أسامة بن لادن، فإن تلك المجموعة التى اكتُشف أنها مسئولة عن تفجيرات الجزائر عام ٢٠٠٧، علاوة على عدد من الأحداث المحلية الأخرى، يبدو وأنها مهتمة بهدف الإطاحة بالحكومة الجزائرية وإقامة دولة إسلامية مكانها أكثر من اهتمامها بإعادة إقامة الخلافة وبوحدة الأمة الكوكبية. وفيما أنه يمكن القول إنها على اطلاع ما بأهداف بن لادن والظواهرى، فعلى الرغم من ذلك فإنها تمثل عودة إلى «العدو القريب» الذى ظل يمثّل الشاغل الأول للإسلاميين منذ أيام حسن البنا، فيما أن التركيز على «العدو البعيد» يظل هدفا تتفرد به القاعدة. وفى وقت كتابة هذا، دفعت تطورات حدثت مؤخرا فى شمال إفريقيا الجماعة إلى نشاط آخر: فى يناير ٢٠١١، أعلنت جماعة القاعدة بالمغرب العربى عن دعمها للتظاهرات ضد الحكومة التونسية على أمل انتشار الثورة لتشمل الجزائر. فى فيديو من ١٣ دقيقة، عرَضَ أبومصعب عبدالودود المساعدة العسكرية والتدريبات على المتظاهرين التونسيين، ودعاهم إلى الإطاحة بالنظام «الفاسد المجرم والاستبدادى» وإلى العمل بالشريعة فى بلدهم. وبدلا من أن تعمل أحداث تونس على تشتيت اهتمام مجموعة القاعدة فى بلاد المغرب فقد ساعدتها على بلورة رؤيتها بأن هيأت لها فرصة ناجعة لإشعال لهيب عدم الاستقرار بالمنطقة ومحاولة التحريض على الإطاحة بعبد العزيز بوتفليقة رئيس جمهورية الجزائر.

وعلى الرغم من تركيز مثل تلك الجماعات على السياقات المحلية، فإن بعض المحللين، بمن فهيم ريدل الذى استشهد به سابقاً، رأى فيها أدلة

على قوة القاعدة الجديدة. كانت المجموعة التى جذبت القدر الأكبر من الاهتمام حتى نهاية ٢٠٠٩ هى تنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين التى يقال إنها أُنشئت عام ٢٠٠٣ بقيادة أبومصعب الزرقاوى المقاتل الأردنى الذى أعلن ولاءه لأسامة بن لادن فى أكتوبر ٢٠٠٤ . كان من المستحيل تجاهل ذلك التنظيم فيما بدا وأنه تدفق لا ينتهى عن أنباء الهجمات الدموية والتفجيرات التى نُسبت إليه. ومن جهة أخرى، فإنه من الواجب التزام الحرص فى الأسلوب الذى تُنسب به كل واقعة عنف إلى القاعدة، فكما يحذر كلارك هويت فإن «رؤية القاعدة فى كل ركن» من المحتمل لها تضخيم انطباعاتنا عن المجموعة بدلا من تهيئة الأجواء للتوصل إلى تقييم ذى معنى عن مدى تأثيرها وقدراتها. وفى الواقع، فإن النظرة المتمعنة فى الأهداف المعلنة لتنظيم القاعدة فى بلاد الرافدين وأسلوب عمل المجموعة يقوض الفكرة عن احتمال كونها قد أُسِّست وفقا للصورة التقليدية للقاعدة أو إسهامها بأى أسلوب ذى معنى فى إنجاز أهدافها.

فمنذ بداية نشأتها، كانت أهداف تنظيم القاعدة ببلاد الرافدين محلية بشكل متمايز واضح: إجبار قوات الاحتلال بقيادة الولايات المتحدة على الانسحاب من العراق؛ الإطاحة بالحكومة العراقية الانتقالية؛ اغتيال المتعاونين مع الاحتلال؛ تهميش السكان الشيعة وهزيمة مليشياتهم؛ ثم إقامة دولة إسلامية خالصة. الأمر اللافت فى تلك الأجندة، والذى بدونه كان لابد لها وأن تكسب تعاطف بن لادن إلى حد كبير، هو الدعوة الواضحة المتمايزة إلى المواجهة مع شيعة العراق التى سرعان ما حولت ما بدأ كحملة إلى تحرير العراق وإقامة دولة إسلامية على أراضيها –

والتى كـان بالإمكان أن تكون خطوة، فى الصـورة الأكبـر، نحـو إقـامـة خلافـة كوكبيـة – حولتـهـا إلى صراع طـائفى دموى عـمل على اغـتراب الشـعب العراقى وقيادات القاعدة «المركزية» عن ذلك التنظيم. جاء الرد الحاسم على إعلان الزرقاوى لحرب شاملة على الشيـعة وما رافقه من إعلان مسئوليته عن تفجير أحد أشهر مساجدهم [مسجد الإمامين العسكريين] عام ٢٠٠٥، فى خطاب يعتقد أن أيمن الظواهرى هو الذى كتبه وتساءل فيه عن تكتيك الهجوم على شيعة العراق دونما تمييز. ذكر الخطاب ما معناه إن معجبى الزرقاوى من عامة المسلمين يتساءلون عن هجومه على الشيعة، وأن حدة هذا التساؤل تتزايد حينما يكون الهجوم على مساجدهم، وإنه، ومهما حاول تفسير أسبابه، فإن ذلك أمر لن يتقبله عامة المسلمين.

مرة أخرى، وفى ديسمبر ٢٠٠٧، أكد الظواهرى على إدانته للهجوم على المسلمين الآخرين فى ڤيديو دافع فيه عن إقامة دولة إسلامية بالعراق لكنه نأى بنفسه عن الجرائم ضد المدنيين التى يرتكبها «المنافقون والخونة الموجودون بين الصفوف». بين أن شجب تلك الهجمات لم يقتصر على الخلافات الداخلية بين أتباع القاعدة. ففى نفس الوقت، بدأت العشائر ومجموعات «المتمردين» السنية بمن فيهم مجموعة الجيش الإسلامى القومى فى العراق فى التعبير عن عدم رضاهم عن أساليب «القاعدة فى بلاد الرافدين» ووجهوا النقد علنا لمقاتليها لاستهدافهم المتعمد للمدنيين العراقيين. وبحلول يونيو ٢٠٠٧، أدى العداء المتنامى بين متعصبى القاعدة ذوى الانتماءات الأجنبية وبين القوميين السنة إلى

معارك تبودل فيها إطلاق النيران بين تلك المجموعات. أدت حدة المواجهة بأن ينتهى عدد من المعلقين إلى أن القاعدة فى بلاد الرافدين كانت فى وضع خطير وتحاول إنقاذ نفسها.

تكشف النظرة المتفحصة عن أن أوضاع القاعدة فى بلاد الرافدين لا تدعم فكرة وجود تنظيم كوكبى يزداد قوة، بل الأحرى أنها توضح أن القاعدة بمجملها قد أضعفتها الخلافات الداخلية والهجمات من المجموعات الإسلامية الراديكالية الأخرى التى كان من المفترض أن تكون حليفاتها. أدى هذا المزيج من الشقاق بين أذرع القاعدة المحلية وغضب نظرائها منها وهجومهم عليها إلى تقويض تماسك المجموعة وتراجع الدعم المحلى لها. من ثم، يبدو وأن الانطباع باستعادة الجماعة لقوتها هو نتيجة المسيرة التى ارتبطت بها القاعدة بجميع أحداث العنف. بيد أنه فى واقع الأمر، فحقيقة أن بعض تفرعات القاعدة المحلية لجأت إلى استخدام العنف ضد المسلمين المدنيين قوض قدرة الحركة على تقوية نفوذها، وكذلك على تقديم نفسها كلاعب أساسى على النطاقين الكوكبى والمحلى.

وهكذا، فببداية التسعينيات بدا وأن القاعدة - فرعها فى العراق والتنظيم ككل - قد وصلت إلى الحد الأدنى من الضعف. ومع تشظى التنظيم داخليا، وفقدانه التدريجى للدعم الجماهيرى، ومع عدم حدوث هجمات على مستوى يُذكِّر الولايات المتحدة والجماهير الغربية بتهديدها المستمر، بدا هؤلاء الذين كانوا قد أكدوا أن القاعدة كانت فى سبيلها إلى الصعود مرة أخرى، وأنها تعيد تجميع صفوفها وتكتسب القوة.

وأنهم قد بدأوا في التراجع عن موقفهم. بيد أن هذا الانطباع كان له أن يتغير لدى الهجوم الذى كاد ينجح على طائرة الركاب الأمريكية من أمستردام إلى ديترويت فى كريسماس ٢٠٠٩ والذى تسبب فى عودة الجدل حول التهديد المستمر للقاعدة، والذى عمل أيضا على الدفع بجمهورية اليمن إلى بؤرة الاهتمام بعد فترة التركيز على أفغانستان والعراق. وفقا لنظرية يجرى تداولها حاليا، فقد أعادت القاعدة تجميع صفوفها فى مناطق اليمن النائية، وغدت تخطط لهجمات ضد الغرب من قاعدتها الجديدة. وفى ديسمبر ٢٠١٠، أكد چون برنان، مستشار الإدارة الأمريكية لمكافحة الإرهاب، أن مجموعة القاعدة التى تتخذ من اليمن مقرا لها تمثل تهديد الأمريكيين أكبر من أية مجموعة أخرى تزعم ولاءها لبن لادن، بما فى هذا المجموعات الموجودة بالعراق وباكستان، ووفقا لما قاله فإن مجموعة اليمن «تنشط بتزايد» فى محاولاتها لتجنيد إرهابيين جدد إلى حد وصول محاولاتها للتجنيد داخل الولايات المتحدة نفسها. أضاف: «إن القاعدة فى شبه الجزيرة العربية هى أكثر عُقد شبكة القاعدة نشاطا عملياتياً». وفى الواقع، فقد بدأ بعض المعلقين فى القول إن اليمن هى المركز الجديد لتنظيم القاعدة. هل حالة القاعدة فى اليمن مختلفة جذريا عن بقية المجموعات - أم أن ذلك لا يعدو محاولة أخرى لتحديد موقع لمقر التنظيم؟

«القاعدة فى شبه الجزيرة العربية»: دليل على انبعاث القاعدة من جديدة؟

فى وقت بدت فيه القاعدة وأنها قد ابتعدت عن مجالات الإبصار، أتى

هجوم يوم الكريسماس - الذى لو نجح لأدى إلى مذبحة جماعية - كتذكرة بغيضة بخاصة عن الخطر الكامن الذى مازالت الحركة تمثله. مثّل ذلك خلفية جد مناسبة لإقناع الجماهير الغربية بأن القاعدة لم تختف لكنها كانت مازالت ناشطة، وتهديدها قائم كما كان من قبل. وسرعان ما انتشرت الأخبار بأن الفاعل، عمر فاروق عبدالمطلب، الطالب السابق بجامعة لندن، قد اعترف بأنه كان قد تلقى تدريبا على مهمته أثناء إقامة طويلة له باليمن. دعم اعترافه هذا إعلان مجموعة مقرها اليمن وتسمى نفسها «القاعدة فى شبه الجزيرة العربية» مسئوليتها عن الهجوم، فيما احتضن أسامة بن لادن الفاعل الذى كاد يصبح شهيدا كأحد أتباعه. وفى نفس الوقت كان قد أصبح من الواضح أن عددا من الهجمات السابقة، مثل حادث فورت هوود، كانت مرتبطة باليمن، وكان العنصر المشترك هو التأثير العميق الذى مارسته خطب وأيديولوجيا أنور العولقى رجل الدين المتطرف على المهاجمين. كان العولقى مواطنا أمريكيا من أصل يمنى عاد إلى موطنه الأصلى باليمن عام ٢٠٠٤ ويقال إنه أصبح شخصية مفتاح فى تنظيم القاعدة بشبه الجزيرة العربية. من ثم، انتهى المراقبون إلى أن اليمن بدت وأنها على وشك أن تصبح أفغانستان جديدة، مما حول المخاوف من تكرار ٩/١١ إلى إمكانية ملموسة أكثر. كان التهديد المتصور للوضع من الخطورة بدرجة سرعة اتخاذ الإجراءات. تم تنظيم اجتماع دولى بلندن يوم ٢٧ يناير ٢٠١٠ بهدف بلورة استراتيجية لدعم حكومة اليمن فى حربها ضد التهديد الإرهابى المتبدى فى الأفق. وفى تلك المناسبة، دعت هيلارى كلينتون، وزيرة

الخارجية الأمريكية حكومة على عبدالله صالح إلى تفعيل إصلاحات سياسية واقتصادية، ومكافحة تنظيم القاعدة بشبه الجزيرة العربية، وتعهدت بتقديم المساعدة الاقتصادية والعسكرية للقيام بتلك المهمة الخطيرة. وبعد تسعة أشهر من وقوع الحادث، اعتبر محللو السى آى إيه تنظيم القاعدة بشبه الجزيرة العربية أكثر التهديدات إلحاحا على أمن الولايات المتحدة، وطالب أحد كبار مسئولى السى آى إيه بتصعيد عمليات الولايات المتحدة باليمن، بما فى هذا اقتراح بإضافة طائرات بدون طيار مسلحة تابعة للسى آى إيه إلى حملة سرية للولايات المتحدة تقوم فيها بتوجيه ضربات عسكرية، مع إمداد حكومة اليمن بما قيمته ١,٢ مليار دولار أمريكى من المساعدات العسكرية. أوجزت السى آى إيه علنا خطورة مقاربتها لآخر تجسيدات القاعدة بالقول «إننا نتطلع إلى الاستناد إلى جميع القدرات التى فى حوزتنا».

وفى ضوء رد الفعل هذا، وتصاعد الهجمات مؤخرا، تبدو النظرة إلى المستقبل باعثة على القلق. لكن، هل بالإمكان أخذ أنشطة القاعدة فى اليمن مؤشرا موثوقا على قدراتها، وهل هى فى الواقع أدلة ملموسة على وجود تنظيم على قدر من الأهمية فى سبيله لأن تتنامى قوته وإمكانياته؟ هل الطبيعة الهشة للدولة اليمنية تفيد القاعدة وحدها؟ وهل لرد فعل الولايات المتحدة الذى يربط المعونة المالية بحملة عدوانية لمكافحة الإرهاب إمكانية تقويض قوة القاعدة وجاذبيتها؟ تتطلب مهمة الإجابة عن هذه الأسئلة بأسلوب ذى معنى تفحصا متمعنا لتنظيم قاعدة شبه الجزيرة العربية باليمن. وعلى الرغم مما قد يبدو عليه هذا من عدم توازن، فإنه

بالتركيز على اليمن مع استبعاد جميع تجسيدات القاعدة فى الأنحاء الأخرى، فإن الوضع فى اليمن يوفر لنا صورة خاطفة لما عليه القاعدة نفسها اليوم، ولتعاطى المجتمع الدولى مع الاستخبارات التى يتلقاها، والنهج الذى يتبعه إزاء ما تمثله القاعدة من تهديد.

القاعدة فى شبه الجزيرة: تنظيم هرمى ذو كوادر وظيفية؟

يكشف استعراض الإسهامات الإعلامية والسياسية مؤخرا التى تتعاطى مع قضية القاعدة باليمن عن إجماع شامل حول بنية المجموعة. تعتبر تلك المجموعة حديثة التشكل والتى يشار إليها باسم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية أنها «مقسمة إلى فئات وظيفية محددة ومنظمة هرميا، وتتبع نظاما متمايزا لتقسيم العمل». يُنظر بعامة إلى ناصر عبدالكريم الوحيشى المعروف باسم أبوبصير على أنه زعيمها. ظهر فى يناير ٢٠٠٩ فى ڤيديو بعنوان «من هنا نبدأ لنلتقى فى الأقصى» ليعلن عن اندماج أفرع القاعدة فى السعودية واليمن تحت إمرته. ظهر ثلاثة رجال آخرون بالڤيديو: مواطن يمنى آخر اسمه قاسم بن مهدى الريمى، الرئيس العسكرى للتنظيم، وشخصان سعوديان هما سعيد الشهرى نائب الوحيشى ومحمد الوفى القائد الميدانى. أعلن كل منهم فى بيان مستقل أن قاعدة شبه الجزيرة ستستهدف العدو القريب بصنعاء والرياض، والمصالح الغربية بالمنطقة، والغرب نفسه. ردد حوار للوحيشى أجرته معه قناة الجزيرة فى ٢٧ يناير ٢٠١٠ أصداء تلك المشاعر حينما أوضح أن «حروب الغرب الصليبية ضد فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال» قد انطلقت من شبه الجزيرة العربية، ولهذا فسيتم استهداف

جميع المصالح الغربية بالمنطقة وخارجها. غداً يُنظر إلى تصاعد موجة محاولات الهجوم، والهجمات الناجحة ضد اليمنيين المرتبطين بالحكومة وضد الأجانب داخل البلاد وخارجها، وبخاصة إلى نشر دورية Inspire التى تتبع قاعدة اليمن باللغة الإنجليزية على الإنترنت، والتى تقدم إرشادات مفصلة لكيفية قتل الأمريكيين داخل الولايات المتحدة، ينظر إليه على أنه تأكيد على خطورة التهديد الذى تمثله تلك المجموعة.

بيد أنه، ومثلما هو الحال مع جميع المزاعم، فإن المعلومات لا تدوم طويلا، ومتناقضة وكثيرا ما يتم تفنيدها. بل إنه حتى إثبات الحقائق البسيطة مثل مضاهاة الأسماء مع أرقام معتقلى جوانتنامو، وتوفير التقارير عن الحركات الفيزيقية للشخصيات الرئيسية وأماكن تواجدهم كلها عمليات غير يقينية مع خضوع مصادر كثيرة للأدلة للجدل. مثلا، فلننظر إلى الحالة التالية: فى ١٩ فبراير ٢٠٠٩، أعلنت عناوين الأخبار الرئيسية أن محمد العوفى، القائد الميدانى رفيع المستوى الذى كان قد ظهر بڤيديو الاندماج منذ شهر واحد فقط، قد سلم نفسه إلى السلطات اليمنية. زعِم أن العوفى قال إنه «لم يكن يريد الظهور فى ڤيديو ٢٤ يناير:» لكنه أُمِر أن يفعل ذلك بالرغم من اعتراضته. وإذا كان لنا أن نثق فيما قاله وفى التقارير معا إذن «فالرسالة [التى أُجبر على قراءتها فى الڤيديو] لم تكن تمثل وجهة نظره» بل إنه «أُبلغ أن يقرأها دونما أية تغييرات لأن صياغة الرسالة اختيرت بعناية». وكما كان متوقعا، كان صدق مزاعم العوفى محل تساؤلات، إذ إنه كان من المنطقى الشك فى أنه قد قام بنسج قصة محكمة فى محاولة لإنقاذ نفسه. من ثم، لم يكن

من المستغرب أن ينكر تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة روايته للأحداث ويزعم بدلا من ذلك أن السلطات اليمنية قد ألقت القبض على العوفى وسلمته إلى السعودية. زادت التكهنات حول هذا حينما نشرت صحيفة الحياة اللندنية المملوكة للسعودية فى عددها الصادر يوم ٢٣ يونيو ٢٠١٠، مقالا لناصر الحقبانى، مراسلها بالرياض، يزعم فيه أن مصادر أمنية جيدة الاطلاع قد كشفت للحياة أن قاسم الريمى، رقم ٦٩ بين أكثر الرجال المطلوبين رسميا باليمن، هو الزعيم الحقيقى لتنظيم القاعدة بشبه الجزيرة. أضافت تلك المصادر أن اليمنى ناصر الوحيشى الزعيم المفترض، ونائبه سعيد الشهرى السعودى، واللذين كان من المعتقد أن يكونا المسئولين عن التنظيم على أساس ظهورهما بالڤيديو المذكور، لم يكونا سوى من الرئاسات الصورية، مجرد مُنظِّرين ولا علاقة لهما بالأنشطة الواقعية اليومية للتنظيم.

وسواء كانت لتلك المزاعم والادعاءات التى أوردناها أية علاقة بالحقيقة أم لا، فإن وجود هذه الاختلافات والتناقضات هو مثار للقلق لدى محاولة تقييم طبيعة تنظيم قاعدة شبه الجزيرة العربية والتهديد الذى يمثله. لا نستطيع أخذ البيانات العامة التى يصدرها التنظيم، سواء كان من خلال القيديوهات، أو الدوريات أون لاين كما هى بدون تمحيص. بل ينبغى رؤيتها، أولا وقبل كل شىء، بصفتها محاولة لترسيخ وضع قائم معين لدى جمهور أوسع داخل اليمن وخارجه. يبين توماس هجامر هذه النقطة بأسلوب مقنع حينما ينتهى إلى أن إدماج فرعىْ القاعدة باليمن والسعودية الذى روّج له على نطاق واسع ولقى اهتماما كبيرا قد لا

يتعدى محاولة التغطية على حقيقة أنه قد تم هزيمة القاعدة بالسعودية إلى حد كبير. بيد أن ما يمكن قوله بقدر كبير من اليقين هو أن قاعدة شبه الجزيرة العربية ستحاول الظهور موحدة، وقادرة، وقوية بأكثر ما باستطاعتها. أما مدى ما يرقى إليه هذا من كونه مجرد تفكير رغبوى وتظاهر فمسألة أخرى تماما. يناقض ظهور تنظيم القاعدة بشبه الجزيرة العربية اللامتسق فى مواجهة الحكومة اليمنية والغرب طبيعتها الحقيقية: فكما فى حالة القاعدة ٢٠٠١، لا ترتكز قوة التنظيم الحقيقية على القدرة الفيزيقية بل تكمن فى الأفكار: لا فى كمية أسلحتها، أو أعداد الجنود المشاة الموالين لها، بل فى قدرتها غير الملموسة الماكرة الواسعة على التلاعب، وبث الخوف وتوليد ردود الأفعال. ولهذا السبب، فبالإمكان اعتبار حتى هجوم يوم الكريسماس الفاشل نجاحا على قدر كبير من الأهمية.

وإذا كان من الصعب جمع رؤى ذات معنى وموثوقية عن قيادات قاعدة شبه الجزيرة العربية، فإن مهمة تقييم حجمها، أو عدد أعضائها من حيث المشاركون النشطاء يضيف مستوى آخر من الغموض. زعمت الحكومة اليمنية فى عام ٢٠٠٩ أن للتنظيم ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ عضو، وتتفق معظم التقديرات الغربية مع هذا التقييم. بيد أنه ليس من الواضح ما البيانات التي بنيت على أساسها تلك التقديرات، كما أن الاتفاق النسبى بين كل الجهات قد يشير إلى استناد إلي افتراض عمل فى غياب أدلة إمبيريقية كما ينبغى النظر بحرص إلى التقديرات الراهنة حيث إن الحكومة اليمنية تعتمد بشكل تام على المعونة المالية الأمريكية المشروطة

بمكافحة تنظيم القاعدة، من ثم فهى تستفيد من أى تضخيم للتهديد. وفى ضوء ما تورده التقارير من حالات قبض على أعداد كبيرة من مقاتلين يزعم أنهم يرتبطون بالتنظيم، فمن البديهى أن يخلص المرء إلى أن العدد الفعلى للأعضاء الناشطين قد تقلص كثيرا عما كانه وقت التقييم الأصلى. لكن، وبما أن الأرقام قد ظلت لا تتغير، بل وتقدر أحيانا بأنها تزيد عن التقييم الأصلى، فمن المفيد دراسة احتمال أن من ألقى القبض عليهم ليسوا فى الواقع أعضاء فى التنظيم، أو على العكس أن الاستراتيجية المُتّبعة فى توقيفهم قد أدت إلى توليد متطوعين جدد.

من المحتمل أن أفضل ما يوضح صعوبة تحديد عدد أعضاء تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة هى حالة أنور العولقى، الذى ولِد ونشأ بالولايات المتحدة ويعتبر الآن، على نطاق واسع، مُنظّر القاعدة الأيقونى. وعلى الرغم من ارتباطاته المزعومة بالإسلاميين المتطرفين، بما فى هذا مختطفو طائرات ٩/١١ فلم يعترف العولقى بصراحة أبدا بارتباطه بالتنظيم، بل إنه امتنع عن نشر بياناته من خلال منافذ تنظيم قاعدة شبه الجزيرة الإعلامية. رفض والده، الذى كان وزيرا للزراعة ورئيساً لجامعة صنعاء، بشدة، جميع الاتهامات التى تربط ابنه بالمجموعة. ولا يعنى هذا القول بأن غياب ارتباط واضح بين العولقى والتنظيم يستبعد تماما عضويته به. الأحرى أن حالته تُعدّ تذكرة بملاحظة أكثر عمومية بأن الارتباط المباشر بالتنظيم قد يعمل ضد مصالح شخص ما، فيما يعمل الزعم بوجود مثل هذا الرباط لصالح آخرين. ويعتبر سمير خان، رئيس تحرير Inspire المزعوم، واعترافه فى مقال كتبه يمجد فيه نفسه بصفته

فخورا بخيانته لأمريكا – مثالا يوضح هذه النقطة. وبقراءتنا لسرده لوقائع هجرته من الولايات المتحدة إلى اليمن وهو «تحت الرقابة المشددة» والذى يسخر فيه من عدم قدرة استخبارات الولايات المتحدة على التعرف على أهميته، هذا على الرغم من حقيقة أنه كان من الواضح أنه كان أحد ركائز تنظيم القاعدة، لا نملك تفادى الانطباع بأنه شاب يائس يتوق إلى جذب الاهتمام.

وكما ظل الحال دائما، فإن مهمة تقييم هيكل قاعدة شبه الجزيرة العربية وعضويتها وتهديدها المحتمل يعيقه غياب المعلومات المحددة، مما يقتضى الاعتماد على أفضل ما بالجعبة من تكهنات وافتراضات.

وبناء على ما سبق فما وضع أية محاولة لتقييم وضع العولقى من تنظيم قاعدة شبه الجزيرة العربية، بل وحقا القضية الشائكة للعضوية بعامة؟ ما يمكن قوله يقينا عن العولقى هو أن بياناته العامة تردد أصداء كثير من التيمات التى كانت تنقلها رسائل أسامة بن لادن وأفكاره، بما فى هذا الدعوة إلى الجهاد الكوكبى العنيف والانتقادات الصارمة الموجهة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. بيد أنه، وعلى الرغم من أن هذا قد يبدو تطرفاً من المنظور الأمريكى، إلا أن المشاعر المعادية لأمريكا متجذرة بعمق فى وعى اليمنيين العامة ولأسباب لم تلق كثيرا من الاهتمام فى الجدل القائم. والمجتزأ التالى هو من الأمثلة الكثيرة على هذا:

يعانى إخواننا وأخواتنا فى العراق على أيدى الغزاة الأمريكيين. إن العالم الإسلامى بأكمله مشتعل. تسيطر قوات الصليبيين على الأرض المقدسة وتلتهم ثرواتها وتتحكم فى شعبها. ويحدث هذا فيما يتم الهجوم على المسلمين فى جميع أنحاء العالم.

أيها المؤمنون. سيأتى اليوم الذى يبعث فيه الأطفال العراقيون ويسألون بأى ذنب قتلوا. ماذا أنتم قائلون لهم؟

يمكن لهذه الكلمات أن تُنسب بسهولة لبن لادن أو العولقى. فكما بينّا فى الفصل السابق، فإن محنة العراقيين فى عهد صدام، وعلى أيدى الغزاة الصهاينة/ الصليبيين، ونتيجة للعقوبات، وأثناء الحروب التى شنت مؤخرا هى تيمة شعبية فى خطاب بن لادن. لكن فى الواقع، فإن المجتزأ السابق هو من إحدى خطب الجمعة بمسجد بصنعاء فى خريف ٢٠٠٣، وهو مكان يصعب وضعه فى خانة «الراديكالية». وحينما ننظر إلى هذا فى سياق الغضب الشعبى والتظاهرات باليمن ضد الحرب على العراق والاعتداءات المتكررة على غزة، فإن هذه التعبيرات العامة العلنية توفر لنا إشارة إلى الأصداء العميقة التى تحدثها رسائل القاعدة فى وعى الجمهور اليمنى الأوسع. وعلى الرغم من تماثل خط التفكير فى خطابات العولقى، إلا أنه يضيف بعدا محليا إلى هذه الأجندة، فيوجه النقد للحكومة اليمنية لسماحها بالتدخل الأمريكى فى البلاد. جاء فى إحدى خطبه ما معناه:

نعم، إننى أؤيد ما فعله عمر فاروق بعد أن رأيت إخوانى يقتلون فى فلسطين لمدة أكثر من ستين عاما، وآخرين يقتلون فى العراق وأفغانستان. وفى قبيلتى أيضا، قتلت الصواريخ الأمريكية ١٧ امرأة و٢٣ طفلا، من ثم، لا تسألونى عما إن كانت القاعدة قد قتلت ركاب طائرة مدنية أمريكية أو فجرتها بعد كل هذا. لا يمكن مقارنة ٣٠٠ أمريكى بآلاف المسلمين الذين قتلوا.

تبيع الحكومة اليمنية مواطنيها للولايات المتحدة نظير الأموال الحرام التى تستجديها من الغرب مقابل دمائهم. يخبر المسئولون اليمنيون الأمريكيين أن يوجهوا ضرباتهم حيثما يريدون وألا يعلنوا مسئوليتهم عن الهجمات خشية غضب

الشعب، ثم تتبنى الحكومة اليمنية دونما خجل تلك الهجمات. مثلا، رأى الناس فى شبوة وأبين ومناطق أخرى صواريخ الكروز ورأى البعض قنابل عنقودية لم تنفجر. تكذب الدولة حينما تتدعى المسئولية، وهى تفعل ذلك لتخفى تواطؤها. تحلق الطائرات بدون طيار الأمريكية باستمرار فوق اليمن. أى دولة هذه التى تسمح لعدوها بالتجسس على شعبها ثم تعتبر هذا تعاونا مقبولا؟

تؤدى هذه الأمثلة إلى التحدى الرئيسى فى تقييم «القاعدة فى شبه الجزيرة العربية» والحرب ضدها: كيف نفصل بين الأعضاء الفعليين أو النشطاء وبين المتعاطفين – وبنفس الدرجة من الأهمية – كيف نمنع المتعاطفين من أن يصبحوا راديكاليين ويلجأون إلى ممارسة الأنشطة العدوانية. وعلى الرغم من أن هذا قد لا يبدو مقنعا، فليس ثمة أسلوب موثوق للتعرف على من ينتمون إلى القاعدة باليمن. يعزو سعيد الجمحى، مؤلف كتاب «القاعدة فى اليمن» هذا الغموض إلى السياسة التى تنتهجها المجموعة «بالحفاظ على سرية أعضائها. حيث لا تعلن سواء عن هوية زعيمها، ونائب رئيسها، ورئيسها العسكرى ورئيسها الشريعى، وقائدها الإعلامى» (بل إن حتى هذا، وكما رأينا، يجب النظر إليه بقدر من التشكك)؛ على حين «يظل أخطر الأعضاء وأهمهم مجهولين». تدعم شهادة شخص زعم أنه عضو بقاعدة اليمن وحاورته صحيفة الجارديان فكرة صعوبة التعرف على هوية أعضاء تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية وأن أعضاءها الحقيقيين يحيطهم غلاف من السرية. عاش هذا الشاب، وهو فى العشرينيات من عمره، فى بلدة صغيرة بمنطقة فقيرة فى جنوب اليمن ولم يسبق له وأن سافر أبعد من عاصمة منطقته أبدا حينما سئل عما إن كان يعتبر نفسه جزءا من تنظيم القاعدة، أجاب:

«نحن متصلون، كل الجهاديين متصلون، فتح ذراعيه وأشار إلى ثلاثتنا الجالسين على الأرض. «أحدنا قاعدة» وأشار إلى نفسه.. والآخر يحميه، وأشار إلىّ، والثالث يمدنا بالأشياء اللوچستية، وأشار إلى الصبى الذى كان قد أتى بى إلى هناك. اثنانا، وأشار إلينا «لا يعرفان سوى شخص القاعدة الذى يتصلان به، وشخص القاعدة [أشار إلى نفسه] هو الوحيد فى المجموعة الذى يعرف القيادة.

مرة أخرى، يترك هذا انطباعا بشبكة متسعة مبهمة من الجهاديين يربط أعضاءها جميعهم قضية مشتركة وشكل ما من قيادة مركزية تظل ذاتها مخفية وتوجه الهجمات على مسافة من الذين يقومون بتنفيذها. لكن، هل هذا هو حال القاعدة حقا؟ مع الأخذ فى الاعتبار أن التنظيم نجح فى مقصده للمحافظة على سريته الكاملة باستثناء اسمه، يصبح من بالغ الصعوبة الجزم بمدى صدقية التقارير والشهادات المختلفة فى حد ذاتها، ويصبح من المستحيل القطع بمدى تمثيلها [للواقع] – أى مدى دلالتها على عدد الأشخاص الذين يتشاركون مع هذا الشاب التزامه بالجهاد، وعدد المتورطين مثله فى الانتساب للقاعدة كتنظيم، أو من هم ضمن هؤلاء الذين يمكن أن يقال، وفقاً لبعض المعايير، إنهم موجودون فى الهوامش، وعلى الرغم من ذلك، فهم أساسيون بالنسبة لاستراتيجية القاعدة: شخص يوفر الحماية، وآخر للشئون اللوچستية، أو التابع المرتقب الذى ينتظر دوره ليصبح راديكاليا ويقوم بتفجيرات انتحارية. من ثم، تحل الادعاءات، والادعاءات المضادة ، والنظريات غير اليقينية التى تستفيد من غياب الحقائق الراسخة، فى محاولة منها لإثبات مصداقيتها، تحل محل الحقيقة عن قدرات تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية. أما الفائدة التى تعود على المنظرين، فهى، وفى غياب البراهين القاطعة بشكل أو آخر، أن القاعدة فى اليمن هى ما

باستطاعتها جعل الجمهور يعتقده عنها، وأنها، وبعد اقتناصها المبادرة في الحرب الدعائية، فمن المؤكد أنها لا تتردد في تضخيم صورتها من خلال الإعلاء من شأن الأفراد الذين ينفذون إحدى الهجمات وضمهم إلى صفوفها، مثلما صادق بن لادن على الرجل الذى كان يخفى المتفجرات في ملابسه الداخلية.

تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية باليمن: مشكلة بين عديد من المشاكل:

ينبغي أن يبدأ أى تقييم ذى معنى للتهديد الذى يمثله تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية بنظرة شاملة على الوضع الاجتماعى/ السياسى الراهن في جمهورية اليمن بمجملها، بدلا من التركيز على التنظيم ذاته. وفقا لإحدى التغطيات الصحفية مؤخرا، فإن اليمن يقترب من الكارثة، دولة هشة في سبيلها إلى الفشل، وسرعان ما ستصبح دولة فاشلة. وعلى الرغم مما يعكسه هذا الرأى من حقيقة، فمن المفيد أن نكون أكثر تحديدا: تواجه دولة جمهورية اليوم تحديات من قِبل عدد من اللاعبين، من حيث هويتها والمناطق التى تدخل ضمن نظامها. وفي الواقع، فإن حكومة على عبدالله صالح تواجه حاليا عددا من المشاكل المتداخلة التى لا يمكن التعاطى معها بمعزل عن بعضها.

القضية الأولى هى تحدى نظام الحكم الفاعل الذى يمكن الحفاظ عليه، أو بتعبير عملى، يواجه الرئيس صالح مهمة صعبة بتزايد لترسيخ سلطته. وبقولنا هذا، فمن التضليل تقييم السياسات اليمنية وفقا للمعايير الغربية فقط، أو تفحصها من خلال عدسات الدولة الحديثة. فجمهورية اليمن تجمُّع لمناطق متفرقة مختلفة تفتقد المؤسسات القوية لإدارة شئون الدولة وتوفير الخدمات لمواطنيها. تتميز الحياة السياسية اليمنية

بالتنافس بين النخب وبشبكات واسعة من الأشخاص الرعاة التى تقوض عملياً الولاء للدولة. تدخل الحكومة، فى أجزاء واسعة من البلد، فى تفاوضات مع القبائل القوية لاستيعاب السكان الذين يزداد فقرهم واستياؤهم ومن أجل أن تحافظ على مستوى معين من النظام السياسى والتحكم. يعنى هذا، فى الممارسة العملية، دفع الأموال، وتهيئة الفرص، والوظائف الحكومية. مقابل مؤازرة القبائل للحكومة ودعمها. وعلى الرغم من أن هذا يضمن مستوى معينا من تسيير الأعمال، فإنه يوجد عملية مستمرة من مساومات الأخذ والعطاء تواجه فى ظلها الحكومة مخاطر فقدان النفوذ والتحكم إذا أصبحت مواردها لا تكفى شراء التعاون.

ثانيا، هناك منطقتان متمايزتان للصراع، كل منهما فى أحد أطراف البلاد، واللتان تقوضان فاعلية الحكومة وشرعيتها. إحدى هاتين المنطقتين هى محافظة صعدة فى الشمال على حدود السعودية، حيث ظل تمرد الحوثيين قائما بدرجات متفاوتة من الزخم منذ عام ٢٠٠٤ . ليس ثمة تقارير مباشرة عن الصراع وذلك لاستبعاد الإعلام من المنطقة، ومن ثم تظل أعداد الضحايا من العسكريين والمدنيين غير واضحة. بيد أن التقارير الصادرة من وكالات الغوث الإنسانية تتحدث عن عدد يتراوح بين ٢٥٠٠٠٠ و٣٥٠٠٠٠ من النازحين مما يوفر فكرة عن مدى الصراع. المحافظات الجنوبية هى منطقة الصراع الثانية مع تمرد الحركات الانفصالية فى المنطقة، التى عُرِف عنها سلسلة من الاحتجاجات العنيفة تتزايد حدتها، والهجمات على القوات الحكومية منذ ٢٧ إبريل ٢٠٠٩ (عيد استقلال اليمن الجنوبى)، كتعبير عن التوترات المتصاعدات فى جميع أنحاء الجنوب. أما الدافع الأساسى لهذه الحركة فهو الاحتجاج

ضد أسلوب تعاطى الحكومة مع الأمور المالية. بدأت الحركة حينما طالب المسئولون العسكريون الجنوبيون الذين أُجبروا على التقاعد الحكومة بزيادة مرتبات تقاعدهم: اتهم المحتجون الرئيس اليمنى بالفساد وطالبوا علناً بالاستقلال عن حكمه. من المفارقات المؤسفة أن تعتمد الحكومة على جيشها لقمع تمرد ضباط جيش سابقين على التوزيع غير العادل للموارد المالية، وتعمل بهذا على مزيد من استنزاف الموارد الشحيحة بأسلوب لا يفيد الشعب والمرجح له أن يضيف الوقود إلى لهيب الإحباط الشعبى. فى ضوء أزمة الميزانية الهائلة فى اليمن، والتى سنتعاطى معها أسفل بمزيد من التفاصيل، فإن ثمة مغبات محتملة من المتوقع لها أن تحدث - مثل تشظى البلد إلى مناطق صراع عديدة - فى حالة نفاد أموال الحكومة اللازمة لدفع رواتب الجيش الذى يبدو وأن تماسك البلد الهش يعتمد عليه.

ينبغى النظر إلى المشاكل التى تضع اليمن فى أسفل قائمة البلدان منخفضة الدخل فى سياق تلك الصراعات. تشمل التحديات البنيوية الحالية الركود الاقتصادى، ودرجة الفقر المذهلة، وتضاؤل الموارد النفطية والمائية، والنمو السكانى السريع، ومعدلات الإلمام بالقراءة والكتابة المنخفضة، وتُعتبر هذه بعضا من فيض. يعيش ما يقرب من نصف السكان على أقل من دولارين فى اليوم؛ ويبلغ معدل البطالة على المستوى القومى ٤٠٪، تتمتع أقل من ٤٠٪ من الأسر اليمنية بإتاحة المياه والكهرباء الآمنة، وتبلغ نسبة الأمية ٥٠٪ بين سكان اليمن. تبلغ التقديرات الأولية لمعدلات الوفيات والمواليد ٩ و٣٩,٧ على التوالى بين

كل ١٠٠٠ من السكان ومـعـدل الخـصـوبة ٤,١، وهذه من بين أعلى المعدلات على مستوى المنطقة. الخدمات الصحية والتعليمية التى تمولها الدولة مزرية. يرتبط الفساد وانعدام الكفاءة اللذان يشتهر بهما البلد (واللذان ينبغى النظر إليهما فى السياق الأوسع لطبيعة الحكم) بعدم قدرة الحكومة على توفير الخدمات الاجتماعية فى أبسط مستوياتها الأساسية. وفى مجموعها، تُترجم تلك التحديات الهيكلية إلى مستويات عالية من الإحباط العام، وتؤثر فى الصراعات المذكورة أعلاه (وتتأثر بها). وبدون اللجوء إلى التبسيط المفرط للديناميات المعقدة لمشاكل اليمن العديدة المتداخلة، فإن عدم وجود موارد كافية هو الذى يُقوّض قبضة الرئيس على السلطة: تعتمد قدرته على شراء الدعم السياسى، وعلى توفير الخدمات لتقليص الاستياء العام، والتعاطى بفاعلية مع الصراعات فى البلاد، تعتمد على الأموال الشحيحة المتاحة له. ولفترة ليست بالقصيرة تشير أحاديث الشارع إلى عزلة الرئيس المتزايدة ومحاولاته اليائسة للحفاظ على التحالفات الحيوية. وتؤكد الاحتجاجات الجماهيرية العارمة التى اندلعت فى يناير ٢٠١١ حيث يطالب آلاف اليمنيين بتنحى صالح، تزايد صعوبة مهمة الرئيس للحفاظ على السلطة؛ وعلى تماسك البلد الآخذ فى التشظى. وسط هذا المناخ السياسى الهش، يبدو وأن تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، يضيف تحديا آخر - ومتزايدا وفقا لبعض المحللين - للنظام المأزوم بالفعل. للوهلة الأولى، يتأكد هذا من خلال تزايد الهجمات مؤخرا ضد الأهداف الحكومية وأيضا تصاعد الخطاب المعادى للحكومة. من قبل مصادر متصلة بقاعدة اليمن. فى ٣٠ أكتوبر ٢٠١٠، اعترف الرئيس علنا بالتحدى الذى تمثله قاعدة اليمن فى

بيان صحفى استجابة منه إلى أحدث التهديدات التفجيرية التى كان اليمن مصدرها:

«لدينا مشكلة، مع الإرهاب، وتحديدا وجود تنظيم قاعدة شبه الجزيرة العربية ومازلنا ندفع ثمنا غاليا. لقد تعرضنا لخسائر هائلة فى قطاعات الاستثمار والسياحة، وفى قطاعات أخرى أيضا. فقدت جمهورية اليمن أكثر من ٧٠ شهيدا، أفراد شجعان من قواتنا الأمنية وقواتنا المسلحة والتى هاجمتهم القاعدة فيما كانوا يقومون بواجباتهم لدى نقاط التفتيش الأمنية.

وفيما أن تهديد الإرهاب يبدو وأنه يُنزِل مزيدا من الضربات ببلد مبتلى بتحديات مروعة، فإنه ينبغى النظر إلى المواجهة بين القاعدة وحكومة اليمن بشىء من الحذر. فى بدايات التسعينيات، رحبت الحكومة اليمنية، بخلاف الأنظمة العربية الأخرى آنذاك، بالمقاتلين العائدين من أفغانستان الذين يطلق عليهم أيضا «الجيل الأول» من القاعدة باليمن، والذين اندمجوا مع جميع مستويات المجتمع، أصبحوا فيما بعد حلفاء مفيدين فى مواجهة نفوذ الشيوعيين «الكفرة» فى الجنوب، والسكان الشيعة «الكفرة» فى الشمال. من المنطقى القول بأن طبيعة العلاقة تغيرت فى استجابة لدعم الحكومة غير المقيد للولايات المتحدة فى أعقاب الهجوم على المدمرة كول، وهجمات ٩/١١. تبين أنه، وعلى الرغم من المواجهات التى حدثت مؤخرا، فإن الروابط والعلاقات الشخصية التى أقامتها الحكومة مع الجهاديين على مر السنوات، مازالت موجودة، وتتيح مساحة للتفاوضات والمساومات التى تعتمد عليها صناعة جميع القرارات السياسية باليمن. وحتى فى حالة زيادة توتر هذه العلاقات، فإن الحكومة اليمنية تعتمد واقعيا على استمرار التهديد الذى تمثله قاعدة اليمن كى تضمن المساعدات المالية من الولايات المتحدة والغرب الضرورية لبقائها السياسى.

دور اليمن غير المريح في الحرب على الإرهاب:

تصر الوسائط الإعلامية أن اليمن ظل – ومازال – حليفا مخلصا فى «الحرب على الإرهاب»: حرصت الحكومة اليمنية، فى كل مناسبة، بعد الهجوم على المدمرة كول فى عدن عام ٢٠٠٠، وبعد أحداث ٩/١١، على أن توضح دعمها للولايات المتحدة. بيد أن النظر إلى هذا الدعم على أنه فقط فعل ولاء للولايات المتحدة، أو موافقة على موقفها يعنى تجاهل الدوافع وراء تلك الخطوة السياسية. يجب النظر إلى هذا الموقف، أولا وقبل كل شيء، على أنه تحاش للخطأ الذى ارتكبته عام ١٩٩٠، حينما كانت اليمن عضوا مؤقتا بمجلس الأمن ودفعت ثمنا غاليا لعدم دعمها استعدادات الولايات المتحدة لحرب الخليج الثانية. تذكر السجلات أن ديبلوماسيا أمريكيا رفيع المستوى ذكر لنظيره اليمنى بعد دقائق فى تصويت اليمن سيئ السمعة ضد التدخل العسكرى فى العراق أن «هذا كان أغلى صوتا سلبياً أُدلى به أبدا». وفى غضون أيام، أوقفت الولايات المتحدة برنامجها لمساعدة اليمن والمقدّر بسبعين مليون دولار، ورفض صندوق النقد الدولى والبنك الدولى منح أى قروض للبلد. وبحلول عام ١٩٩٢، كان سعر الحليب هناك قد ارتفع أربعة أضعاف. وبحلول عام ١٩٩٣، كانت الجمهورية حديثة التشكل فى طريقها إلى الحرب الأهلية.

فى الوقت الذى كان الاندماج بين شمال اليمن وجنوبه قد شهد البلاد وهى فى سبيلها للشروع فى أكثر تجربة تقوم على الديمقراطية والمساواة فى العالم العربى، كان الثأر الأمريكى لاتخاذ قرار سياسى ضد الولايات المتحدة رغم مشروعيته الكاملة، وفقا لميثاق الأمم المتحدة، كان ذلك الثأر

هو ما جذب السجادة السياسية من تحت أقدام الإصلاحيين الليبراليين وزاد مباشرة من معاناة الشعب اليمنى. وعلى الرغم من أن الواقعة تم نسيانها سريعا، وأن الغرب لم يعد يتذكرها، فقد تركت مفهوم ازدواجية المعايير الأمريكية محفورة بعمق فى الوعى القومى اليمنى.

فى عام ٢٠٠١، أتت محاولة الحكومة اليمنية للبرهان على تضامنها مع الولايات المتحدة بنتيجة عكسية دراماتيكية، بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة والمصالح اليمنية معا. قامت حكومة اليمن، فيما يمكن وصفه بمحاولة يائسة محمومة لتحاشى ثأر الولايات المتحدة وتدخلها العسكرى، باعتقال أى شخص يشتبه بأنه يكنّ دعما للقاعدة. وسرعان ما امتلأت معتقلات اليمن وسجونها بالشباب من جميع أنحاء البلد الذين اشتبه فى أنهم يدعمون الإرهاب. لكن المفارقة هى أن هؤلاء المعتقلين الذين لم يكونوا يدعمون القاعدة فى البداية، غدوا داعمين لها بعد الإفراج عنهم. كانت الاستراتيجية التى شكلت أساس الاعتقالات مزدوجة: أولا، كان ينبغى أن يُنظر إلى اليمن وهو يتخذ إجراءات سريعة ضد الإرهاب من أجل استرضاء الولايات المتحدة. ثانيا: كان الاحتواء والتحكم هما أسياد الموقف آنذاك: كلما زاد عدد الموقوفين، فى وجود قرائن ضدهم، أو فى عدم وجود أى قرائن، سيتقلص عدد الطلقاء الموجودين والمحتمل لهم شن هجوم آخر ضد مصالح الولايات المتحدة والمخاطرة بجعل اليمن نفسه هدفا للعدوان الأمريكى. ليس ثمة ندرة فى المواقف المناظرة من ردود الأفعال المبالغ فيها وبرامج الاعتقالات التى نفذتها البلدان الأخرى أثناء مسيرة الحرب على الإرهاب. لم تسهم ردود الأفعال المبالغ فيها، والاعتقالات الحماسية المفرطة بخاصة، لم تسهم شيئا فى تقليص ردكلة

الأفراد - بل العكس هو الصحيح. وضع أساس الردكلة بفاعلية كبيرة هؤلاء الذين كانوا يحاولون منعها.

لم يقتصر تعاون اليمن مع الولايات المتحدة على إعلانات الدعم والاعتقالات. دعمت اليمن سرا ضربة بواسطة طائرة بدون طيار تابعة للسى آى إيه ضد أبى على الحارثى زعيم القاعدة فى اليمن آنذاك، فى نوفمبر ٢٠٠٢ . ولسوء حظ اليمن، تم إعلان القصة حينما كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى دفعة علاقات عامة على شكل انتصار حققته فى الحرب على الإرهاب - وتركت حكومة اليمن وقد أُفشى سرها وكان عليها تبرير إجراءاتها أمام جمهورها المحلى الذى أصيب بمزيد من الإحباط. من الجدير التأكيد بأن هذا الحادث، الذى قوض صورة الحكومة إلى حد كبير، كان فى صالح القاعدة فى شبه الجزيرة العربية مباشرة إذ إن التنظيم دأب فى خطابه على التأكيد على تعاون الحكومة سرا مع الولايات المتحدة الأمر الذى اعتبره خيانة للشعب اليمنى. يشير الأسلوب الذى تنتهجه الولايات المتحدة (وبريطانيا، رغم عدم ذكر الإعلام لتعاونها مع الحكومة اليمنية) فى دعمها العسكرى لليمن إلى أنها لم تتعلم كثيرا من أخطاء الماضى. يبدو أن غياب البصيرة هذا، أو التمعن الناقد، هو السمة المميزة لسياسات مكافحة الإرهاب فى اليمن.

ومع وفاة الحارثى، وتمكن الأمريكيين من أن يزعموا انتصارا كبيرا ضد القاعدة، بدا وأنه لم يعد ثمة حاجة لمزيد من تورط الولايات المتحدة باليمن. كان الاعتقاد السائد هو أن القاعدة قد هُزِمت إلى حد كبير، وأن الحكومة اليمنية التى أُهينت لم تفعل سوى واجبها، ولم تقم بأى شىء يستحق الاعتراف به أو مكافأته. قد تفسر هذه الذهنية السبب فى أن الولايات المتحدة تخلت عمليا عن اليمن فى عام ٢٠٠٥ وعلّقت برنامج

معونتها للبلد وقدره ٢٠ مليون دولار سنويا، مما مثل نكسة ضاعف مفعولها قرار البنك الدولى بخفض حزمة مساعداته لليمن من ٤٢٠ مليون دولار إلى ٢٨٠ مليون دولار. آنذاك، لم يتنبأ أحد بالأزمة التى سيمثلها فيما بعد تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية. فى تلك الأثناء، ومن منطلقات استراتيجية، بدا وأن الولايات المتحدة كانت بحاجة ملحة إلى مواردها لدعم استمرار وجودها العسكرى فى العراق وأفغانستان.

وعلى الرغم أنه ليس من أهداف هذا الكتاب الدعوة إلى تبنى التنمية الاقتصادية كآلة لمكافحة الإرهاب، فلم يؤد تاريخ كامل من تجاهل احتياجات الشعب اليمنى وسلامته، ومن عدم مساعدته سوى حينما يتزامن هذا التدخل مع المصالح السياسية الملحة الأخرى، إلى أن يُكنّ أفراد الشعب اليمنى المشاعر الطيبة تجاه الولايات المتحدة، وأن يتحدثوا عن حق، عن نفاقها ومعاييرها المزدوجة. نتيجة لهذا، فإن انتقادات تنظيم القاعدة للحكومة وللولايات المتحدة، من المرجح لها أن تلقى دائما استجابة لدى الجماهير.

من المعروف الآن أن تنظيم القاعدة لم يكن على شفا الهزيمة النهائية فى عام ٢٠٠٥ . يمكن النظر إلى هروب ٢٣ معتقلا متهمين بالانتماء للقاعدة من أحد سجون اليمن كمؤشر مبكر على أن التنظيم كان يطور موطئ قدم له داخل صفوف الحكومة اليمنية - أو أنه كان فى الواقع يتلقى دعما لم يتوقف منها. وبعد حملة من الهجمات منخفضة المستوى نسبيا على أهداف يمنية وغربية داخل البلد، بما فى هذا هجوم على السفارة الأمريكية فى ١٧ سبتمبر ٢٠٠٨، عادت القاعدة مظفّرة إلى المسرح الدولى بإقامة تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية حيث تم

إدماج فرعيها فى اليمن والسعودية، ثم حازت اهتماما دوليا كاملا مع هجوم الكريسماس ٢٠٠٩ . واليوم، وكما تدل (محاولات) تنفيذ عدة هجمات مؤخرا، والبيانات التى تصدر باسم تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، ليبدو وأن نشاط المجموعة قد بلغ ذروة جديدة: يتبع التنظيم أجندة طموحة محلية وكوكبية معا، ويتطلع إلى الهجوم على الأعداء – الولايات المتحدة وحلفائها، والحكومة اليمنية وزعماء عرب آخرين – فى الداخل اليمنى الأمر الذى ولَّد الافتراض – أو الخوف – من أن تصبح الدولة اليمنية التى تسودها الاضطرابات، معقلا جديدا لتنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة. وكما أعلن عدد من المحللين، فإن الإحجام عن اتخاذ إجراءات ليس خيارا. هل هذا هو الوضع بالفعل. أم أنه يمكن النظر إليه بأسلوب مختلف؟

إعادة النظر إلى تهديد تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية باليمن:

فيما علينا أن نحرص على تجنب التقليل من أهمية القضية، فمن المهم وضع سؤال تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية فى إطار السياق الأوسع للسياسات الإسلامية فى اليمن. فعلى الرغم من أن المشاعر المعادية للولايات المتحدة يتشارك فيها الكثيرون على نطاق واسع، إلا أن دعم العنف بعامة، وبخاصة ذلك الذى من المحتمل له أن يؤدى إلى سقوط ضحايا يمنيين، لا يلقى قبولا من الكثيرين. وبالمثل، فإن المشاعر المعادية للحكومة منتشرة فى أنحاء البلد – وليس حكرا على تنظيم القاعدة هناك. فى الدولة اليمنية التى تواجهها التحديات فى شرعيتها، يلعب تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة دورا فاعلا فى سياق حول الشرعية السياسية يتنافس فيه ضد عدد من اللاعبين الآخرين.

الحركة الانفصالية فى الجنوب اليمنى، هى أولا وقبل كل شىء، مواجهة مع الحكومة التى كانت قد استخدمت الجهاديين لكبح «الكفرة الاشتراكيين». من ثم، فلا يحتاج المرء إلى خيال خصب بخاصة كى يَخلُص إلى أنه ليس ثمة تعاطف بين الجنوبيين وتنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، أو مع قراءاتهم الخاصة للإسلام. وفى الواقع، فقد بثت قناة الجزيرة، مؤخراً، برنامجا، حرص فيه مقاتلون يزعمون انتماءهم إلى تنظيم القاعدة باليمن على أن يوضحوا للانفصاليين أن حربهم هى ضد الولايات المتحدة وحلفائها، وليس ضد الجيش اليمنى وإخوانهم المسلمين: «تُحمل القنابل لاستخدامها ضد أعداء الله؛ أيها الجنود، عليكم أن تعلموا أنا لا نريد أن نقاتلكم». هذه كلمات قد لا يكون لها كثير من الثقل فى ضوء هجمات قاعدة اليمن العنيفة ضد الجيش. الأحرى، ينبغى إجراء مساومات وتسويات أكثر كثيرا من أجل إقناع الانفصاليين (والجمهور الأوسع الذى يخاطبونه هنا) بالتحالف مع قاعدة شبه الجزيرة العربية فى مسعى لهدف مشترك لم يتم تحديده بعد، والذى، ومن أجل نجاحه، قد يحتاج إلى استخدام القات، لا البنادق، فى عملية التفاوض. ومن الأرجح أن يكون من الضرورى تغيير تأويل تنظيم القاعدة الضيق للإسلام، أو جعله أكثر اعتدالا، من أجل إقناع من أسموهم سابقا «الاشتراكيين الكفرة» بهذه الصداقة الجديدة. وبالمثل، فإن تمرد الحوثيين الشيعة فى الشمال هو بشكل أساسى مواجهة مع الحكومة، تدفعها اختلافات دينية حول شرعية نظام الحكم باليمن. وعلى الرغم من مسعى الحوثيين لإقامة نظام الإمامة باليمن إلا أنهم لم يقوموا بطرح برنامج سياسى متسق. وفى واقع الأمر، فإنه بالإمكان قول الشىء

ذاته بالنسبة لتنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، والذى ليس لديه سوى القليل ليقدمه كاستراتيجية سياسية خارج نطاق تبنى الجهاد العنيف. لكن، وعلى الرغم من العدو المشترك، فليس ثمة الكثير من مشاعر الود التى تجمع بين المنتمين لتنظيم قاعدة اليمن وبين هؤلاء الشباب «المؤمن»، أو متمردى الحوثيين، حيث تقع أيديولوجياتهم على طرفى نقيض. بل إن تقريرا فى «دورية الحرب الطويلة» يزعم أن الحكومة اليمنية أدمجت مئات من مقاتلى القاعدة فى ميلشيات كانت تشن عمليات فى إقليم صعدة الشمالى منذ عام ٢٠٠٤، وأن أيمن الظواهرى قد وعد الرئيس اليمنى مؤخرا بمزيد من المقاتلين مقابل الإفراج عن نشطاء القاعدة الموجودين بالسجون اليمنية. وعلى الرغم من صعوبة التأكد من صحة تلك المقولات، فمن المنطقى أن نفترض أنه من غير المرجح لأتباع تنظيم قاعدة شبه الجزيرة العربية، والمتمردين المتخصصين فى العنف، لا فى التسويات السياسية المنظمة القائمة على الأخذ والعطاء، أن يبحثوا عن أرض مشتركة وسط سياق فيه الاختلافات المذهبية والطائفية آخذة فى التعمق. علاوة على ذلك، ففيما استطال أمد الصراع الدموى لسنوات وسنوات، وتسبب فى وقوع عدد كبير من الضحايا، ونزوح ما يربو على ٢٥٠٠٠٠ من السكان، فمن غير المرجح لاستمرار العنف سعيا وراء أهداف غير واقعية أن يحظى بقاعدة عريضة من الدعم المحلى.

بيد أن هاتين المجموعتين لا تمثلان سوى اللاعبين الأكثر بروزا فى صراع الإسلاميين على الشرعية السياسية باليمن. غير أنه من الطبيعى أن يتمعن المرء فى جماعة الزيديين الإحيائين (وهم شيعة معتدلون متسامحون وأقرب الطوائف الشيعية إلى السنة فى معتقداتهم) – والذين

لا ينبغى مضاهاة أنشطتهم بتمرد الحوثيين، والذين ليسوا سوى جزء صغير من المدى الواسع للتجمعات المعارضة الذين يمثلون رد الفعل متعدد الطبقات ضد سياسات الحكومة المعادية للزيدية والتى هى فى سبيلها للقضاء تدريجياً على إرث اليمن الزيدى. هناك زيديون لديهم روابط وثيقة مع إيران، وهؤلاء يمثلون قطيعة أيديولوجية مع الطائفة الزيدية اليمنية، وقد وقعت بينهم وبين القاعدة صدامات عنيفة فى العراق بخاصة. لكن هناك جناحا زيديا دينيا تقليديا: يركز على التعليم، ودافعه فى هذا مجابهة التأثيرات الوهابية السَّلفية التى أدخلتها السعودية إلى اليمن [عن طريق الأموال والدعوة وإنشاء مدارسها الغربية الخاصة]. لا يوجد بين المجموعات المختلفة التى تتشكل منها حركة الإحياء الزيدية، والتى يوجد بينها خلافات بدرجات متفاوتة، سوى قليل من المشتركات مع تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية. وفى الواقع، تشير التقارير الأخيرة من اليمن إلى تزايد التصادمات بين الزيديين مع متطرفين سنة يُعتقد أنهم مرتبطون بتنظيم قاعدة اليمن، كما بدأت تطفو على السطح مقارنات لبدايات صراع طائفى يماثل ما وقع فى العراق.

يضيف السلفيون مزيدا من التنوع إلى طيف الأصوات الإسلامية باليمن، وفقا للورانت بونفوى، فهؤلاء هم مجموعة لا سياسية تشكلت حول الراحل مقبل الوادعى، ويميزها إدانتها للعنف. وبتحديد أكثر، تقول التقارير إن الوادعى كان ناقدا صريحا لاستراتيجيات الجهاديين واتهم بن لادن بأنه يفضل الاستثمار فى السلاح لا فى إقامة المساجد. عمد محمد الإمام، وهو عضو كاريزمى آخر فى الجماعة، إلى الاستمرار فى موقف سلفه وشجب استخدام الجهاديين للعنف ضد قوات الاحتلال فى

العراق. والسلفيون بهذا يعارضون بأسلوب مباشر العنف الذى تستخدمه قاعدة اليمن باسم الإسلام.

جماعة الإخوان المسلمين مندمجة جيدا فى نسيج المجتمع، ويمثلها فى الحلبة السياسية التجمع اليمنى للإصلاح، وهو الحزب المعارض الرئيسى باليمن. يطلق «الإصلاح» حملات حول عدد من القضايا تتراوح بين دور المرأة فى المجتمع، واللجوء إلى العنف، وتخضع جميعها للجدل الدائم.

عبدالمجيد الزندانى هو من بين الأعضاء الغامضين الأكثر تطرفا، والذى يزعم أنه هو من تولى القيام بالترتيبات لإرسال المقاتلين اليمنيين إلى أفغانستان فى الثمانينيات، كما يقال إنه التقى بن لادن فى مناسبات عدة. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تعتبره شريكا وثيقا لبن لادن وداعما للقاعدة، إلا أن وضعه كشخصية ذات شعبية فى التيار السائد يحظى بالاحترام على نطاق واسع، كما أن التوجه القتالى العنيف لا يلقى قبولا من الكثيرين داخل الحزب.

شهدت الحركة الصوفية عملية إحياء مهمة فى نهاية التسعينيات، وغدت تقوم بدور مهم بتزايد فى السياسات الإسلامية باليمن. تنجز الحركة هذا من خلال قناتين رئيسيتين: توصيل مبادئها الدينية وتعليمها، واشتراكها فى المشهد السياسى، حيث تحدت حزب الإصلاح فى الانتخابات السابقة. وأثناء مسيرتها، اصطدمت المجموعة بعنف مع الفصائل الأخرى، الأمر الذى حفز المعلقين لوصفها بأنها «مهددة من جميع الجوانب من خلال السياسات الحكومية والمجموعات الإسلامية الأخرى».

ومعاً، يمثل هؤلاء اللاعبون المختلفون عددا كبيرا من وجهات النظر حول نظام حكم الدولة والشرعية السياسية فى اليمن، وهم بهذا يوفرون بدائل قابلة للحياة لمنطق الجهاد العنيف الضيق الذى يتبناه تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية. من المحتم، وسط فراغ السلطة الذى يتبدى فيما تتراجع سلطة الحكومة اليمنية (أو إذا تراجعت) للتعبيرات عن الخلاف أن تصبح أكثر تحديدا ووضوحا. وفى الواقع، فإن أحد الملامح المتمايزة للمشهد اليمنى المعاصر هو إبراز الاختلاف: تحديد اليمنيين لأنفسهم أو تحديد الآخرين لهم بصفتهم سلفيين، جهاديين، زيديين، صوفيين، ووفق تنويعات أخرى كثيرة لتلك الهويات. وفى إطار هذا السياق، فإنه نوع الجدل الداخلى - عملية ظهور قيادات داخل اليمن يصعب خضوعها للتأثيرات الخارجية - هى التى ستقرر مستقبل تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية. من ثم، فإن قدرة هذا التنظيم على ترسيخ نفسه فى البلد سيتوقف إلى حد كبير على قدرته على المناورة الفاعلة فى مجال المساومات والتسويات السياسية - وهى مهمة لا يتضمنها التنظيم الذى يعتمد على استخدامه الحصرى لأساليب تفجيرات شبه حرفية. وفى الواقع، فإن كان لنا أن نتخذ القاعدة فى العراق نموذجا نحكم وفقه على قاعدة اليمن، فإن الاعتماد على العنف وحده لا يؤدى إلى اكتساب دعم قاعدة جماهيرية قوية، ومن المحتمل له أن يستبعد تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية إلى الهوامش، بدلا من الارتقاء به وجعله مركزا للحياة العامة والشئون السياسية.

انبعاث القاعدة من جديد؟

أين يترك هذا تقييم القاعدة فى فترة ما بعد ٩/١١؟، بدا التنظيم فى

أعقاب ٩/١١ مباشرة وفى السنوات الأولى من الحرب على الإرهاب وأنه قد لحقت به ضربات خطيرة وصلت إلى بنيته المركزية. وفيما أنه بالإمكان النظر إلى الهجمات اللاحقة، التى يشتم من بعضها قدر معين من اليأس، فعلى الرغم من ذلك، فقد أفشت الجماعة ضعفها من خلال عدم قدرتها على القيام بهجوم على قدر كبير من الأهمية أو الخطورة. وبعد فترة من الهدوء، والغياب النسبى للهجمات ضد الأهداف الغربية، انتقل الجدل مرة أخرى باتجاه انبثاق القاعدة من جديد. سرعان ما انتقلت بؤرة تركيز المجتمع الدولى إلى اليمن، بعد أن أطلق هذا التركيز هجوم يوم الكريسماس، وأشعلته مؤامرة «خراطيش أحبار الطابعات» المبتكرة. ساد الاعتقاد أن أحدث فروع القاعدة، أى تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، قد أعاد تنظيم صفوفه ليصبح تنظيما ذا هيكل رسمى والذى يقال الآن إنه أكثر خطورة من التنظيم المركزى الأصلى للقاعدة، ويحتمل له أن يكون قد حل مكانه. بيد أنه يبدو أن مثل تلك التقييمات ليست نتيجة البراهين الإمبريقية بشكل أساسى، لكنها، وبدرجة أكبر، نتاج تقييمات متسرعة لسلسلة من الأحداث المذهلة اللافتة، ولّدتها محاولات المحللين- الذين يفترضون وجود جهة أعظم وأشد خطورة تعمل خلف الكواليس أو يخشون ذلك، لإثبات فكرة وجود تنظيم فى موقع محدد لم يلتفت إليه الكثيرون من قبل، وكان مجهولا للغالبية، وغدا موضوعا لكثير من التكهنات الاستشراقية. لكن، مع الفحص المتمعن، يصبح بالإمكان تحدى فكرة القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، بصفتها تنظيما ذا بنية راسخة مقسمة إلى فئات وظيفية وفق التقارير المتناقضة والمبهمة عن قياداتها وعضويتها، علاوة على وضعها فى اليمن

ككل، حيث غدت واقعيا، لاعبا جزئيا فى الصراع على السياسات الإسلامية.

ومن منظور تحليلى، فإن تقييم المجتمع الدولى للقاعدة يبدو وأنه يتبع نموذجا يمكن تمييزه: لا يقوم هذا التقييم على الأدلة الإمبريقية الصارمة والتحليل النقدى. بل إنه يميل، بدلا من ذلك، لأن يُبنى على ردود الأفعال. تصدرُ التقييمات بعد محاولات الهجوم التى تنفذها القاعدة باتباع أسلوب متعجل ارتجاعى، أسلوب مبنى على الحدث، والنتيجة الضرورية لهذا هى أن الاستنتاجات تميل لأن تكون سطحية وتبسيطية: القاعدة موجودة وخطرة لأنها من الواضح تستطيع أن تقوم بالأفعال وتنفذ الهجمات. نادرا ما يبرز إلى دائرة الضوء التحليل الذى يقترح أن اتهام القاعدة بالتورط زائف، فى حين يتم تجاهل ظلال الآراء المختلفة التى تقول بوجود حركة إرهابية ومشاهد جيوسياسية معقدة يكمن فيها جوهرها بصفتها اعتمادا مفرطا على التجارب السابقة، فيما تستولد النظريات المتراكمة نتيجة حالات سوء الفهم الماضية فرضيات جديدة. مثل هذا التحليل يستند، دونما قصد، إلى نظرية محددة عن وجود القاعدة ويغذيها، نظرية يألفها الدراسون للوجودية: لا يقتصر الأمر على أن التنظيم يكسب الاعتراف به من خلال تنفيذ الهجمات، بل إنه يوجد فى عملياته العنيفة. وهكذا، فقد عمل هجوم يوم الكريسماس ٢٠٠٩، وما تلاه من أحداث على بعث القاعدة ككيان ذى صلة وأهمية بالنسبة لأتباعه، وأيضا محلليه ومراقبيه فى الغرب.

علاوة على ذلك، فإن حالة عمر فاروق عبدالمطلب ودور العولقى المزعوم «خارج اليمن» جعلا من الممكن - مرة أخرى - إبداع إنشاء موقع

جغرافى كمركز روائى لتحليلات القاعدة. وعلى الرغم من الطبيعة المشبوهة والمتناقضة للأدلة الإمبريقية، فقد أعلن الإعلام الجماهيرى والمحللون الأمنيون اليمن مقرا رئيسيا جديدا للقاعدة، يتم توجيه عملياتها منه. وعلى حين أنه لم يوجد سوى أقل من الاهتمام بغياب الأسباب الإمبريقى، فإن هذه النقلة تتيح للرأى السائد عن القاعدة الاستناد إلى الفرضيات الوجودية التقليدية. وفيما بعثرت نظرية «الجهاد بدون قائد» مصدر الإرهاب وعدم اليقين ونشرتها فى أوساط المجتمعات الغربية، والتى من خلالها أصبح من غير الممكن جوهريا التعرف على الإرهابى نظرا لأنه عضو فى تلك المجتمعات، فإن «اكتشاف» اليمن بصفتها المركز الجديد للقاعدة، يتيح النظر إلى القاعدة وأيديولوجيتها على أنها متجذرة فى الطبيعة «المشرقية» المحددة لتلك الأماكن – أى البيئات الإسلامية الشرقية. وهكذا، فإن القاعدة مرة أخرى تواجه خطر عدم النظر إليها بصفتها تهديدا أيديولوجيا بشكل أساسى باستطاعته أن يكمن «داخل أنفسنا نحن» – أى المجتمعات الغربية – بل بالإمكان تحويلها بثقة إلى «آخر» والتعاطى معها على أنها قضية غربية أجنبية موجودة حصرا فى سياق سياسى معين، ومن ثم فهمها على أنها ترتبط بمجتمعات غريبة عن القيم الغربية، بل حتى معادية لتلك القيم وتتواجد فيها.

الفصل السادس

مستقبل القاعدة

على الرغم من أن الجوهر الصلب - الطليعي - قد تفرق، وتم تدمير قاعدته ومقره، فإن ذاك التوق للجهاد الذى أرسل بعشرات الآلاف من الشباب ليسعوا إلى التدريب والجهاد فى أفغانستان، مازال مزدهرا. يتفهم الملايين رسائل بن لادن. وإنه من بين تلك الملايين ستأتى الموجة الجديدة من الإرهابيين. سيعملون «مستقلين» لحسابهم دونما أى رابط واضح بأية مجموعة موجودة. وغالبا، لن يكونوا قد سبق لهم التورط فى الإرهاب. من المحتمل ألا تتاح لهم المتفجرات المتقدمة، أو الأسلحة الأتوماتيكية أو الصواريخ، لكنهم بمجرد أن يقبلوا بنظرة «الجهاديين السلفيين» المتطرفين إلى العالم، سيلتزمون بالعثور على الموارد الضرورية لإطلاق حربهم المقدسة العنيفة الخاصة، سواء كان سلاحهم بذور خروع معدة كى تشكل سمًا بدائيا فى شقة بشمال لندن، أو سكين مطبخ تُغمد فى صدر رجل شرطة بمانشستر، أو شاحنة للجيش العراقى مليئة بمتفجرات، أو طائرة مليئة بالوقود والركاب. بالنسبة لهؤلاء الرجال، فإن الجهاد واجب دينى. يأتى إليهم بشىء لا يستطيعه أى شىء آخر، ولن يثنيهم عن ذلك تسليم البعض منهم إلى سفارات بلادهم [لتعذيبهم] أو تدمير أحد معسكرات الاعتقال فى بلد ناءٍ.

چايسون بيرك، ٢٠٠٧

تفـيـد بعض الأحـداث الفـردية فى إثبـات صـحـة تنبـؤ بيـرك بأن التجسيدات الجديدة للإرهاب الإسلامى سيكون مصدرها أفراد يأخذون على عاتقهم مسئولية تنفيذ عمليات جهادية: حالة نضال مالك حسن، الطبيب النفسى والضابط بجيش الولايات المتحدة الذى نفذ عملية إطلاق النيران بقاعدة فورت هوود فى نوفمبر ٢٠٠٩ والتى سقط فيها ثلاثة عشر قتيلا وجُرِح ثلاثون شخصا: حالة الطالبة روشونارا شودرى البالغة من العمر واحدا وعشرين عاما والتى قامت فى مايو ٢٠١٠ بطعن ستيفن تيم النائب العمالى فى بطنه فى دائرته الانتخابية انتقاما منه لأنه صوَّت مؤيدا للحرب على العراق؛ وحالة العراقى السويدى تيمور عبدالوهاب العبدلى البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاما وأول مفجر انتحارى

سويدى والذى لقى حتفه وسط متسوّقى الكريسماس فى شارع مزدحم بستوكهولم فى ديسمبر ٢٠١٠ بعد انفجار جزئى لقنابل كان يحملها. هذه الحوادث نماذج لهجمات الجهاديين المستقلين الأكثر شهرة. ويعد هؤلاء نمطا إرهابيا شائعا بتزايد، قاموا بردكلة أنفسهم بمساعدة الإنترنت، و يعملون دونما دعم من شبكات خارجية، ولا يعبرون الحدود كى يصلوا إلى هدف مختار. أكد بروس هوفمان، فى حوار أجرته معه النيويورك تايمز بتاريخ نوفمبر ٢٠٠٩ فى أعقاب حادث فورت هوود أن أعداد مثل تلك الحوادث آخذة فى الارتفاع وأن المتورطين فيها أناس ليست لهم روابط مباشرة مع المنظمات الإرهابية:

يكتسب توجه الردكلة الذاتية الذى يشجعه قادة القاعدة وحلفاؤها من خلال

التدفق المطرد للوسائل المثيرة على الوب، يكتسب زخما، هكذا قال، المستر هوفمان، ثم أضاف «لديك أحداث من جميع الأشكال والأحجام، الأمر الذى يمثل تحديا لفرض القانون» فى إشارة منه إلى إطلاق النار الذى وقع بمركز التجنيد فى ليتل روك، والمعابد اليهودية التى استُهدِفت بمنطقة البرونكس، ومخططات التفجيرات فى إلينوى وتكساس التى أثبطت، وأخريات.

بيد أن الفكرة القائلة بأن هؤلاء كانوا أفراداً يعملون مستقلين تم تحديها. سرعان ما كشفت التحقيقات التى تناولت حياة المهاجمين الشخصية وأحوالهم عن تأثير مصادر أجنبية وأفراد مرتبطين بالقاعدة. اكتُشف أن كلا من حسن وشودرى كانا على اتصال برجل الدين الموجود باليمن أنور العولقى: كان حسن قد اتصل بالعولقى من خلال الإيميل، فيما اعترفت شودرى أنها استمعت إلى رسائل رجل الدين أون لاين وعزت قرارها بالهجوم على عضو البرلمان إلى تأثيره عليها. بدأت الشكوك فى وجود رابطة بين مثل تلك الهجمات فى اليمن فى الظهور، ثم انطلقت فى نهاية المطاف حينما أصبح من الواضح، أثناء التحقيق فى هجوم يوم الكريسماس، أنه من الممكن تقصى «ردكلة» عبدالمطلب إلى العولقى وإلى تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية الذى كان قد تشكل مؤخرا. وبأسلوب مماثل، تم الربط بين هجوم عبدلى والقاعدة بالعراق. ذهب رانستورپ إلى أن.

كَشْف العبدلى على شريط الوداع عن أنه سافر عدة مرات إلى الشرق الأوسط للقيام بعمليات جهادية أثار إمكانية وجود روابط بينه وبين شبكات إرهابية أكثر تنظيما بالمنطقة. دُعِم هذا الاحتمال من خلال ارتباطه بدولة العراق الإسلامية على صفحته على فيس بوك، وقوائم الشيخ محمد المقديسى ومقالاته، والادعاءات العديدة المصدقة على المواقع الإلكترونية المتطرفة المرتبطة بالقاعدة التى تشير إلى انتمائه إلى دولة العراق الإسلامية.

ليس بين مقاصد هذه الدراسة إنكار احتمال اشتراك التنظيمات الكبيرة التى تعمل من العراق واليمن فى ردكلة المسلمين الذين يمضون بعد ذلك ويرتكبون عمليات إرهابية. بيد أنه، فما يجب التأكيد عليه هو أن الاعتقاد، أولا، بأن مثل تلك التنظيمات موجودة ومازالت تعمل بنشاط على ردكلة الأشخاص وتجنيدهم، وثانيا، أنه بالإمكان بسهولة تحديد مصادر الردكلة فى مواقع محددة بالعالم الإسلامى، هذا الاعتقاد يقوم على أساس وجود روابط واهية ويمكن تفسيرها بأساليب أخرى. توضح النظرة المتمعنة إلى حالات المهاجرين الذين أوردناهم سابقا إلى مستوى التبسيط المفرط المتأصل فى نسبة ردكلتهم إلى مصدر معين. فى حالة حسن، يقوم زعم ارتباطه بالقاعدة، حصريا، على تبادل حوالى دستة من الإيميلات مع العولقى، أما شودرى فلا تعدو القرائن أنها استمعت إلى خطب رجل الدين على الإنترنت، مما يجعل الزعم بارتباطها أكثر ضعفا. عادة، لا يستيقظ الأفراد وهم يشعرون برغبة مفاجئة فى أن يكونوا إرهابيين، أو بالتضحية بأنفسهم فى عمليات جهادية كوكبية، الأحرى أنهم يمرُّون بعملية يتعرضون أثناءها للأفكار المتطرفة التى يبدأون فى التماهى معها بمرور الوقت: وفى الواقع، فقد كشف التحقيق عن وجود تاريخ ليس بالقصير شُغِل حسن خلاله بأفكار الإسلاميين قبل إطلاقه النار، وقبل اتصاله بالعولقى. مثلا، تذكر السجلات أنه أثار دهشة زملائه أثناء سنته النهائية من دراسته الطبية عام ٢٠٠٣ بإلقائه محاضرة رسمية تحدث فيها عن الإسلام، والحاجة إلى الدفاع عنه، والمأزق الذى يمثله هذا للمسلمين بالقوات المسلحة من أمثاله، بدلا من التحدث عن

مسألة طبية محددة كانت من المفترض أن تكون موضوع المحاضرة. وفى الواقع، فإن ثمة سجلاً طويلاً لعملية ردكلته، حيث ذكرت التقارير أنه أصبح مسلما. ملتزما بتزايد، وكان يذهب للصلاة بالمسجد عدة مرات كل أسبوع، ويكتب أوراقا بحثية عن مواضيع مثل ما إن كانت الحرب على الإرهاب هى حرب على الإسلام. ويقترح أشكالا للمقاومة الإسلامية. لكن، وعلى الرغم من هذه المسيرة الموثّقة جيدا، فقد احتل تفاعله مع العولقى وضعا مركزيا فى الرواية عن الأسباب التى دفعت حسن لارتكاب فعل إرهابى. وفيما أنه من المحتمل أن تواصله مع رجل الدين كان المقداح النهائى الذى أطلق عمليته العنيفة، فمن المرجح أيضا أن يكون نشر فرقته العسكرية الوشيك فى أفغانستان، أو مسألة شخصية أخرى مجهولة للمحققين والإعلام، هى التى أدت بحسن إلى ارتكاب جريمة القتل. من الجدير بالملاحظة أن مسيرة حسن الفعلية إلى التطرف – التزامه المتعمق بالإسلام مع انشغاله المتسق بالأفكار المتطرفة – لم تنل سوى قليل من الاهتمام [مقارنة باتصاله بالعولقى].

يمكن الافتراض أيضا أن شودرى قد مرت بنفس المسيرة باتجاه التطرف التى بلغت ذروتها بطعن عضو البرلمان عن حزب العمال، هذا على الرغم من عدم ذكر التقارير الكثير عن ظروفها الشخصية باستثناء أنها كانت طالبة موهوبة بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة لندن وكانت تتقن عدة لغات، وتطوعت للعمل بالجمعيات الخيرية الإسلامية. جاء بالتقرير الذى كتبته الجارديان عن أسباب تطرفها ما يلى:

«بدأت أقوى القرائن على التغير الأيديولوجى فى معتقدات شودرى فى رحلتها باتجاه التمسك بأساليب الجهاد العنيفة فى الظهور أواخر عام ٢٠٠٩. بعد توقيفها،

قامت الشرطة بمصادرة حواسبها وتفحصها بحثا عن صلات لها مع الجهاديين، ولم تجد أثرا لذلك، وأيضا عن تفاصيل المواقع الإلكترونية التى قامت بزيارتها. لم يكن لها أية صلات معروفة بجماعات إسلامية، ولم تكن ثمة قرائن بإطلاقه على حضورها اجتماعات، أو امتلاكها أية أدبيات يحتمل لها أن تكون متطرفة. وجدت تحقيقات الشرطة أن شودرى، بدأت فى الربع الأخير من عام ٢٠٠٩، بتحميل خطب ومواد للعولقى، رجل الدين الإسلامى الذى يقول المسئولون الغربيون إنه القائد الروحى للقاعدة فى شبه الجزيرة العربية. كان يدعو إلى العمل العنيف لمجابهة البشاعات التى يرتكبها الغرب ضد المسلمين فى أنحاء العالم ويحث أتباعه على فعل ما فى وسعهم، حيثما استطاعوا، أيا كان صِغر حجم ما يقومون به.

يمكن القول إن الملاحظة الأكثر تبصراً فى هذا العرض الموجز تتعلق بعدم وجود أى روابط معروفة لشودرى بأية مجموعات إسلامية، أو مصادر أخرى لتعليم التطرف. ما يتم التركيز عليه هو دور العولقى فى عملية ردكلتها. وكما ورد فى تقرير للبى بى، سى «أصبحت الطالبة المسلمة [التى تصرفت بمفردها وبناء على قرارها الحر] مُردكلة بعد أن شاهدت أون لاين خطب العولقى الدينية وهو رجل دين أمريكى متطرف من أصل يمنى. بيد أنه قد يبدو أن ثمة مسائل وتأثيرات أخرى لها القدرة على ردكلة الفرد والتى لا يمكن للمراقب الخارجى تقصيها بسهولة. مثلا، بإمكان الفرد أن يشير إلى حقيقة أن الكلية التى كانت شودرى تدرس بها كانت تجاور مؤسسة أكاديمية يذهب إليها عمر فاروق عبدالمطلب المولود بنيجيريا، والذى قام بتفجيرات الكريسماس، حيث عُرِف عن الجمعية الإسلامية التى كان يترأسها أنها كانت تعمل على نقل الأفكار الراديكالية المتطرفة – وهذه حقيقة لم تلق اهتماما فى قضية شودرى. هل الافتراض أن الطالبة كانت قد تعرضت لأفكار متنوعة

غرست بذور الراديكالية حينما كانت تتحدث مع أقرانها فى المكتبة، أو وهى فى طريقها إلى قاعات الدراسة، أو حقا أثناء مشاهدتها للأخبار بالتليفزيون هل هو افتراض بعيد الاحتمال؟ بالطبع هذا محض تكهن ومن المحتمل ألا تكون هذه الروابط قد وُجدت أبدا. بيد أن الهدف هنا ليس هو إثبات عدم وجودها، أو اقتراح المسيرة الأكثر احتمالا التى من خلالها تمت ردكلة مثل هؤلاء الأفراد. الأحرى أن الهدف هو توضيح أن مهمة تحديد عملية تطور معتقدات أى شخص وقناعاتها ورسم خارطة لمسيرتها بأية درجة من اليقين هى مهمة معقدة لا تأخذ فى الحسبان التحديد الواضح الجلى لمثيراتها باستثناء تلك التى يمكن أن تُعزى إلى التوجهات العامة، والتى لا يتخطى تأثيرها، فى حد ذاتها، درجة معينة.

وعلى الرغم من هذا التعقيد فإن ثمة فيضاً من «الحلول» السهلة. انبثقت إلى المخيلة الشعبية مراكز جديدة تقوم القاعدة منها بردكلة الإرهابيين المحتملين وبتجنيدهم للقيام بعمليات جهادية كوكبية. واليمن مثال واضح على هذا، على الرغم من ظهور مراكز فرعية أخرى على المستوى القومى فى الخطابات العامة والأمنية معا، مثل الخوف الذى يعبر عنه من أن تصبح الجامعات البريطانية مراكز لتفريخ المتطرفين. بيد أن التفحص المتمعن يبين أن الصورة ليست على هذه الدرجة من الجلاء. فحتى إذا عزونا ردكلة المهاجمين سالفى الذكر إلى العولقى بشكل أساسى، يظل تحديد موقع عملية الردكلة فى اليمن حصريا أمرا صعبا. لقد قضى العولقى نفسه جلّ سنين حياته بالولايات المتحدة ولم يعد إلى اليمن إلا منذ فترة قريبة نسبيا. كانت صلته بحسن شودرى من خلال

الإيميلات، فيما تتدفق الخطب الدينية على الإنترنت وهى متاحة من أى موقع تقريبا، لكن من المفارقات، فهى ليست متاحة بسهولة من اليمن التى كثيرا ما تتعرض لانقطاع التيار الكهربائى ووصلات الإنترنت. بدأ عدد من الوسائط الإعلامية الموجودة على الشبكة الإلكترونية مثل المدونات، والرسائل الفورية، والروابط والصداقات التى عمل فيس بوك وتويتر على تيسيرها، بدأت تحل محل الروابط والعلاقات فى العالم الواقعى، وتراوغ أية محاولة لتحديدها بنطاقها المحلى. وجود العولقى والمدى الذى تصل إليه أفكاره ليس محليا بل كوكبيا.

وإذا وضعناه فى إطار منظور أوسع، نجد أن مُدرك العالم عن القاعدة مازال يتنقل من جهة بين فكرة الشبكة المشظاة الغامضة المكونة من أفراد متماثلى الفكر لا يربطهم سوى الأيديولوجيا، وبين الاعتقاد فى وجود تنظيم ذى بنية هيكلية له موقع جغرافى ومركز قيادة واضح المعالم من الجهة الأخرى. وكما أوضح النقاش فى الفصول السابقة، فليست هذه ظاهرة جديدة، لكنها ظلت سمة مميزة للنقاش حول القاعدة فى الغرب ومنذ البدايات الأولى. ومنذ «مكتب الخدمات» سلف القاعدة المزعوم فى أفغانستان، ظل النقاش حول القاعدة دائما، وبدرجات متفاوتة، هو بحث عن القاعدة دافعه الاعتقاد فى حتمية وجود شىء أكبر هناك بالخارج، أو الافتراض فى وجود كيان كهذا، أو الخشية من وجوده. وسواء كان دافع مثل هذا البحث هو تحقيق هدف الادعاء على بن لادن ومحاكمته غيابيا، كما كان الحال فى قضية «الولايات المتحدة ضد أسامة بن لادن» فى أعقاب تفجير سفارتى الولايات المتحدة، أو

بهدف شن الحرب الشاملة على الإرهاب الأعظم مدى بكثير فى أعقاب ٩/١١، فإن هذا، بمعنى ما، لا يضيف إلى طبيعة الجدل سوى ظلال مختلفة من المعنى، وضحايا محتملين. وفى كل حالة، فإن النقاش، الذى يسعى فى جوهره إلى إضفاء المنطق على الاعتقاد فى وجود «تنظيم للقاعدة»، والبرهان على وجوده، كان يتبع نموذجا مرتجلاً يعقب الأحداث: كلما وقع هجوم سارع المحللون وصناع القرار مندفعين فى محاولة منهم لتحديد العدو. وفى تلك الأثناء، تطورت نظريات عن مراكز جغرافية متنوعة لتثبيت موقع القاعدة ذات الطبيعة المراوغة: كان أولها أفغانستان. ثم تبعه العراق، أما المركز فى الوقت الراهن فهو اليمن.

بالنظر إليه بهذا الأسلوب، فإن الجدل القائم حول القاعدة يبدو وأنه يتسم بدرجة معينة من مقاومة قبول فكرة إمكانية أن يكون العدو «بيننا هنا» لا «بالخارج هناك» وعدم الاستعداد للقبول بها. مثل هذه الملاحظات حول كيفية تكوين المفاهيم عن القاعدة هى أكثر من مجرد تنظيرات مجردة ليست لها كثير من العلاقة بالعالم الواقعى، أو بالوقائع العملية لعمليات مكافحة التمرد القائمة. وفى الواقع، فإنه بالإمكان توسيع هذا التحليل للتوترات بين الفضاءات الكوكبية والمحلية ليشمل ما يمكن القول بأنه يشكل إحدى أكثر التناقضات الجوهرية التى تسم محاولات مكافحة الإرهاب القائمة. ذلك لأنه إذا كانت القاعدة فعلا تمثل مشكلة كوكبية – وفيروسية شاملة، فإن جدوى محاولات تحديد موقع للتنظيم فى مركز رئيسى مشكوك فيها. إن التدخلات المتمركزة والمحدودة مكانياً هى بطبيعتها غير فاعلة لمجابهة مثل هذا التهديد. وعلى الرغم من ذلك، فإنه،

ومنذ بداية الحرب على الإرهاب، والتدخل فى أفغانستان، ظلت قوات التحالف مشتبكة فى حملة مستطالة والتى، وكما أوضحت الهجمات الإرهابية اللاحقة، أعاقت القاعدة مؤقتا ولم تقض عليها هى والمرتبطين بها بأسلوب حاسم.

وفى واقع الأمر، فقد تفرقت القيادات، أو المركز الأساسى، لتظهر فى أماكن أخرى مثل العراق أو المغرب، أو اليمن – وهذا قبل أن نأخذ فى الاعتبار بعد القاعدة الأكثر غموضا بكثير والمتعلق بالأيديولوجيا وانتشار الأفكار الذى يتحدى أية محاولة لتحديد موقعه فى المقام الأول. وعلى الرغم من هذا التطور الذى من خلاله تستعيد القاعدة انبعاثها، وتنقل موقعها، بأسلوب متنبأ به، فقط بالقدر الذى هو غير متنبأ به، أسلوب كوكبى ومتشظ، مازال الرأى القائل بأن ثمة مركزاً بالإمكان هزيمته قائما فى الدوائر الدفاعية والأمنية. فى جوهر هذا الرأى يكمن الفهم [أو سوء الفهم] بأن الدولة الفاشلة أو التى فى سبيلها لأن تصبح فاشلة، هى أراضى استيلاد للقاعدة، أو ملاذات آمنة لها، وأنه من أجل محاربتها يجب نشر مفهوم شامل للأمن يأخذ فى حساباته العلاقة المتداخلة بين الأوضاع الاجتماعية والسياسية والأمنية. من ثم، لا يضاهى تشخيص الإرهاب بأنه تهديد جهازى فيروسى خطة علاج تعيد التعبير عن وجود منشأ له رحّال ومرتبط بدولة بعينها بقدر ما تفاقمه. هكذا، فعلى الرغم من تصوير القاعدة من منطلق الأيديولوجيا المكوكبة، بأكثر من كونها هيكلاً تنظيميا، يظل خطاب قوات التحالف يستند إلى فكرة وجود «مركز» تُخطط فيه الهجمات ويتم توجيهها منه، ومن ثم، ينبغى هزيمته

وتدميره. يُعتقد أن التحكم فى هذا المركز يعنى التحكم فى انتشار الإرهاب و«عبثه». من ثم يظل المبدأ يقوم على الاعتقاد بأنه من أجل ضمان أمن الغرب ومحاربة الإرهاب الذى تنشره القاعدة بفاعلية، فإنه ينبغى أن تتخذ العمليات شكل الذهاب إلى مصدر الهجمات - أى مركز القاعدة ومقرها.

بيد أنه، وكما أوضح تحليل القاعدة فى مختلف فصول هذا الكتاب، فإن مفهوم وجود مركز لا يصمد أمام التحليل. مازال الواقع الفيزيقى للقاعدة يراوغ محاولات التعيين الواضح المحدد، ومازال يختفى فى الظلال لدى تتبعه بزخم مفرط، ثم يعاود الظهور من خلال هجمات جديدة، أو ڤيديو لدمج فرعين، أو إعلانٍ أون لاين، لا يتطلب الأمر سوى عدد قليل من الأفراد يلوّحون بعلم القاعدة من خلال الإعلان عن شن هجمات باسم الجهاد كى يتذكر المجتمع الدولى باستمرار وجودها وتهديدها القائم دائما. يصبح من السهل التنبؤ باستجابات الذين يشاركون فى مهمة مكافحة الإرهاب، تلك الاستجابات التى لا تخرج عن كونها ردود أفعال، وذلك لأنهم يسيطر عليهم هاجس مطاردة «قواعد» ثابتة لقيادات وأعضاء تنظيم القاعدة واقتفاء أثرهم فى مكامنهم. من ثم، فتلك الاستجابات بطبيعتها ردود أفعال، إجراءات تقتصر على مطاردة الوحش كلما خطر له أن يرفع رأسه. لكن لعبة القط والفأر هذه يحتمل لها أن تنتهى باستنزاف قوة الطرف المُطارِد وقدراته. لم تتوقف هذه الحرب التى تشنها الولايات المتحدة على الإرهاب على الرغم من الآراء الناقدة المستمرة والتى ترى أن رد الفعل الأمريكى هذا يعمل لصالح بن لادن الذى يُقال إنه يتعمد استنزاف الولايات المتحدة حتى الموت من

خلال التكلفة المالية والبشرية الهائلة التى تتكبدها، والتى غدت تكلفة باهظة بخاصة فى سياق الأزمة الاقتصادية الراهنة. لكن هذا هو شق واحد فقط من القصة.

أما الوجه الآخر، والذى قد يكون أكثر أهمية، فإن رد الفعل الأمريكى هذا من خلال شن حرب شاملة أتى بنتائج عكسية حيث إنه يدعم الرواية التى ترى الولايات المتحدة وحلفاءها قُوىَ استعمار قامعة تتسبب فى معاناة المسلمين، وأن حربها هذه هى حرب على العالم الإسلامى. تهيمن صور العنف فى أفغانستان والعراق على الوسائط الإعلامية وتطمس إلى حد كبير الأخبار «السارة» المحدودة، التى يعتبرها البعض مجرد بروپاجندا، مثل تحرير النساء الأفغانيات وإقامة البنى التحتية الأساسية مثل المستوصفات والمدارس. وفى الواقع، فإن أحد الدروس التى يجب أن نكون قد تعلمناها من الحرب الكوكبية على الإرهاب، هو أن المواجهة العدوانية مع «العدو» – سواء فى شكل توقيفات عشوائية، أو احتجاز المتهمين فى المعتقلات لأمد غير محدد أو التدخلات العسكرية – لم تفعل شيئا لجعل الولايات المتحدة والغرب أكثر أمنا من غضب الجهاديين المتطرفين أو من هجماتهم العنيفة. توضح ظاهرة تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية والتى تعتبر آخر تجسيدات العدو بأسلوب على قدر من التنظيم، ومعها الموجة المتصاعدة من محاولات تنفيذ هجمات عدة، توضح هذه الرؤية. ومرة أخرى، يشكل تدخل الولايات المتحدة فى اليمن، وتلاعبها بالحكومة اليمنية إحدى أقوى الحجج التى تستخدمها قاعدة اليمن لكسب تعاطف الجماهير غير المؤيدة لها بعامة ولا يحتاج المرء لأن

يكون مخططا استراتيجيا عسكريا ليقدر الفاعلية السياسية الكامنة فى فكرة «العدو المشترك» حق قدرها. فى الماضى، استغل تنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية إرث تدخل الولايات المتحدة الخبيث فى اليمن لدعم مشروعيته، ولا تترك طبيعة رد فعل الولايات المتحدة فى يومنا هذا أى شك فى أنه سيتمكن من اتباع نفس الاستراتيجية فى المستقبل المنظور. ومع استناد قوة التنظيم إلى قدرته على جذب دعم الجماهير والحفاظ عليه، فإن استمرار نهج اقتل/ أو/ اعتقل الذى تتبعه الولايات المتحدة والذى جعل اليمن عرضة لممارسات القاعدة وتأثيرها فى الماضى، سيعمل فى صالح قاعدة اليمن ويوجد الفرصة لها لتكسب الدعم. يقول تِد كوبل، فى تعليق له على الوضع فى اليمن فى عام ٢٠١٠ «بعد مرور تسع سنوات على ٩/١١، فلنتوقف عن اتباع نهج يعمل فى صالح بن لادن». إن جزءا مهما من الحرب ضد القاعدة هى معركة الأفكار التى لا يمكن كسبها عسكريا.

أين يترك هذا تحليل القاعدة؟ من غير المحتمل لفكرة الأمة الكوكبية - الحس بالتضامن الإسلامى وأيضا فكرة الوحدة الإسلامية واستعادتها - أن تختفى فى المستقبل المنظور. بيد أنه، وفى الوقت الذى يدعو فيه بن لادن إلى نمط من الإسلام النوعى، وأفكار مثالية للوحدة من خلال التركيز على عدو مشترك، ففى الواقع العملى، فإن الشقاق بين المسلمين قد تعاظم فيما تصلبت الخلافات المذهبية والطائفية. أصبح صراع القاعدة فى العراق مادة أساسية فى الخلافات الدموية بين السنة والشيعة هناك، بل إن ضراوة تلك المواجهات ومداها قد أصبحت السمة المميزة للإسلام الحديث. ظل المذهب الشيعى طوال التاريخ موضع إدانة

بصفته هرطقة من قبل بعض الجماعات السنية، ومازال يُجَابَه بمعارضة حتى يومنا هذا بأسلوب مشحون زخم بدرجة أن أى حس بوحدة الأمة يبدو وأنه قد اختفى. من ثم، يمكن النظر إلى الأوضاع القائمة فى العراق وخارجها اليوم بصفتها اندلاعا آخر للمشاعر العدائية التى ظلت هاجعة لفترة ليست بالقصيرة. بيد أن الواقع أكثر تعقيدا. كما تبين نيلى لحود فى تحليلها الشامل للمنظرين الجهاديين، فإن خط المواجهة لا يحدَّد حصريا وفقا لخطوط التقسيم بين السنة والشيعة. الأحرى أنه يزداد تعقيدا من خلال الخلافات العقائدية. فى صفوف القاعدة، على مستوى القيادات وفى أوساط الجهاديين المتواجدين فى ميادين قتال عدة فى مواقع مختلفة: وتذهب علياء براهيمى إلى أن مستوى التشظى المتزايد هذا هو أقوى دليل على احتمال أن تخسر القاعدة معركة الأفكار. ومع صعود «أفرع» القاعدة فى بلدان مختلفة وما أتت معها به من واقع دموى للعنف الطائفى والمذهبى، فإن سلطة بن لادن وأهدافه لاستعادة الأمة، وإصلاحها وتوسيع نظامها يتم تحديها من خلال الأهداف المحلية والوسائل العنيفة بتزايد. تذهب علياء براهيمى إلى أنه:

على حين اقتضى تطور القاعدة أو تحولها وترديها إلى شبكة من المجموعات المنتشرة المرتبطة بها قدرة تكتيكية مؤقتة على سرعة الحركة وخفتها ، فقد مثَّل هذا، فى نفس الوقت مصدرا كبيرا للضعف فى معركتها لكسب الأفئدة والعقول، فقد ضمنت لها «قدرتها على استمرار عملياتها» و«مرونتها وسرعة تكيفها واستعادة حيويتها» البقاء كما يرى بروس هوفمان، بيد أن هذا كان على حساب اقتصار تواجد المجموعة على أطراف الأمة الأكثر تطرفا.

وفى الواقع، فإن ثمة تطورات أخرى فى الشرق الأوسط، توضح المدى الذى به يعمل جهاديو القاعدة من الهوامش، بدلا من اكتسابهم مواضع

راسخة فى أوساط الجمهور العام. وعلى حين أنه من الملاحظ بعامة أن المنطقة تشهد نقلة باتجاه الإسلام والأفكار المحافظة، فإن الجهاد العنيف الكوكبى هو واحد فقط من توجهات عدة فى سبيلها إلى التنامى فى الوقت الراهن. لكن ما يتم التغاضى عنه دائما، هو أن المنطقة فى مجملها تمر بفترة انتقال يصعب التنبؤ بنتيجتها المحتملة. علاوة على ذلك، إذا اتخذنا من أفغانستان والعراق، وأيضا حالة إيران فى نهاية السبعينيات، نماذج للقياس، فإنه يمكن القول إنه من بالغ الصعوبة التحكم فى الأحداث الراهنة بالمنطقة وتوجيهها من الخارج. بيد أنه، وعلى حين أن الدين مُكوّن حاسم فى الدينامية المتكشفة، فليس هذا المكوّن الدينى راديكاليا أو متطرفا. توضح الانتفاضة الشعبية ضد الأنظمة القامعة التى عمت المنطقة وانتشرت من تونس إلى مصر واليمن ابتداء من يناير ٢٠١١ نظرة إلى العالم مختلفة جوهريا تتحدى التنميطات الشائعة عن الإسلام وأيضا الثقافة الدينية السلطوية التى لا تتسق مع الأفكار الليبرالية والتطلعات الديمقراطية. وعلى الرغم من النبرة العلمانية لهذه الانتفاضات، فربما كانت أكثر صورة أيقونية لتلك الثورة، هى صورة الحشود بميدان التحرير وهم راكعون فى صلاتهم، فيما يتلامسون حرفياً مع الدبابات التى أرسلتها الحكومة المصرية لتوكيد سلطتها. هذه صورة للإسلام تختلف جذريا عن تلك التى اعتاد الغرب رؤيتها: إنها صورة الإسلام وهو يجابه عنف الدولة ويتحداه من خلال الاحتجاج السلمى، نوع من الجهاد السلمى. ليست هذه هى المرة الأولى التى تحدث فيها انتفاضة سلمية فى العالم الإسلامى، بيد أن الأمثلة الأخرى ظلت أصغر مدى بكثير، ولم تصبح بؤرة اهتمام الإعلام العالمى.

وفيما تمضى تلك المقاومة السلمية ضد عنف الأنظمة المُتخندقة المحصنة فى طريقها لتحقيق الانتصار، من الجدير بالملاحظة أن أسامة بن لادن ونائبه المصرى أيمن الظواهرى لم يدليا بآرائهما حول الثورة فى مصر وفى المنطقة ككل. وعلى حين أنهما قد فشلا فى إشعال لهيب جهاد يعم العالم من خلال أيديولوجيا العودة إلى بداية أسطورية ونقية – ما يسميانه «عصر الإسلام الذهبى» – كما فشلا بنفس القدر فى الإتيان بفجر خلافة جديدة باستخدام استراتيجية القنابل البشرية، والمتفجرات، و تحويل الطائرات إلى صواريخ، فإن مجموعة نشطاء الشباب المسلمين، المنظمين والمتطلعين للمستقبل، وعلى الرغم من عدم اصطفافهم تحت قيادات معينة، قد نجحوا فى إشعال الشرق الأوسط بخطاب شمولى عن الحرية والديمقراطية. دفعوا تحديهم قُدما باطراد باستخدام استراتيجية للفوضى التدريجية التى هدفت لاقتلاع عدد من طغاة المنطقة الذين ظلوا ممسكين بالسلطة لعقود عديدة. عبّر أحد الهتافات التى تعالت فى ميدان التحرير ببلاغة عن هذا الخطاب، والذى تلاعب بهتاف الإخوان الشهير «الإسلام هو الحل»، حيث سُمِع الثوار يهتفون «تونس هى الحل». إذا أدت تظاهرات الشارع فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى انتقال سلمى إلى مجتمع أكثر تعددية، فهذا من شأنه تقويض رواية القاعدة التى تصر على أنه ينبغى الإطاحة بالحكومات السلطوية الموالية للولايات المتحدة من خلال الجهاد العنيف. وعلى الرغم من أنه، وبمعنى ما، من المتوقع أن تكون القاعدة بانتظار فرصة لاستعادة اهتمام العالم بها من خلال تدخّلٍ مخطط له بعناية، فإن الجهاديين قد اختفوا عن الأنظار فى

مواجهة ثورة المسلمين الجماهيرية التى تدعو إلى تغيير سلمى ديمقراطى فى المنطقة.

ثبتت صحة التنبؤ بأن القاعدة كانت بانتظار فرصة. أتى إطلاق النار على جنديين أمريكيين بمطار فرانكفورت فى ٢ مارس ٢٠١١ تذكِرة فى الوقت المناسب بأن الجهاديين مازالوا قوة يُعمل لها حساب. وبالطبع، وكما كان متوقعا، جاءت نتائج التحقيقات والتكهنات الشائعة - استنادا إلى قرائن من تعليقات المتهم موجودة على صفحته بفيس بوك - تقضى بأن مرتكب الحادث، وهو شاب من كوسوفو فى الحادية والعشرين من العمر، له روابط مع مجموعات إسلامية فى ألمانيا وأيضا مع شبكة القاعدة. وفى الواقع، فقد عالج العدد الخامس من مجلة Inspire الإلكترونية التى تُنشر باللغة الإنجليزية والتى يقال إنها تصدر عن الجناح الإعلامى لتنظيم القاعدة فى شبه الجزيرة العربية، عالج موضوع «الإرهاب الفردى» على وجه التحديد. بيد أن بؤرة مقالات هذا العدد الرئيسية كانت انتفاضات الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. يُفند المقال الرئيسى بعنوان «تسونامى التغيير»، والذى يقال إن أنور العولقى هو الذى يكتبه، الاعتقاد المتنامى بأن تلك الثورات تعد مؤشرا على أن القاعدة تفقد أهميتها بتزايد. وفقا للعولقى فإن «الثورة كسرت حاجز الخوف فى القلوب والعقول من استحالة الإطاحة بالطغاة.. وأيا كانت نتيجة تلك الثورات، فستتاح الفرصة لإخواننا المجاهدين فى تونس ومصر وليبيا وبقية أنحاء العالم الإسلامى للتنفس مرة أخرى بعد ثلاثة عقود من الاختناق». أيضا، يكتب الظواهرى فى العدد مقالا يتعاطى مع «الخطط طويلة المدى، والخطط قصيرة المدى» بعد الاحتجاجات. بيد أنه

بالإمكان القول إن افتتاحية يحيى إبراهيم هى التى توضح بجلاء موقف القاعدة مما هو حادث بالمنطقة حيث يقول:

«إن القاعدة لا تعارض تغيير الأنظمة من خلال الاحتجاجات بيد أنها ضد فكرة أن ذلك التغيير لا يجوز أن يحدث سوى من خلال الوسائل السلمية فقط مع استبعاد استخدام القوة. وفى الواقع فقد تحدث الشيخ أيمن الظواهرى داعما الاحتجاجات التى عمت مصر فى عام ٢٠٠٧، وأشار إلى حقيقة أنه حتى حينما تكون الاحتجاجات سلمية، فعلى الشعب أن يُعدَّ نفسه عسكريا. ثبت صواب هذا الرأى بالتحول الذى طرأ على الأحداث فى ليبيا. فلو لم يمتلك المحتجون الليبيون مرونة استخدام القوة لدى الحاجة، لتم قمع الانتفاضة. إننا نرى أن الثورات التى تهز عروش الطغاة هى فى صالح المسلمين وفى صالح المجاهدين، وضد مصالح إمبرياليي الغرب وعملائهم فى العالم الإسلامى. إننا جد متفائلين، وآمالنا عظيمة فيما ستسفر عنه الأحداث.

لم يكن لإبراهيم وهو يُعبر عن تفائله أن يتوقع أبدا التذكِرة الأعظم بدوْر القاعدة فى الشئون المعاصرة التى كانت على وشك أن تحتل العناوين الرئيسية فى الوسائط الإعلامية. فى ٢ مايو ٢٠١١ أعلن باراك أوباما نبأ مقتل أسامة بن لادن على أيدى القوات الخاصة الأمريكية.

لم تتضح بعد التبعات طويلة المدى للتخلص إلى الأبد من وجه القاعدة العلنى. فى البداية، أَطلقت الأنباء احتفالات تلقائية فى الولايات المتحدة، إذ كان ثمة إحساس بأن العدالة قد تحققت أخيرا فيما لقى زعيم القاعدة والإرهابى المطلوب رقم واحد فى أنحاء العالم نهايته التى يستحقها. رأى البعض موت بن لادن علامة على نهاية عهد، النجاح النهائى للحرب على الإرهاب وبداية النهاية بالنسبة لأخطر تنظيم إرهابى فى التاريخ. لكن لحظة الانتظار لم تدم طويلا. سرعان ما خيمت على مناخ الابتهاج ذاك الأصوات الناقدة التى تسائل مشروعية نهج مهمة الولايات المتحدة

المتمثل فى اقتل/ أو/ اعتقل، مؤكدة أن القاعدة مازالت تمثل تهديدا لا يستهان به، مع التنبؤ بتصاعد للهجمات الإرهابية انتقاما لمقتل بن لادن.

تبدو هذه التنبؤات منطقية تماما إذا نظرنا للقاعدة على أنها بشكل أساسى ذراع للجهاد الذى لا قيادة له، والذى، ونظرا لأن قوته تكمن فى أيديولوجيته لا فى بنيته التنظيمية، والذى هو بطبيعته على قدر من المرونة تمكنه من مقاومة تأثير اختفاء أى فرد واحد أيا كانت مكانته أو قدره. لكن، وكما كان علينا أن نتوقع، ركزت كثير من عناوين الصحف الرئيسية فى مناقشتها للحدث على تأكيد إدارة الولايات المتحدة بأن بن لادن كان هو ذاته إرهابيا، ووظيفيا، كان قائدا للقاعدة، وأنه كان واقعيا يدير التنظيم من مجمعه السكنى فى أبوتاباد.

دعم خط التفكير المعروف هذا بيان أصدره «تنظيم القاعدة – القيادة العامة» يؤكد موت بن لادن ويتعهد بالثأر له. لكن، هل هذه هى الحقيقة الكاملة؟ هل علينا، نحن الجماهير، أن نصدق الآن أن ثمة تنظيماً له بنية هرمية من القمة وأسفل؟

ووسط الاحتفالات، يفتح الجدل الخلافى حول أسلوب موت بن لادن، النقاش الذى يُفنّد هوية القاعدة. ويظل سؤال: ما القاعدة – تحديدا؟ قائما.



صدر من هذه

السلسلة

١ ـ محمد (ص)

٢ ـ صدام الحضارات

٣ ـ عصر الجينات

٤ ـ القدس

٥ ـ العولمة والعولمة المضادة

٦ ـ التاريخ السرى للموساد

٧ ـ من يخاف استنساخ الإنسان؟

٨ ـ حريم محمد على

٩ ـ عولمة الفقر

١٠ ـ صور حية من إيران

١١ ـ البحث عن العدل

١٢ ـ لورانس: ملك العرب غير المتوج

١٣ ـ الصهيونية تلتهم العرب

١٤ ـ معارك فى سبيل الإله

١٥ ـ التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية

١٦ ـ التسوية: أى أرض.. أى سلام

١٧ ـ المكنز الكبير

١٨ ـ الحق يخاطب القوة

١٩ ـ نساء فى مواجهة نساء

٢٠ ـ مؤامرة الغرب الكبرى

٢١ ـ روسيا.. إلى أين

٢٢- موسوعة الأم والطفل

٢٣- الخدعة الرهيبة

٢٤- نهاية الإنسان

٢٥- خدعة التكنولوچيا

٢٦- ٣٦٥ حتوتة وحتوتة

٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟

٢٨- أين الخطأ ؟

٢٩- اللولب المزدوج

٣٠- رجال بيض أغبياء

٣١- سادة العالم الجدد

٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل

٣٣- اللعب مع الصغار

٣٤- الإبادة السياسية

٣٥ - حكومة العالم السرية

٣٦ - ما بعد الإمبراطورية

٣٧ - بوش في بابل

٣٨ - المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام الدولى

٣٩ – تزييف الوعى
٤٠– القانون فى خدمة من ؟
٤١ ـ كفى
٤٢ – معنى هذا كله
٤٣– حياة بلا روابط
٤٤ – ٣٦٥ حدوتة وحدوتة
٤٥– أنا والعولمة .. عالم بديل ممكن..
٤٦– جسدى سلاحاً
٤٧– ثالوث الشر
٤٨– الحضارة الإسلامية المسيحية
٤٩– أمـــــريكا العظمى.. أحـــــزان الإمبراطورية
٥٠– الطَّريقُ إلى السُّوبَرْمَان
٥١– مدربون على القتـــل
٥٢– معاداة السامية الجديدة
٥٣– إبادة العالم الثالث
٥٤– بيولوجيا الخوف
٥٥– لغز اسمه الألم
٥٦– تعليم بلا دموع
٥٧– أحمد مستجير
٥٨–العين بالعين
٥٩– شاڤيز
٦٠– قصص الأشباح
٦١– حزب الله
٦٢– الإنسان هو الحل
٦٣– السيارات المفخخة
٦٤– بلاكووتر
٦٥– حضارتهم وخلاصنا
٦٦– نحو الحرية.. نلسون منديلا
٦٧– العهد
٦٨– مزرعة الحيوانات
٦٩– أطفال الإنترنت
٧٠– لعبة الملايين
٧١– تجارة الجنس
٧٢– الأمريكى الساذج
٧٣– الأبرياء
٧٤– الشباب والجنس
٧٥ – التربية من عام إلي عشرين عام
٧٦– فلورانس وإداورد

٧٧- الجهاد في سبيل الحقيقة

٧٨- غاندي (٢)، رؤي، تأملات، اعترافات

٧٩- شرف البنت

٨٠- الزواج المحرم

٨١- أنبياء مزيفون

٨٢- إمبراطورية العار

٨٣- اختطاف أمريكا

٨٤- شريعة الجستابو

٨٥- رومانسية العلم

٨٦- اختفاء فلسطين

٨٧- من هم إسرائيل

٨٨- ثلاثون كتاب في كتاب

٨٩- اقتصاد الاحتيال البرىء

٩٠- الله.. لماذا؟

٩١- الأمراض المعدية

٩٢- الطريق إلي بئر سبع

٩٣- مجمع الشيطان

٩٤- فى ذكرى المقاومة

٩٥- خطايا تحرير المرأة

٩٦- دساتير من ورق؟

٩٧- صُناع الملوك

٩٨- صناعة الأكاذيب

٩٩- عندما تحكم الصين العالم

١٠١- الحركة العامة للاقتصاد المصرى فى نصف قرن

١٠٢ - رحلة السندباد

١٠٣- وجه أوباما الأبيض

١٠٤- تشى چيڤارا سيرة للنشء

١٠٥- أنا أقترض.. أنا موجود

١٠٦- قصة فيس بوك

١٠٧- غواية الرجال

١٠٨ - تأثير إيران ونفوذها فى المنطقة

١٠٩ - المعرفة فى خدمة الهيمنة

١١٠- البيتلز «سيرة للنشء ٣»

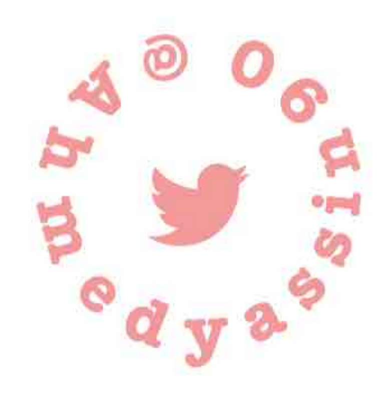
١١١- أسامة بن لادن «سيرة للنشء ٤»

١١٢- «كاليجولا» مسرحية من ٤ فصول

١١٣- المسلمون الافتراضيون

١١٤- القاعدة نهاية تنظيم، أم انطلاق تنظيمات؟

قائمة المحتويات


@Ahmedyassin90


كريستينا هلميتش
ترجمة : د. فاطمة نصر
بعد مقتل بن لادن وعشر سنوات من الحرب على الإرهاب
القاعدة
تصوير
أحمد ياسين
نهاية تنظيم أم انطلاق تنظيمات؟